كلاسيكيات

قصص

ماشادو دي أسيس .....

العرَّافة وقصص أخرى

ترجمة: مارك جمال

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

ماشادو دي أسيس

العرَّافة وقصص أخرى

ترجمها عن البرتغالية

مارك جمال

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

مارك جمال/ مترجم مصري من مواليد 1985؛ يترجم عن البرتغالية والإسبانية. عمل مترجمًا لدى سفارة البرازيل بالقاهرة. صدرت له عدة ترجمات من بينها: «النسيان» للكاتب الكولومبي «إكتور آباد فاسيولينسي» و«عشرون بطاقة بريدية» للشاعر الدومينيكاني «فرانك بايس» ورواية «سالباتيرا» للأرجنتيني «بيدرو مايرال».

.....

العرّافة وقصص أخرى

الطبعة الأولى 2017

رقم الإيـــــداع: 2016/27621

الترقيم الدولي: 978-977-821-012-5

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means, electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage and retrieval system, without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

اخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

Obra publicada com o apoio do Ministério da Cultura do Brasil/Fundação Biblioteca Nacional.
O tradutor desta obra recebeu uma bolsa do Programa de Residência de Tradutores Estrangeiros no Brasil, do Ministério da Cultura do Brasil/Fundação Biblioteca Nacional.

نُشِر هذا العمل بدعم من وزارة الثقافة البرازيلية/مؤسسة المكتبة الوطنية. كما حصل مترجم العمل على منحة مُقدمة من وزارة الثقافة البرازيلية/مؤسسة المكتبة الوطنية في إطار برنامج إقامة المترجمين الأجانب في البرازيل.

MINISTÉRIO DA CULTURA
Fundação BIBLIOTECA NACIONAL

SAFSAFA PUBLISHING HOUSE

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

العرَّافة وقصص أخرى

المحتويات

9	مقدمة
11	العرَّافة
27	حديث قديسين
43	ذراعا امرأة
59	رجل شهير
77	المرغوبة
95	الدافع الخفي
113	ثلاثية في مقام لا الصغير
129	آدم وحواء
141	الممرِّض
157	الدبلوماسي
175	ماريانا
193	قصَّة مدرسية
209	مثل الإبرة وبكرة الخيط
213	دونا «پاولا»
229	الحيـاة!
243	الكاهن وميتافيزيقا الأسلوب

«صديقي، فلنكتب الحكايات أبدًا..
الزمن يمضي، وحكاية الحياة تبلغ نهايتها
من دون أن ندركها»

«ديدرو»

مُقَدِّمَة

اختيرت القصص المتعدِّدة التي يتألَّف منها هذا الكتاب من بين قصص أخرى، وكان من الممكن زيادة عددها في حال لم يكُن من المناسب أن يقتصر الكتاب على صفحاته الثلاثمائة.

هذه هي المجموعة الخامسة التي أقدِّمها إلى الجمهور. وتُعدُّ كلمات «ديدرو» التي أصدِّر بها هذه المجموعة بمثابة اعتذار لأولئك الذين يحسبون عدد الحكايات الواردة بها أكبر مما ينبغي. فهي وسيلة لتمضية الوقت، ولا تطمح قصصي إلى أن تعيش بقدر ما عاشت قصص الفيلسوف «ديدرو». فلا المادة التي صُنعت منها، ولا الأسلوب المتَّبع في كتابتها، هما اللذان يُضفيان على قصص «پروسپير ميريميه» سمة روائع الأعمال، ويضعان قصص «إدجار آلان پو» في مصاف الكتابات الرائدة بأمريكا. وليس الحجم هو ما يضرُّ بذلك اللون من ألوان الحكايات، بل الجودة بطبيعة الحال. بَيْدَ أن القصص لا تخلو أبدًا من مزية ترفعها إلى منزلة أسمى من الروايات العظيمة، على الرغم من ركاكة بعضها: ألا وهي صغر الحجم.

«ماشادو دي أسيس»

1

العرَّافة

يُبدي «هاملت» إلى «هوراشيو» ملاحظة مفادها أن ثمَّة أشياء في السماء وعلى الأرض أكثر مما تحلم به فلسفتنا. وهو التفسير نفسه الذي قدمته «ريتا» الجميلة إلى الشاب «كاميلو»، ذات يوم جمعة في نوفمبر من عام 1869، بينما أخذ الأخير يضحك منها لكونها قد ذهبت إلى عرَّافة بغرض استشارتها في الليلة الفائتة، مع الفارق أنها أدلت بتفسيرها بكلمات أخرى.

- اضحكْ، اضحكْ. هكذا هم الرجال، لا يصدِّقون بأيِّ شيء. فلتعلم أنني قصدتها، وأنها حزرت الدافع وراء الاستشارة، قبل حتَّى أن أفصح لها عن كنهه. ما كادت تضع الأوراق، حتَّى قالت لي:

- أنتِ معجبة بشخص..

اعترفتُ لها بصحة قولها، فتابَعتْ هي وضع الأوراق، رتَّبتها، ثمَّ أفصحت لي بأنني أخشى أن تنساني، إلَّا أن ذلك ليس حقًّا...

فقاطعها «كاميلو»، ضاحكًا:

- أخطأَتْ!

- لا تقُل هذا يا «كاميلو». لو عرفت كيف كانت حالي، بسببك! أنت تعرف، فقد قلت لك بالفعل. لا تضحك مني، لا تضحك...

أخذ «كاميلو» بيديها، ونظر إليها بجدية وثبات. أقسم لها بأنه يحبها حبًّا جمًّا، وبأن مخاوفها تبدو وكأنها مخاوف طفلة صغيرة، ولكن بأيّة حال، إذا كانت تخشى شيئًا، فهو خير عرَّافة. بعد ذلك وبَّخها قائلًا إن التردّد على تلك البيوت ضرب من الطيش. فربما عرف «ڤيليلا»، وعندئذ...

- وكيف يعرف! لقد توخيت الحذر الشديد عند دخولي إلى البيت.

- وأين يقع البيت؟

- على مقربة من هنا، في شارع «جواردا ڤيليا». لم يمرّ أحد من هناك في تلك الأثناء. لا تقلق، فلست بمجنونة.

ضحك «كاميلو» مرة أخرى وسألها:

- هل تؤمنين بتلك الأشياء حقًّا؟

كانت تلك هي اللحظة التي قالت له فيها، من دون علم بأنها تترجم بذلك «هاملت» بلغة مبتذلة، إن ثمَّة أشياء كثيرة غامضة وحقيقية في هذا العالم. وإن لم يصدِّقها، فصبرًا. ولكن الحقّ أن العرافة حزرت كلَّ شيء. فماذا يريد فوق ذلك؟ والدليل على صحَّة كلامها أنها الآن هادئة وراضية.

أظنُّ أنه همَّ بالحديث، ولكنه أمسك عن ذلك. لم يرغب في إيقاظها من أوهامها. فهو الآخر كان يؤمن بالخرافات في طفولته، بل وما بعد الطفولة، وكانت في حوزته ترسانة كاملة من الخرافات غرستها فيه أمه ثمَّ تبدَّدت ببلوغه العشرين من العمر. وفي اليوم الذي ترك فيه تلك الأفرع الطفيلية تتساقط عنه جميعًا، حتَّى لم يبقَ له سوى جذع الديانة، أحاط الخرافة والديانة بالشكِّ ذاته، نظرًا لأنه كان قد تلقى كليهما عن أمِّه، وسرعان ما قابلهما برفض واحد قاطع. لم يكُن «كاميلو» يؤمن بأيِّ شيء. لماذا؟ لم يكن بمقدوره الإدلاء بسبب، ولم يكن يمتلك حُجَّة واحدة، بل كان يكتفي برفض كلِّ شيء. وأنا مخطئ بقولي هذا، فحتّى الرفض يُعدُّ بمثابة إقرار، أمَّا هو فلم يكُن يُعبِّر عن عدم إيمانه. وإزاء الغموض، قنع بهزِّ كتفيه، ومن ثمَّ مضى قدمًا.

افترقا مسرورين، بل إنه فاقها سرورًا. كانت «ريتا» على يقين من حبه لها، أمَّا «كاميلو»، فلم يكُن فقط على يقين من حبها له، بل كان يراها ترتجف وتجازف من أجله، وتهرع إلى العرافات. مهما وبَّخها، لم يكن قادرًا على الكفِّ عن الشعور بالإطراء. كان بيت الملتقى يقع في شارع «بَربونوس» العتيق، حيث تقطن امرأة من بلدة «ريتا» نفسها. سارت «ريتا» عبر شارع «مانجيراس»، صوب «بوتافوجو»، حيث تسكن. أمَّا «كاميلو» فقد سار عبر شارع «جواردا ڤيليا»، وفي طريقه أخذ ينظر ناحية بيت العرافة.

«ڤيليلا» و«كاميلو» و«ريتا»، ثلاثة أسماء، مغامرة واحدة،

ولا تفسير لأصل القصَّة. إليكم أصل القصَّة: كان الأول والثاني صديقيْن منذ الطفولة. تقدَّم «ڤيليلا» لنيل رسالة الماجستير. في حين التحق «كاميلو» بالعمل الوظيفي، ضد رغبة الأب الذي كان يريد أن يراه طبيبًا، إلَّا أن أباه توفي، فآثر «كاميلو» ألّا يصبح شيئًا على الإطلاق، حتَّى دبَّرت له أمه وظيفة في القطاع العام. وفي أوائل 1869، عاد «ڤيليلا» من البلدة، حيث تزوج من سيدة بارعة الجمال وساذجة، فتخلَّى عن درجة الماجستير وجاء ليفتتح مكتب محاماة. دبَّر له «كاميلو» بيتًا قُرب «بوتافوجو»، وذهب لاستقباله مرحبًا.

هتفت «ريتا» وهي تمدُّ له يدها:

- هل أنت السيد «كاميلو»؟ ليس لك أن تتصوَّر مقدار المودَّة التي يشعر بها زوجي نحوك، فقد كان يتحدث عنك دائمًا.

تبادل «كاميلو» و«ڤيليلا» نظرة حانية. كانا صديقين بحقّ.

بعد ذلك، أقرَّ «كاميلو» لنفسه بأن خطابات «ڤيليلا» لم تكذب بشأن زوجته. في الواقع، كانت رشيقة، لها لفتات تنبض بالحياة، وعينان دافئتان، وثغر دقيق كثير الاستفهام. كانت تكبرهما قليلًا، تبلغ من العمر ثلاثين عامًا، أمَّا «ڤيليلا» فتسعة وعشرون، و«كاميلو» ستة وعشرون. في تلك الأثناء، كان مظهر «ڤيليلا» الرصين يجعله يبدو أكبر من زوجته، في حين كان «كاميلو» بريئًا في كلٍ من الجانب المادي والجانب المعنوي من حياته. كان ينقصه كل من

أثر الزمن والنظارة الزجاجية التي تضعها الطبيعة في مهد البعض كي يبدوا أكبر سنًّا. كان بلا خبرة أو بديهة.

اجتمع ثلاثتهم. وأفضى التعايش إلى الحميمية. بعد وقت قصير توفيت أمُّ «كاميلو»، وفي ظلّ المصاب الذي ألمَّ به، أثبت كلاهما أنهما من خيرة أصدقائه. نهض «ڤيليلا» بأعباء الدفن وصلاة الجنازة وإجراءات توزيع الميراث، في حين اعتنت «ريتا» بقلب «كاميلو» على وجه الأخصّ، وما كان أحد ليعتني به أفضل منها.

كيف انتهى بهما المطاف إلى الحب، لم يعرف ذلك قط. والحقيقة أنه كان يحب قضاء الساعات إلى جوارها، كانت ممرضته المعنوية، تكاد تكون له شقيقة، إلا أنها كانت امرأة جميلة قبل كلِّ شيء. عطر الأنوثة: ذلك ما كان يتنسَّم فيها، وحولها، حتَّى يغلفه العطر كليَّةً. كانا يقرآن الكتب نفسها، يترددان على المسارح ويتنزهان معًا. علَّمها «كاميلو» الداما والشطرنج، فكانا يلعبان ليلًا. كانت هي تلعب على نحوٍ سيئ، أما هو فأقلّ سوءًا بقليل، من باب الكياسة. وهذا فيما يتصل بالأجواء المحيطة بهما. أمَّا من حيث الأفعال الشخصية، فكثيرًا ما كانت عينا «ريتا» العنيدتان تبحثان عن عينيه، ترجعان إليهما قبل الرجوع إلى عيني الزوج، اليدان باردتان، والتصرفات غريبة. ذات يوم، في عيد ميلاده، تلقَّى من «ڤيليلا» عصا نفيسة على سبيل الهدية، وتلقى من «ريتا» مجرَّد بطاقة تحمل تهنئة مبتذلة مكتوبة بالقلم الرصاص. عندئذٍ استطاع

أن يقرأ ما في قلبه، لم يَقْوَ على رفع عينيه عن البطاقة. كلمات مبتذلة، ومن المُبتذل ما تسامى، أو بَعَث على السرور على أقلِّ تقدير. إن عربة الخيل العتيقة التي تأخذك في جولة لأول مرة مع المحبوبة، وكل منكما لِصق الآخر، تضاهي في قيمتها عربة الإله «أبولو». هكذا هو الرجل، وهكذا هي الأمور المحيطة به.

أراد «كاميلو» الهرب بإخلاص، بيد أنه لم يعُد قادرًا على ذلك. فقد راحت «ريتا» تتقرب إليه كالأفعى، أحاطت به تمامًا، بضغطة واحدة هشَّمت عظامه، وهي تقطر في فمه سمًّا. خرَّ «كاميلو» باهتًا، خاشعًا. كَدَرٌ، جزع، وخز ضمير، رغبة، شعر بمزيج من كلِّ شيء. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت المعركة قصيرة، والنصر باعثًا على النشوة. وداعًا، أيتها الحيرة الأخلاقية! فما لبث الحذاء أن استأنس بالقدم، وها هما، على قارعة الطريق، وقد تأبَّط كلٌّ منهما ذراع الآخر، يخطوان بحرية فوق العشب والحصى، ليس يعتريهما سوى شيء من مشاعر الحنين التي تأخذهما عند غياب كلّ منهما عن الآخر. في حين ظلَّ تقدير «ڤيليلا» وثقته كما كانا من قبل.

ذات يوم، تلقى «كاميلو» رسالة من مجهول، يدعوه خائنًا وعديم الأخلاق، ويقول له إن مغامرته معروفة لدى الجميع. خاف «كاميلو»، وبدأ يُقلِّ من زياراته إلى بيت «ڤيليلا» حتَّى يبعد عن نفسه الشبهات. أبدَى «ڤيليلا» ملاحظة بشأن غيابه. فأجابه «كاميلو» بأن الدافع وراء ذلك شغف صبيان عابث. ومن السذاجة

تولّد الحذق. طال الغياب، وتوقفت الزيارات تمامًا. ربما شابَ ذلك أيضًا قليلٌ من حبِّ الذات، نيَّةٌ لوضع حدٍّ لأفضال الزوج، كي تصبح الخيانة أقلَّ مشقَّة.

كانت تلك هي الفترة التي هرعت خلالها «ريتا» إلى العرافة، مرتابة وخائفة، لتستشيرها بشأن الدافع الحقيقي وراء مسلك «كاميلو». رأينا أن العرافة قد ردَّت إليها الثقة، كما رأينا أن الفتى قد وبَّخها لكونها فعلت ما فعلت. مرَّت بضعة أسابيع أخرى. وتلقى «كاميلو» رسالتين أو ثلاث رسائل أخرى من مجهول، بلغت من السخط حدًّا لا يمكن أن تكون معه تحذيرًا يرمي إلى الحثِّ على الفضيلة، بل ضغينة يضمرها أحد الخُطّاب، وهو ما ذهبت إليه «ريتا» التي أفصحت عن الخاطرة الآتي ذكرها ولكن بكلمات رديئة الصياغة: «الفضيلة خامِلة جشعة، لا تنفق وقتًا ولا ورقًا، وحدها المنفعة نشِطة سخيَّة».

ولا حتَّى هذا زاد من طمأنينة «كاميلو». كان يخشى أن يلتقي ذلك المجهول بـ«ڤيليلا»، فتحلُّ المصيبة المحققة. وافقته «ريتا» على إمكانية حدوث ذلك. فقال لها:

– حسنًا، سآخذ المظاريف حتَّى أقارن بينها وبين الرسائل التي تصلني، في حال وجدت تشابهًا في خط اليد، سآخذها ثمَّ أمزقها.

لم تصله أية رسائل. ولكن بعد مرور فترة من الزمن، بدأ «ڤيليلا» يبدو كئيبًا، قليل الكلام، كمن يعتريه الشك. عجَّلت «ريتا» بإخطار

الآخر بما طرأ، ثمَّ تشاورا بهذا الشأن. كان من رأيها أنه يجب على «كاميلو» العودة إلى بيتهما، وجسّ نبض الزوج، بل وربما أسرَّ إليه الزوج بأحد مشاغله الخاصة. اختلف معها «كاميلو»، فالظهور بعد كلِّ الأشهر الماضية كان بمثابة تأكيد على الشبهة أو الوشاية. الأحرى بهما أن يتوخيا الحذر، وأن يضحي كلٌّ منهما لبضعة أسابيع. اتفقا على سبل المراسلة، في حال اقتضت الضرورة، وافترقا بعينين دامعتين.

في اليوم التالي، وفيما هو في محل عمله بالقطاع العام، تلقى «كاميلو» بطاقة من «ڤيليلا» فحواها كالتالي: «احضر فورًا، فورًا، إلى بيتنا. أنا في حاجة للحديث إليك بلا تأخير». كان الوقت قد تجاوز منتصف النهار. غادر «كاميلو» على الفور، وفيما هو في الشارع، انتبه إلى أن الأمر كان سيبدو أكثر تلقائية في حال استدعاه إلى المكتب. لماذا إلى البيت؟ كان كلُّ شيء يشير إلى أمر جلل. فضلًا عن خط اليد، الذي بدا له مرتعشًا، سواء أكانت تلك حقيقة أم وهمًا. أضاف كلَّ تلك الأشياء إلى ذكرى الليلة الفائتة. وراح يردِّد وعيناه على الورقة:

– احضر فورًا، فورًا، إلى بيتنا. أنا في حاجة للحديث إليك بلا تأخير.

رأى بعين الخيال بوادر دراما تدقُّ الأبواب، «ريتا» خاشعة باكية، «ڤيليلا» ساخطًا، ممسكًا بقلمه، يكتب البطاقة، على يقين من حضوره، في انتظاره كي يرديه قتيلًا. سرت في جسد «كاميلو»

رعشة، كان خائفًا. ارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة، وبدت له فكرة التراجع مثيرة للاشمئزاز بأيّة حال، ثمَّ مضى قدمًا. في الطريق، خطر له أن يذهب إلى البيت، فربما وجد رسالة من «ريتا» تشرح له كلَّ شيء. لم يجد شيئًا، ولا أحدًا. عاد إلى الشارع، وفكرة افتضاح أمرهما تبدو له أقرب فأقرب إلى الحقيقة، من الطبيعي أن تكون وشاية من مجهول، أو حتَّى من الشخص الذي توعده فيما مضى، وربما كان «ڤيليلا» قد ألمَّ الآن بكلِّ شيء. وحتَّى انقطاعه عن الزيارة من دون سبب بادٍ، متذرعًا بالكاد بحجة واهية، سوف يؤكد البقية.

مضى «كاميلو» في طريقه منفعلًا، لا يهدأ. لم يكُن يُعيد قراءة البطاقة، بَيْدَ أن الكلمات قد انطبعت نصب عينيه، ثابتة. أو أسوأ من ذلك، كانت تتردّد همسًا في سمعه، بصوت «ڤيليلا» ذاته. «احضر فورًا، فورًا، إلى بيتنا. أنا في حاجة للحديث إليك بلا تأخير». عند تلاوتها على هذا النحو، بصوت الآخر، كانت الكلمات تكتسب نبرة غموض وتوعُّد. احضر، فورًا، فورًا، لمَ؟ قاربت الساعة الواحدة ظهرًا. والمشاعر الجياشة في ازدياد، دقيقةً تلو الأخرى. راح يتخيَّل ما سوف يجري إلى حدٍّ صدَّق معه تخيلاته ورآها بعينه. ما من شك أنه كان خائفًا. شرع يفكِّر في الذهاب مسلَّحًا، آخذًا في الاعتبار أن الاحتياط واجب، وأنه ليس لديه ما يخسره في حال لم يحدث شيء. إلّا أنه نبذ الفكرة لساعته، خجلًا من نفسه، ثم واصل طريقه يحثُّ الخطى صوب مفرق «كاريوكا»، ليستقل عربة. وصل إلى المكان المنشود، ثمَّ استقل عربة وأمر السائس

أن ينطلق بسرعة.

فكّر فيما يلي: «كلما عجّلت بالذهاب كان أفضل، لا يمكنني أن أبقى على هذه الحال...».

ولكن حتّى عَدْو الحصان أخذ يزيد من حدّة انفعاله. أخذ الوقت يطير، ولن يمرَّ وقت طويل قبل أن يقف وجهًا لوجه أمام الخطر. قُرب نهاية شارع «جواردا ڤيليا»، اضطرت العربة للتوقف، إذ تعطلت حركة السير في الشارع بسبب انقلاب عربة أخرى. سُرَّ «كاميلو» في دخيلة نفسه بالعقبة التي وجدها في طريقه، وأخذ ينتظر. بعد مرور خمس دقائق، لاحظ إلى جواره، على يسار العربة، بيت العرافة التي قصدتها «ريتا» ذات مرة لاستشارتها. لم يسبق له أن رغب في التصديق بدرس الأوراق إلى هذا الحدِّ قط.

نظر فوجد نوافذ العرافة موصدة، في حين كانت كلُّ النوافذ الأخرى مفتوحة وقد تعلقت بها نظرات الفضوليين العالقين في الشارع بسبب الحادث. كان يمكن وصفه بأنه مسكن القدر اللامبالي.

أسند «كاميلو» ظهره فيما هو جالس في العربة؛ لئلا يرى شيئًا. كان اضطرابه عظيمًا، فائقًا، ومن قاع الطبقات النفسية راحت تنبثق أشباح من زمن غابر، الاعتقادات القديمة، الخرافات العتيقة. عرض عليه السائس العودة إلى الحارة الأولى، ومن ثمَّ اتخاذ طريق آخر، فأجابه أن كلا، أن انتظر. ثمَّ مال بجسده كي يمعن

النظر إلى البيت... أشار بإيماءة تنمُّ عن عدم تصديقه. كانت فكرة الإنصات إلى العرافة، تحلّق بعيدًا، بعيدًا جدًا، بجناحين هائلين رماديين. اختفت، عاودت الظهور، ثمَّ تلاشت مرة أخرى من ذهنه، ولكنها رفرفت بجناحيها مرَّة أخرى بعد قليل، أقرب، وهي تحوم في دوائر حول النقطة ذاتها... وفي الشارع، أخذ يصيح الرجال فيما يجرّون العربة:

- هيا! الآن! ادفع! هيا! هيا!

بعد قليل تُزاح العقبة. كان «كاميلو» يغمض عينيه، يفكر في أشياء أخرى، فيهمس صوت الزوج في سمعه بكلمات الرسالة: «احضر، فورًا، فورًا...»، أمَّا هو فيرى منعطفات الدراما ويرتجف. كان البيت ينظر إليه، فترغب ساقاه في الترجُّل عن العربة ومن ثمَّ الدخول إلى البيت... وجد «كاميلو» نفسه أمام حجاب هائل مبهم... فكّر سريعًا في استعصاء أشياء كثيرة للغاية على التفسير. راح صوت أمه يردِّد حفنة من الحالات الخارقة، ومقولة أمير الدنمارك ذاتها تتردَّد بداخله: «ثمَّة أشياء في السماء وعلى الأرض أكثر مما تحلم به الفلسفة»، فماذا يخسر لو أنه...؟

وجد نفسه على الرصيف إلى جوار الباب، قال للسائس أن ينتظر، وسرعان ما ذلف إلى الردهة ثمَّ رقي الدرج. كان الضوء خافتًا، والدرجات قد تآكلت تحت وطء الأقدام، والدرابزين دبقًا، إلّا أنه لم يرَ أو يحسّ بشيء. صعد وطرق الباب. وعندما لم يحضر أحد، خطر له أن ينزل، ولكن بعد فوات الأوان، إذ كان

الفضول يدفع بالدماء إلى عروقه، فينبض صدغاه. عاود قرع الباب مرةً، مرتين، ثلاث مرات. أقبلت امرأة، كانت هي العرافة. قال لها «كاميلو» إنه يريد استشارتها، فسمحت له بالدخول. ومن هناك صعدا إلى العُليَّة، عَبْرَ دَرَج في حال أسوأ من الدرج الأول وأشدّ عتمة. وبالأعلى، كانت ثمّةَ حجرة صغيرة، بالكاد ينفذ إليها الضوء عبر نافذة، تطلّ على أسطح القرميد الخلفية. متروكات قديمة، جدران موحشة، مظاهر فقر تخيِّم على جو المكان فلا تبدِّد هيبة المكان، بل بالأحرى تعزِّزها.

أجلسته العرافة في مواجهة الطاولة، أمّا هي فجلست على الجانب المقابل، وقد أولت ظهرها إلى النافذة، على نحو غمر معه الضوء الخافت الآتي من الخارج وجه «كاميلو». فتحت دُرجًا وأخذت منه كوتشينة أوراقها طويلة وقذرة. وفيما هي تخلطها، سريعًا، أخذت تحدجه بنظرات من طرف عينها، وتتلافى النظر إلى وجهه مباشرةً. كانت امرأة في الأربعين من العمر، إيطالية، سمراء، نحيلة، لها عينان واسعتان يطل منهما الدهاء والحدَّة. كشفت ثلاث أوراق على الطاولة، وقالت:

– لنرَ ماذا جاء بك إلى هنا أولًا. أنت في حالة فزع شديد.

أومأ «كاميلو» بالإيجاب، مشدوهًا. أما هي فتابعت:

– وتريد أن تعرف إذا كان سيقع لك مكروه أم لا.

فأوضح لها بحيوية:

- لي ولها.

لم تبتسم العرافة، بل قالت له أن انتظر فحسب. وسرعان ما أمسكت بأوراق اللعب مرة أخرى وخلطتها، بأصابع طويلة ودقيقة، وأظفار مهملة. خلطتها جيدًا، بدَّلت موضع أكوام الورق، مرة، مرتين، ثلاثًا، ثمَّ شرعت ترصّها، بينما يتطلع إليها «كاميلو» في لهفة وفضول.

- تخبرني الأوراق...

مال «كاميلو» كي يرتشف كلماتها واحدة تلو الأخرى. حينئذ أخبرته بألّا يخشى شيئًا. فلن يقع له أو لها مكروه. إذ إنه، الطرف الثالث، يجهل كلَّ شيء. وعلى الرغم من ذلك، فلا غنى عن الحذر الشديد: فالحسد والضغائن تعتمل في النفوس. حدَّثته عن الحبِّ الذي يجمعهما، عن جمال «ريتا»، بينما كان «كاميلو» منبهرًا. فرغت العرافة من قراءة الأوراق، لملمتها وأغلقت عليها الدُّرج. قال لها وهو يمدُّ يده من فوق الطاولة ويشدُّ على يد العرافة:

- لقد رَدَدتِ السلام إلى روحي.

أما هي فقد قامت من جلستها ضاحكة. ثمَّ قالت له بالإيطالية:

- اذهب، اذهب أيها الفتى العاشق.

وفيما هي واقفة على قدميها، مسَّت رأسه بسبابتها. سرت في جسد «كاميلو» رعشة، كما لو كانت يد متنبئة إغريقية حقيقية،

وقام من جلسته هو الآخر. اتجهت العرافة إلى طاولة وُضع فوقها صحن من الزبيب، أخذت منه حفنة، وشرعت تقشّرها ثمَّ تأكلها، مُبدية صفين من الأسنان لا تلائم أظفارها. حتَّى في هذا الأمر الاعتيادي، كانت لها طريقتها الفريدة. أمَّا «كاميلو»، المتلهف على الخروج، فلم يكن يعرف كيف يؤدي مستحقاتها. كان يجهل الثمن. في النهاية قال لها فيما يبرز حافظة نقوده:

- الزبيب يكلِّف نقودًا. ما كمية الزبيب التي تريدين طلبها؟

فأجابته قائلة:

- اسأل قلبك.

أخرج «كاميلو» ورقة من فئة عشرة آلاف «راي»، وأعطاها لها. اتسعت عينا العرافة. كانت تتقاضى ألفي «راي» عادةً.

- يبدو لي جليًّا أنك معجب بها جدًّا... وحسنًا فعلت، فهي الأخرى معجبة بك جدًّا. اذهب، اذهب مطمئنًّا. خذ حذرك، فالدرج معتم، اعتمر قبعتك.

كانت العرافة قد وضعت الورقة النقدية في جيبها بالفعل، ورافقته نزولًا، فيما تتحدث بلكنة خفيفة. ودَّعها «كاميلو» بالأسفل ثمَّ تابع نزوله عبر الدرج المؤدي إلى الشارع، في حين عادت العرافة إلى حجرتها بالأعلى، مبتهجة بما تقاضت، تدندن بأغنية «باركارولا» شعبية. وجد «كاميلو» العربة في انتظاره، وقد عادت حركة السير إلى الشارع. استقلَّ العربة التي تابعت طريقها

سريعًا.

الآن بدا له كلُّ شيء أفضل مما سبق، فاكتسبت الأشياء هيئةً أخرى، وصَفَت السماء وهشَّت الوجوه. بل وأخذ يضحك من مخاوفه التي وصفها بالصبيانية. تذكَّر الألفاظ الواردة برسالة «ڤيليلا» وأقرَّ بأنها ودودة وحميمية. أين وجد فيها ما يمثِّل تهديدًا؟ وانتبه أيضًا إلى أنها كانت مستعجلة، وإلى أنه قد أخطأ باستغراق كلَّ هذا الوقت، فمن الممكن أن يكون أمرًا خطيرًا، بل وبالغ الخطورة. أخذ يردِّد على سمع السائس:

-هيا، هيا بسرعة.

وبينه وبين نفسه، اختلق حجّة كي يبرر تأخيره لصديقه. وفضلًا عن ذلك، يبدو أنه وضع خطة لاستغلال الحادث حتَّى يستأنف المواظبة على بيت صديقه كسابق عهده... عاد إلى خططه، بينما راحت كلمات العرافة تتردَّد بداخله. في الحقيقة، كانت قد حزرت سبب الاستشارة، وموقفه، ووجود طرف ثالث. فلماذا لن تحرز البقية؟ الحاضر المجهول يساوي المستقبل. وهكذا أخذت معتقدات الفتى العتيقة، ببطء ومثابرة، تعود إلى السطح، والغموض ينشب فيه مخالب من حديد. أحيانًا كانت تنتابه رغبة في الضحك، بل وكان يضحك بالفعل من نفسه، بشيء من الخزي. ولكن المرأة، الكوتشينة، الكلمات الجافة الجازمة، النصيحة: «اذهب، اذهب أيها الفتى العاشق»، وفي النهاية، من بعيد، أغنية «الباركارولا» الشعبية على سبيل الوداع، بطيئة وطريفة، كانت

تلك هي المكونات الحديثة التي امتزجت بالمكونات القديمة لتؤلِّف إيمانًا جديدًا ينبض بالحياة.

والحقيقة أن شعورًا بالبهجة ونفاد الصبر قد غمر قلبه، وراح يفكر في الساعات السعيدة الماضية، والآتية. وعند مروره بحيّ «جلوريا»، رنا «كاميلو» إلى البحر، مدَّ بصره خارجًا، إلى حيث تتلاقى المياه والسماء في عناق لامتناهٍ، وهكذا داخَلَه إحساس بالمستقبل، المديد، المديد، الذي لا ينتهي.

بعد وقتٍ يسير بلغ بيت «ڤيليلا». ترجَّل عن العربة، دفع باب الحديقة الحديدي ودلف إلى الداخل. كان البيت غارقًا في الصمت. رقي الدرجات الحجرية الست، وبالكاد حظي بالوقت الكافي ليقرع الباب، فقد انفتح ليبرز منه «ڤيليلا».

- معذرةً، لم أستطع الحضور قبل ذلك. ما الخطب؟

لم يحر «ڤيليلا» جوابًا. كان وجهه ممتقعًا. أومأ له، فاتجها إلى حجرة صغيرة داخلية. عندئذ لم يستطع «كاميلو» أن يكتم صرخة هلع؛ ففي خلفية الصالة، فوق الأريكة، تمددت «ريتا» جثة هامدة مضرجة بالدماء. جذبه «ڤيليلا» من ياقة القميص، وبطلقتين من مسدسه أرداه قتيلًا ليسقط ممددًا على الأرض.

2

حديث قديسين

حكى أبٌ كاهن طاعن في السن، قال:

عندما كنت قسيسًا في كنيسة القديس «فرانسيسكو دي پاولا»، عشت مغامرة خارقة للمألوف.

كنت أسكن قرب الكنيسة، وذات ليلة عدت إلى مسكني متأخرًا. لم أكُن أعود متأخرًا إلّا وقد تحققت من إغلاق أبواب الكنيسة بإحكام أولًا. وجدتها موصدة بإحكام، إلا أنني لمحت ضياءً يتسلل من أسفل الأبواب. هرعت مذعورًا أبحث عن دورية الشرطة. لم أجدها، فعدت أدراجي حيث لبثت في فناء الكنيسة وأنا لا أعرف ما العمل. لم يكُن الضوء بالغ الشدة، ومع ذلك كان أشدَّ من أن يصدر عن مصابيح لصوص. فضلًا عن ذلك، فقد لاحظت أنه كان ثابتًا متجانسًا، لا يتراقص من جانب إلى آخر كما كان ليفعل في حال كان منبعثًا عن شموع أو مصابيح يحملها لصوص. استحوذ عليَّ الغموض، فقصدت البيت بحثًا عن مفاتيح حجرة المقدَّسات (كان خادم حجرة المقدَّسات قد ذهب لقضاء ليلته في «نيتيروي»)، رسمتُ علامة الصليب أولًا، ثمَّ فتحت الباب ودلفت إلى الداخل.

كانت الردهة معتمة. سرت على مهل أحمل مصباحًا، وأنا أكبح الصوت الصادر عن حذائي قدر الإمكان. وجدت أوَّل وثاني الأبواب المؤدية إلى الكنيسة موصدين، في حين بدا الضوء ذاته، وربما أقوى مما كان يبدو عليه ناحية الشارع. مضيت قدمًا، إلى أن وجدت الباب الثالث مفتوحًا. وضعت المصباح في أحد الأركان، وغطيته بوشاحي لئلا يروه من الداخل، ثمَّ دنوت أتلصص على ما يجري.

توقفت في الحال. في الواقع، لم أدرك حتَّى تلك اللحظة أنني أعزل تمامًا، وأنني سوف أعرّض نفسي لمجازفة كبيرة بالذهاب إلى الكنيسة وأنا لا أملك من وسائل الدفاع سوى يديّ. مرَّت بضع دقائق أخرى والضوء بالكنيسة كما هو، متجانس وشامل، له لون الحليب على خلاف ضوء الشموع. وسمعت أصواتًا أوقعتني في حيرة، فلا هي هامسة ولا مرتبكة، بل طبيعية، واضحة وهادئة، على غرار المحادثات. لم أتمكن من فهم ما يقال على الفور. وفي خضم ما يجري، باغتتني فكرة جعلتني أتراجع إلى الوراء. فبالأخذ في الحسبان أن الجثث في تلك الحقبة كانت تُدفن في الكنائس، دار بمخيلتي أن ذلك الحديث ربما يكون دائرًا بين الموتى. تراجعت مذعورًا، ولم أقوَ على اتخاذ ردّ فعل أو الدنو من الباب مرة أخرى إلّا بعد مرور بعض الوقت، وأنا أقول لنفسي إن فكرة كهذه ليست بأكثر من محض هراء. في حين كان الواقع على وشك أن يمنحني ما هو أكثر إثارة للدهشة من حوار الموتى. سلّمت أمري للرب، رسمت علامة الصليب مرَّة أخرى ومضيت

في طريقي، خلسةً، متكئًا على الحائط، إلى أن دلفت إلى الداخل، وعندئذ رأيت شيئًا خارقًا للمألوف.

اثنان من أصل ثلاثة قديسين، مكانهم على الجانب المقابل (عن يمين الداخل إلى الكنيسة عبر الباب الأمامي)، كانا قد نزلا عن مقصورتيهما وجلسا فوق مذبحيهما، وهما القديسان يوسف وميخائيل. لم تكُن لهما أبعاد الصور، بل أبعاد البشر. كان حديثهما موجهًا إلى هذا الجانب، حيث مذبحا القديسين يوحنا المعمدان و«فرانسيسكو دي ساليس». ليس لي أن أصف ما شعرت به. فلبعض الوقت لا أملك حسابه، لبثت مكاني لا أمضي إلى الأمام ولا أعود إلى الوراء، ترتعد فرائصي، وقد اقشعر بدني. من المؤكد أنني شارفت على حافة هاوية الجنون، ومن الرحمة الإلهية أنني لم أسقط. فقدت الوعي بذاتي وبكل واقع آخر، عدا ذلك الواقع بالغ الجِدَّة والتفرُّد، بهذا أستطيع أن أقرَّ جازمًا. ما من سبيل آخر لتفسير التهوّر الذي دفعني للتوغل في الدخول إلى الكنيسة بعد وهلة؛ حتَّى أرى الجانب المقابل أيضًا. وهناك رأيت الشيء ذاته: القديس «فرانسيسكو دي ساليس» والقديس يوحنا وقد نزلا عن مقصورتيهما، وجلسا على مذبحيهما يتحدثان إلى القديسين الآخرين.

كنت قد بلغت من الذهول حدًّا واصلوا معه حديثهم، في ظنِّي، من دون حتَّى أن أسمع لهم صوتًا. رويدًا رويدًا، اكتسبت قدرةً على إدراك أصواتهم وفهمت أنهم لم يقطعوا حديثهم. سمعت

الكلمات بوضوح، ميَّزتها، إلا أنني لم أستطع تبيُّن معانيها في الحال. جعلني أحد القديسين أدير رأسي عندما وجه حديثه إلى ناحية المذبح الرئيسي، حينئذ رأيت أن القديس «فرانسيسكو دي پاولا» شفيع الكنيسة، كان قد ذهب مذهب الآخرين وراح يتحدَّث إليهم، كما يتحدَّثون فيما بينهم. لم ترتفع أصواتهم عن الطبقة المتوسطة، وعلى كلٍ حال، كانت أصواتهم مسموعة على نحو جليّ، وكأن الموجات الصوتية قد اكتسبت قدرة أكبر على الانتقال. ولكن إذا كان هذا كلّه مذهلًا، فلم يكن الضوء بأقل منه مدعاة للذهول، إذ لم يكُن له مصدر على الإطلاق، فالثُّريَّات والشمعدانات مطفأة عن آخرها. كان مثله كمثل ضوء القمر، وقد تسلَّل إلى المكان من دون أن تتسنَّى للعيون رؤية القمر. وهي مقارنة من الدقة بحيث كان الضوء ليترك بضعة مواضع معتمة لو كان مبعثه القمر حقًّا، كما كانت الحال هناك بالفعل. وفي واحدٍ من تلك الأركان المعتمة، اتخذت لنفسي ملاذًا.

عندئذ كنت قد أصبحت أتصرف بتلقائية. لم تكُن الحياة التي عشتها خلال ذلك الوقت تشبه ما سبقها أو ما تلاها. يكفي الأخذ في الاعتبار أنني، وأمام مشهد على ذلك القدر من الغرابة، قد زال الخوف عني تمامًا. فقدت القدرة على التفكير، ولم يسعني سوى الإصغاء والتأمل.

تفهمت بعد لحظات أنهم بصدد حصر صلوات وتضرعات ذلك اليوم والتعقيب عليها. فراح كلٌّ يدلي بملاحظة حول أمرٍ

من الأمور. كانوا قد نفذوا، وهم جميعًا أطباء نفسيون في غاية السوء، إلى نفوس المؤمنين وحيواتهم، محللين مشاعر كلّ مؤمن كما يُشرِّح الأطباء الشرعيون جثّةً هامدة. كان الناسكان المتقشفان، يوحنا المعمدان و«فرانسيسكو دي پاولا»، يبدوان غاضبين وقاطعين في بعض الأحايين. أمّا القديس «فرانسيسكو دي ساليس»، فلم يكن هكذا، بل كان يصغي إلى الأمور أو يرويها بالرفق نفسه الذي ألّف به كتابه الشهير «مقدمة إلى حياة التقوى».

وهكذا راح كلٌّ يروي ويُعقِّب وفق مزاجه. كانوا قد ذكروا بالفعل حالات من الإيمان النقي الصالح، وأخرى من اللامبالاة والرياء والتلوُّن. اشتد حنق الناسكيْن شيئًا فشيئًا، في حين أخذ القديس «فرانسيسكو دي ساليس» يُذكِّرهما بنصِّ الكتاب المقدس: «لأَنَّ المَدْعُوِّينَ كَثِيرُون، وَلكِنَّ المُخْتَارِينَ قَلِيلُون»، أي أنه ليس كلُّ من ذهب إلى الكنيسة يحمل بين جوانحه قلبًا نقيًّا. أخذ القديس يوحنا يهزُّ رأسه:

- «فرانسيسكو دي ساليس»، أقول لك إن شعورًا غريبًا على القديسين يتسلل إلى نفسي: بدأت أفقد إيماني بالبشر.

فقاطعه قداسة الأسقف قائلًا:

- أنت تبالغ في كلِّ شيء يا يوحنا المعمدان، دعونا لا نبالغ مطلقًا. اسمع، اليوم على وجه التحديد جرى هنا شيء جعلني أبتسم، في حين أنه ربما كان ليثير سخطك. البشر ليسوا أسوأ

مما كانوا عليه في قرون سابقة، فلو أننا أغفلنا ما بهم من نقائص، لتبقَّى الكثير من الأمور الصالحة. آمن بهذا، ترتسم على وجهك الابتسامة وأنت تصغي إلى قصَّتي.

- أنا؟

- أنت يا يوحنا المعمدان، وأنت أيضًا يا «فرانسيسكو دي پاولا»، وجميعكم سوف تبتسمون معي. ومن جانبي، يمكنني أن أبتسم أنا الآخر، فلقد تشفَّعت عند الرب في طلبة ذلك الرجل الذي قصدني، ونلتها بالفعل.

- أيُّ رجل؟

- رجل أكثر إثارة للاهتمام من نسَّاخك يا يوسف، ومن صاحب الحانوت الذي حكيت عنه يا ميخائيل...

قاطعه القديس يوسف قائلًا:

- ربما، ولكنه لن يكون أكثر إثارة للاهتمام من الزانية التي جاءت إلى هنا اليوم وارتمت عند قدميّ. جاءت تسألني أن أطهِّر قلبها من جذام الشهوة. بالأمس فقط، دبَّ شجار بينها وبين عشيقها الذي آذاها على نحو أخرق، فقضت ليلتها باكية. وفي الصباح عزمت على أن تهجره، فجاءت إلى هنا بحثًا عن القوَّة التي تعوزها للإفلات من براثن الشيطان. بدأت صلاتها بداية حسنة، بحرارة. ولكن رويدًا رويدًا، رأيت فكرها يهجرها ليعود إلى الملذات الأولى. وفي الوقت ذاته راحت الحياة تفارق كلماتها،

فصارت صلاةً فاترة، ثمَّ باردة، ثمَّ صلاةً تُتلى في غير وعي. أخذت الشفتان اللتان قد درجتا على الصلاة تبتهلان، أمَّا النفس، التي كنت أتلصَّص عليها من مكاني بالأعلى، فلم تعُد هنا، بل مع الآخر. في النهاية رسمت علامة الصليب، ثمَّ قامت وخرجت من دون أن تطلب أيَّ شيء.

- قصَّتي أفضل من هذه.

فسأله القديس يوسف بفضول:

- أفضل من هذه؟

فأجابه القديس «فرانسيسكو دي ساليس»:

- أفضل كثيرًا. وليست حزينة بقدر قصَّة تلك النفس المسكينة التي جرحتها شرور الأرض، والتي ما زالت نعمة الرب قادرة على أن تخلِّصها. ولماذا لن تخلص النفس الأخرى؟ إليكم السبب.

سكت الجميع، ومالوا بجذوعهم في انتباه وترقّب. وهنا تسلل إليَّ الخوف. تذكّرت أنهم، وهم الذين يعاينون كلَّ ما يعتمل في نفوس البشر من خواطر خافية ونوايا منحرفة وضغائن مضمرة في الصدور، وكأننا من زجاج، كان من الممكن جدًّا أن يقرءوا في نفسي الخطيئة أو بذرة الخطيئة. إلا أنني لم أحْظَ بوقت لإطالة التأمل، فقد شرع القديس «فرانسيسكو دي ساليس» يتكلم قائلًا:

- الرجل الذي أنا بصدد الحديث عنه في الخمسين من عمره،

زوجته طريحة الفراش، مصابة بداء الحمرة في ساقها اليسرى. يعيش مكروبًا منذ خمسة أيام، فالداء آخذ في التفاقم والعلم لم يتوصل إلى علاج له بعد. انظروا إلى أيّ مدى يُمكن أن تصل فكرة مسبقة جماعية. لا أحد يصدِّق الألم الذي يتكبَّده «ساليس» (اسمه على اسمي)، لا أحد يصدِّق أنه يحبُّ شيئًا بخلاف المال، فما كاد خبر الكرب الذي يمرُّ به ينتشر، حتَّى انهمر سيل من الدعابات والنكات السخيفة في كافة أرجاء الحيِّ. ولم يخلُ الأمر حتَّى ممن صدَّق بأنه كان يتأوَّه من وجع تكاليف الدفن مقدَّمًا.

فقال القديس يوحنا متأملًا:

- من الممكن جدًّا أن يكون ذلك صحيحًا.

- ولكنه لم يكُن صحيحًا. أمّا كونه مرابيًا طماعًا، فهو ما لستُ بمنكره: مرابيًا كالحياة، وطماعًا كالموت. لم يحدث يومًا أن مدَّ أحدٌ يده بالقدر نفسه من التعنُّت في جيوب الآخرين ينتزع منها الذهب والفضَّة والورق والنحاس، ولم يحدث أن نغَّص أحدٌ عيشَهم بقدر أكبر من الحماس والهمَّة. النقود التي تقع في يده، يصعب أن تعاود الخروج. وكل ما يفيض عن الريع الذي تدرُّه عليه أملاكه يسكن داخل خزانة من الحديد، مغلقة بالضبَّة والمفتاح. يفتحها أحيانًا، في ساعات متأخِّرة، يتأمَّل الأموال لبضع دقائق، ثمَّ يغلقها مرة أخرى على عجل، بيد أنه لا يذوق للنوم طعمًا في تلك الليالي، أو ينام نومًا متقطِّعًا. ليس له أبناء. الحياة التي يعيشها مزرية، يأكل لئلَّا يموت، القليل والرديء من الطعام. تتألَّف أسرته

من زوجته وجارية سوداء، اشتراها وجارية أخرى منذ أعوام طوال في الخفاء، نظرًا لكونهما مهربتين. يُقال إنه لم يؤدِّ حتَّى ثمنهما، فالبائع قد توفي بعد ذلك مباشرة من دون أن يترك أيّة مستندات مكتوبة. توفيت الجارية السوداء الأخرى منذ زمن يسير، والآن سترون إن كان هذا الرجل نابغة في الاقتصاد أم لا؛ «ساليس» أعتق جثة الجارية...

وتوقف قداسة الأسقف كي يتذوَّق ذهول الآخرين.

- الجثة؟

- أجل، الجثة. ترك الجارية تُدفن كامرأة حرَّة بائسة، حتَّى لا يضطر لأداء تكاليف الدفن. فحتَّى وإن كانت زهيدة، فهذا لا يمنع كونها تكاليف. وعند «ساليس» لا شيء يعدُّ قليلًا، فبقطرات المياه تغرق الشوارع. لا يرغب في أيٍّ من الألقاب النبيلة، ولا يريد من يمثِّله، فكل هذا يكلِّف مالًا، وبحسب قوله، فالمال لا يتساقط من السماء. القليل من العلاقات الاجتماعية، ولا وسيلة واحدة من وسائل الترفيه العائلية. بالكاد يسمع النوادر عن حياة الآخرين ويرويها، وتلك هدية مجانية.

قال القديس ميخائيل متأملًا:

- من الممكن تفهُّم حالة عدم التصديق العامة.

- لا أنكر ذلك؛ لأن العالم لا يذهب إلى أبعد من ظواهر الأمور. العالم لا يرى أنها زوجة يحبُّها زوجها بحقّ، فضلًا عن

كونها ربّة المنزل الشريفة التي علّمها بنفسه، والمرأة التي ائتمنها على أسراره أكثر من عشرين عامًا. لا تجزع يا ميخائيل، فعلى ذلك الحائط بالغ الخشونة، أينعت زهرة لا لون لها ولا رائحة، ولكنها زهرة. فعلم النبات العاطفي لا يخلو من تلك الحالات الخارجة عن المألوف. «ساليس» يحبُّ زوجته، وأصابته فكرة فقدانها بالإحباط والهذيان. وفي وقتٍ مبكر جدًّا من صباح اليوم، بعد ليلة لم ينَم خلالها لأكثر من ساعتين، أخذ يفكر مليًّا في الكارثة التي تحيق به. أما وقد انتابه القنوط من الأرض، فقد توجَّه إلى الرب. فكَّر فينا، وفيَّ أنا على وجه الأخصّ، باعتباري القديس الذي سُمي تيمنًا باسمه. وحدها معجزة قادرة على أن تنجيها؛ ولذا فقد عزم على المجيء إلى هنا. جاء «ساليس» مهرولًا، إذ يسكن قريبًا. دخل وفي عينيه نظرة ملؤها البريق والأمل، ربما كان نور الإيمان، إلا أنه كان شيئًا آخر غاية في العجب، سأخبركم عنه. وهنا أسألكم أن تولوني انتباهكم مضاعفًا.

رأيت جذوعهم تميل أكثر فأكثر، حتَّى أنا لم أستطع الإمساك عن الحركة، فخطوت خطوة إلى الأمام. كان سرد القديس من الطول والإسهاب، والتحليل الذي عرضه من التعقيد، بحيث لن أوردهما هنا بالكامل، بل سأكتفي بالمضمون.

– عندما فكَّر «ساليس» في المجيء ليسألني شفاعتي في حياة زوجته، خطرت له فكرة محدَّدة تليق بمراب، ومفادها أن ينذر لي ساقًا من الشمع. لم يكُن هو المؤمن الذيَ يعبِّر بذلك الرمز عن

ذكرى العطية الإلهية، بل المرابي الذي أخذ يفكّر في إلزام النعمة الإلهية بالأرباح المرتقبة. وليس الربا وحده هو الذي تحدث، بل الطمع أيضًا. فالحقيقة أنه بقبوله النذر قد أبدى رغبته في نجاة حياة زوجته بحقّ (بحدس الطماع). إذ يُعدُّ الإنفاق بمثابة توثيق: «وحده ما يُشترى بالمال يرغبه القلب»، هكذا حدَّثه ضميره، بالفم المظلم نفسه. تعلمون أن أفكارًا كتلك لا تُصاغ شأن غيرها من الأفكار، بل تولد من حشا الشخصيَّة وتبقى في عتمة الضمير. ولكنه ما كاد يدخل، وفي عينيه نظرة تبرق بالأمل، حتَّى قرأت كلَّ ما يعتمل في دخيلة نفسه. قرأت كلَّ شيء وانتظرت حتَّى فرغ من رسم علامة الصليب والصلاة.

قال القديس يوسف متأملًا:

- على الأقل، في قلبه قدرٌ من الإيمان بالدين.

- في قلبه قدرٌ من الإيمان بالدين، ولكنه مبهم وشحيح. فلم ينضمّ يومًا إلى أخويّة أو جمعية دينية، «لأن فيها يُسرق ما للرب»، وهو ما يقول به حتَّى يصالح بين إيمانه وجيبه. صحيحٌ أنه يخاف الرب ويؤمن بالعقيدة، ولكن ليس من الممكن أن يحظى المرء بكل شيء.

- حسنًا، جثا على ركبتيه وصلَّى.

- صلَّى، وفيما هو يصلِّي، عاينتُ نفسه المسكينة، التي كانت تعاني بحقّ، وإن بدأت آماله تستحيل يقينًا بديهيًّا. ينبغي للرب أن

ينجي المريضة، عنوةً، بفضل وساطتي، فأنا سوف أتشفع له، هكذا أخذ يفكر فيما تتلو شفتاه كلمات الصلاة. ختم صلاته، ثمَّ لبث «ساليس» لبعض الوقت يتطلع، متضرعًا. وفي النهاية تكلَّم فم الرجل، تكلَّم كي يعترف بالألم، كي يُقسم بأنه ما من يد أخرى بخلاف يد الرب قادرة على دفع المصاب. «زوجتي ستموت... زوجتي ستموت... زوجتي ستموت...». راح يردِّد العبارة نفسها، لا يبدِّلها: «زوجتي ستموت»، لا يتجاوزها إلى ما بعدها. على وشك أن يصوغ طلبته ونذره، بَيْدَ أنه لم يجد كلمات ملائمة، لا تقريبية ولا حتَّى ملتبسة، لم يجد أيَّ شيء، إلى ذلك الحدِّ لم يكُن معتادًا على الجود بأيِّ شيء. في النهاية أفصح عن طلبته: «زوجتي ستموت»، أخذ يتوسل إليَّ أن أنجيها، أن أطلب من الرب لأجلها. أمَّا النذر فلم يفصح عنه. في اللحظة التي أوشك فيها فمه على النطق بأول كلمة، كانت مخالب الطمع تنشب في حشاه فلا تسمح للكلمات بالخروج. راح يطلب مني أن أنجيها... أن أتشفع لها.

وفي الهواء، أمام عينيه، تبدَّت الساق الشمعية، وفي الحال تلتْها قطعة النقود التي سوف تكلِّفه الساق. تلاشت الساق، في حين ظلَّت قطعة النقود، مستديرة، لامعة، صفراء، من الذهب النقي، الذهب الخالص، خير من الشمعدانات الموضوعة على مذبحي، المغطاة بالكاد بطلاء من الذهب. حيثما أدار عينيه، كان يرى قطعة النقود، تدور، وتدور، وتدور. تتحسَّسها العينان من على بعد، وتنقلان إليه الإحساس البارد بالمعدن، بل وحتَّى الإحساس ببروز النقوش. كانت هي نفسها، صديقته القديمة لأعوام طوال، رفيقة

النهار والليل، معلقة هناك في الهواء، تدور، على غير هدى. كانت هي التي تتدلّى من السقف، أو ترتفع عن الأرض، أو تتدحرج فوق المذبح، من الرسائل إلى الإنجيل، أو تقرع كريستال الثُريَّات.

والآن اشتدَّت توسلات العينين وأشجانهما، وصارت طوعية على نحوٍ خالص. رأيتهما تمدَّان البصر ناحيتي، ملؤهما انسحاق، مهانة، هجران. والفم ينطق بأشياء متفرقة -الرب، ملائكة الرب، الجروح المقدسة- كلمات دامعة مرتجفة، كما لو كان القصد من وراء ذلك أن يرسم بها نقاء إيمانه وجسامة آلامه. وحده نَذْرُ الساق لم يصدر عنه. أحيانًا، كانت نفسه تحملق في موت زوجته طويلًا وتتمرَّغ في اليأس الذي سيدفع به إليه ذلك الموت، كمن يستجمع قواه ليقفز متجاوزًا فوهة. ولكنه ما إن يقف على حافة الفوهة، على وشك القفز، حتَّى يتراجع. فتنبثق قطعة النقود منه، ويبقى النذر في قلب الرجل.

راح الوقت يمضي، والهلوسة تتفاقم؛ لأن قطعة النقود، فيما تزيد من سرعتها وتضاعف من وثباتها، أخذت تتضاعف هي الأخرى حتَّى بدت وكأنها عدد لانهائي من قطع النقود، وجعل الصراع يزداد مأساوية شيئًا فشيئًا. وبغتةً تجمّدت الدماء في عروق الرجل المسكين، خشية احتمال أن تكون زوجته في النفس الأخير. أراد الاستعجال. فربما كانت زوجته في النفس الأخير... راح يسألني أن أتشفَّع لها، أن أنجيها.

عندئذ اقترح عليه شيطان الطمع صفقة جديدة، عملية تبادل،

وقال له إن الصلاة ذات قيمة فائقة، أعظم بكثير من قيمة الأعمال الأرضية. أمَّا «ساليس»، فقد أخذ يسألني أن أنجي زوجته، محنيًا، منسحقًا، متضرعًا، بنظرة خاشعة، مهجورًا، مذعنًا. سألني أن أنجي زوجته، ونذر تلاوة الصلاة الربانية ومديح السيدة العذراء مريم ثلاثمائة، ما لا يقلّ عن ثلاثمائة مرة. أخذ يردِّد مُشدِّدًا: ثلاثمائة، ثلاثمائة، ثلاثمائة...راح يزايد حتَّى وصل إلى خمسمائة، إلى ألف صلاة ربانية وألف مديح للسيدة العذراء مريم. لم يرَ هذا العدد مكتوبًا بالحروف الأبجدية، بل بالأرقام، وكأن العدد بذلك أكثر حيوية، وأدقّ، والالتزام أعظم، والإغراء كذلك أعظم. ألف صلاة ربانية، ألف مديح للسيدة العذراء مريم. ثمَّ عادت الكلمات الدامعة المرتجفة، الجروح المقدَّسة، ملائكة الرب... 1000 -1000- 1000. تضخَّمت الأرقام الأربعة إلى الحدِّ الذي ملأت به الكنيسة من أعلاها إلى أسفلها، ومعها راح يزيد الجهد الذي يبذله الرجل، وثقته أيضًا. كانت الكلمة تصدر عنه بسرعة أكبر، باندفاع أعظم، وقد قالها بالفعل: ألف، ألف، ألف، ألف.

ثمَّ ختم القديس «فرانسيسكو دي ساليس» حديثه قائلًا:

- هيا، لكم أن تضحكوا الآن ما شئتم.

وبالفعل ضحك القديسون الآخرون، لم تكُن ضحكاتهم هائلة مبتذلة كتلك التي ندت عن آلهة «هوميروس» حين وقعت أبصارهم على «ڤولكانوس» الأعرج وهو يخدم على المائدة، بل كانت ضحكات وقورة، هادئة، تقيّة وكاثوليكية.

ثمَّ لم يتسنَّ لي سماع المزيد. فقد استلقيت ممددًا على الأرض. وعندما استرددت وعيي، كان النهار صحوًا... هرولت أفتح كافة أبواب ونوافذ الكنيسة وغرفة المقدَّسات كي أسمح بالدخول للشمس، عدوّة الأحلام المزعجة.

3

ذراعا امرأة

فزع «إيناسيو» عند سماعه صياح المحامي، وتلقَّى الصحن الذي قدمه إليه الأخير. حاول أن يتناول طعامه، تحت وابل من الشتائم: عديم الفائدة، غافِل، غبي، مجنون.

- أين شرد فكرك حتَّى لا تسمع ما أقول لك؟ سأحكي لأبيك كلَّ شيء حتّى ينفض الخمول عن جسدك بعصا أو عود متين. أجل، فأنت لم تكبر على الضرب، وإيّاك أن تحسب ذلك. غبي! مجنون!

تابع حديثه ملتفتًا إلى دونا «سيڤيرينا»، سنيورا يعيش معها حياةً زوجية منذ أعوام:

- تصوَّري أنه بالخارج كما ترينه هنا تمامًا، يخلط بين الأوراق كافة، يخلط بين عناوين البيوت، يقصد كاتب عدل بدلًا من آخر، يبدِّل محاميًا بآخر: إنه الشيطان! إنه في حالة نعاس مستمر ثقيل. في الصباح يكون كما ترينه، لا بد من تكسير عظامه بمجرَّد استيقاظه... دعكِ منه، فغدًا سأوقظه بعصا المكنسة!

مسَّت دونا «سيڤيرينا» قدمه وكأنها تطلب منه أن يكفّ. قذفه «بورچِس» ببضع شتائم أخرى، ثمَّ بات في سلام مع الرب ومع

الرجال.

ولست أقول إنه بات في سلامٍ مع الأطفال؛ لأن صاحبنا «إيناسيو» لم يكُن طفلًا على وجه الدقّة. كان يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، أتمَّها على أكمل وجه. له رأس يفتقر إلى الثقافة إلّا أنه وسيم، وعينا فتى يحلم، يحزر، يستفهم، يريد أن يعرف ولكنه لا يعرف شيئًا في نهاية المطاف. كل هذا فوق جسد لا يفتقر إلى الرشاقة، وإن اكتسى بثياب رثَّة. أبوه حلاق في «سيدادي نوڤا»، وجد له عملًا كمساعد أو نسّاخ أو أيًّا كان، لدى المحامي «بورچِس»، على أمل أن يراه في سلك المحاماة، إذ بدا له أنهم يحققون أرباحًا طائلة. جرت هذه الأحداث بشارع «لاپا»، عام 1870.

خلال بضع دقائق لم يُسمَع أكثر من رنين أدوات المائدة وصوت مضغ الطعام. أخذ «بورچِس» يحشو فمه خسًّا ولحمًا، يتوقف ليضع فاصلة بجرعة من النبيذ، ثمَّ يواصل في صمت.

أمَّا «إيناسيو» فراح يتناول طعامه على مهل، لا يجرؤ على رفع عينيه عن الصحن، ولا حتَّى على النظر بهما حيث كان ينظر في اللحظة التي نهره فيها «بورچِس» المروع. والحقيقة أن ذلك كان ينطوي على خطورة شديدةَ. لم ينظر بعينيه إلى ذراعي دونا «سيڤيرينا» لئلا ينسى ذاته وينسى كلَّ شيء.

كان الذنب بالأحرى ذنب دونا «سيڤيرينا» لأنها تكشف عن

ذراعيها هكذا، بصفة دائمة. كانت كلُّ ثيابها المنزلية ذات أكمامٍ قصيرة تغطّي نصف شبر تحت الكتف، أمَّا باقي ذراعها فيظلّ معروضًا. في الحقيقة، كانت ذراعاها جميلتين وبضّتين، في تناغم مع جسدها الأقرب إلى الامتلاء منه إلى النحافة، فلم تُفقدهما الحياةُ في الهواء الطلق لونَهما ولا نعومتهما. ولكن من العدل أن نوضّح أنها لم تكُن تكشف ذراعيها على هذا النحو من باب البهرجة، بل لأنها كانت قد أبْلَتْ كلَّ ثيابها ذات الأكمام الطويلة. كانت رشيقة إن وقفت، تتهادى بظرف إن سارت. أمَّا هو، فلم يكُن يراها وقتئذ إلّا على المائدة تقريبًا، حيث يتسنَّى له بالكاد النظر إلى جذعها، فضلًا عن ذراعيها. لا يمكن القول إنها كانت حسناء، إلا أنها لم تكُن بالدميمة أيضًا. لم يكُن يبدو عليها أثرٌ للزينة، حتَّى تصفيفة شعرها كانت في غاية البساطة، إذ كانت قد سوَّته، جمعته، عصبته، وثبتته فوق رأسها بالمشط المصنوع من صدف السلاحف الذي تركته لها أمُّها. حول عنقها استقرَّ وشاح داكن، في حين تجرَّدت أذناها من كلِّ شيء. كانت تبلغ سبعة وعشرين عامًا من الريعان والازدهار.

فرغوا من طعام العشاء. قُدِّمت القهوة، فأخرج «بورچس» من جيبه أربع لفافات من السيجار، فاضَل بينها، ضغط عليها بأصابعه، اختار إحداها ثمَّ احتفظ بما تبقى. أشعل السيجار ثمَّ اتكأ بمرفقيه على المائدة متحدِّثًا إلى دونا «سيڤيرينا» عن ثلاثين ألف أمر ليس من بينها ما يهمُّ صاحبنا «إيناسيو» في شيء. ولكن في أثناء حديثه، لم يوبِّخ الفتى، مما سمح له بالشرود بحرية.

استغرق «إيناسيو» أطول وقت ممكن في تناول القهوة. بين رشفة وأخرى، كان يسوِّي مفرش المائدة، ينزع عن أصابعه نتفًا من الجلد الوهمي، أو يمرُّ بعينيه على اللوحتين المعلقتين في حجرة الطعام، واحدة للقديس بطرس والأخرى للقديس يوحنا، جيء بهما من الكنيسة في أحد الأعياد، ثمَّ وضعتا في إطارين بالبيت. من المُقنع أن يتظاهر «إيناسيو» بالنظر إلى القديس يوحنا الذي يبعث رأسُه اليافع البهجة في المخيلة الكاثوليكية، أمَّا النظر إلى القديس بطرس الصارم، فقد كان أكثر مما ينبغي. ودفاع الفتى الوحيد أنه لم يكُن يرى لا هذا ولا ذاك، كان يمرُّ بعينيه هناك وكأنه يمرُّ بهما على لا شيء، لا يرى سوى ذراعي دونا «سيثيرينا»، إمّا لأنه يسترق النظر إليهما خلسة، أو لأنهما قد انطبعتا في ذاكرته.

- يا رجل، ألن تفرغ من قهوتك أبدًا؟

صاح فيه المحامي بغتةً. لم يجد «إيناسيو» مفرًّا، فشرب القطرة الأخيرة وقد بردت بالفعل، ثمَّ انصرف إلى حجرته في خلفية البيت، كما جرت العادة. وفي تلك الأثناء، أومأ بغضب ويأس ثمَّ اتكأ على إحدى النافذتين المطلتين على البحر. مرَّت خمس دقائق، وراح منظر المياه القريبة والجبال النائية يردُّ له ذلك الإحساس المرتبك، المبهم، الذي لا يهدأ، المؤلم والممتع في آن. وينبغي للنبتة أن تحسَّ بشيء يوم تتفتَّح أولى أزهارها. كان يرغب في الرحيل وفي البقاء. كان يسكن هناك منذ خمسة أسابيع، والحياة كما هي دائمًا، يخرج مع «بورچِس» صباحًا، يحضر الجلسات، ويقصد مكاتب

الشهر العقاري مهرولًا، يختم مستندات، يحملها إلى الموزع، إلى كتّاب العدل، إلى حُجَّاب المحكمة، يعود مساءً، يتناول طعام الغداء ثمَّ ينصرف إلى حجرته، إلى أن تحين ساعة العشاء، فيتناول طعام العشاء ثمَّ يخلد إلى النوم. فلا كان «بورچس» يوفِّر له جوًّا من الألفة وسط أسرته، المكونة بالكاد من دونا «سيڤيرينا»، ولا كان «إيناسيو» يراها أكثر من ثلاث مرات يوميًّا، خلال وجبات الطعام. خمسة أسابيع من العزلة، من العمل على مضض، بعيدًا عن أمِّه وعن أخواته، خمسة أسابيع من الصمت، إذ لم يكن يتحدَّث طوال اليوم سوى مرة أو مرتين في الشارع، أمَّا في البيت، فلم يكُن ينبس بكلمة واحدة.

فكَّر ذات يوم: «دعك من هذا، سأولّي هاربًا من هنا ولن أعود أبدًا».

لم يرحل، شعر بأنه مشدود ومقيَّد إلى ذراعي دونا «سيڤيرينا». لم يكُن قد رأى قط ذراعين على هذا القدر من الجمال والنضارة. لم تكُن التربية التي تلقَّاها لتسمح له بمواجهتهما جهرًا، بل كان يبدو في بادئ الأمر أنه يشيح ببصره خجلًا. واجههما شيئًا فشيئًا، إذ أدرك أنهما لا تملكان أكمامًا أخرى، وهكذا راح يستكشفهما، يتطلع إليهما، ويهيم بهما. بنهاية ثلاثة أسابيع، صارت ذراعاها ملاذه وراحته، من الناحية المعنوية. كان يتجشم كلَّ العمل الشاق بالخارج، كلَّ كآبة العزلة والصمت، كلَّ فظاظة ربِّ العمل، فقط مقابل رؤية الذراعين الشهيرتين، ثلاث مرات يوميًّا.

يومئذٍ، بينما يسدل الليل ستائره، و«إيناسيو» ممدد فوق السرير المعلَّق (لم يكُن له فراش آخر هناك)، راحت دونا «سيفيرينا» تستعيد ما دار على العشاء، وهي في مكانها بالحجرة المقابلة، فارتابت في أمر ما لأول مرة. وللوقت نبذت الفكرة، إنه مجرَّد طفل! ولكن ثمَّة أفكار من جنس الذباب العنيد: مهما طرده الناس، يعود ويقع عليهم. مجرَّد طفل؟ كان في الخامسة عشرة من العمر، وانتبهَتْ إلى بوادر خطٍّ من الزغب بين أنف الفتى وفمه. وفيمَ العجب إن عرف الحبُّ طريقه إلى قلبه؟ أو لم تكن جميلة؟ لم تقابل هذه الفكرة الأخرى بالرفض، بل بالملاطفة والقبلات. عندئذ تذكرت تصرفاته، ونسيانه، وشروده، واقعة أخرى، ثمَّ أخرى، كانت كلُّها أعراضًا، فخلصت إلى نتيجة إيجابية. سألها المحامي، ممدَّدًا على الأريكة، بعد مرور بضع دقائق من الراحة:

- ماذا بكِ؟

- لا شيء.

- لا شيء؟ يبدو أن الجميع يسيرون نيامًا في هذا البيت! دعكِ من هذا، فأنا أعرف علاجًا فعالًا لنفض النعاس عن الخاملين.

ثمَّ راح يسدِّد تهديداته بالنبرة الحانقة نفسها، عاجزًا عن تنفيذها في واقع الأمر، إذ كان ما به فظاظة أكثر من كونه شرًّا. أخذت دونا «سيفيرينا» تقاطعه نافيةً، وتقول له إنه مخطئ، فهي لم تكن نائمة، بل تفكر في «فورتوناتا»، أمّها في المعمودية. إذ لم يذهبا

لزيارتها منذ عيد الميلاد، فما المانع أن يزوراها ذات ليلة؟ فأجابها «بورچس» بأنه منهك، ويعمل كالعبيد، وليس في حال تسمح له بزيارات الثرثرة، ثمَّ لعن «فورتوناتا» وزوجها وابنها، ذلك الذي لم يكن يتردد على المدرسة، مع أنه في العاشرة من عمره! في حين أن «بورچس»، وهو في العاشرة، كان ملمًّا بالقراءة والكتابة والحساب. صحيح أنه لم يكن يجيدها إجادة تامَّة، إلَّا أنه كان ملمًّا بها. عشر سنوات! ثمَّ أردف على سبيل حسن الختام:

- متسكِّع، قريبًا يلتحق بالتجنيد الإجباري، فتُعلِّمه الثكنات ما لم يتعلم.

أخذت دونا «سيڤيرينا» تهدِّئ من روعه بأعذار: ضيق حال «فورتوناتا»، والحظ العاثر الذي يلازم زوجها. ثمَّ راحت تلاطفه خشية أن يثير ذكرهما سخطه مرة أخرى. كان الليل قد أسدل ستائره تمامًا، فسمعت «الكليك» الصادر عن مصباح الغاز الذي أضيء لتوه في الشارع، ولمحت وميضه على نوافذ البيت القائم في الجهة المقابلة. أمَّا «بورچس» فقد أغمض عينيه واستسلم للنعاس، منهكًا من النهار الذي قضاه، فقد كان مجتهدًا في عمله من الطراز الأول بحقّ. ترك «سيڤيرينا» وحدها في الحجرة، وسط العتمة، مع نفسها ومع الاكتشاف الذي اهتدت إليه لتوها.

بدا وكأن كلَّ شيء يقول لها إن ما اهتدت إليه حقيقة، ولكن تلك الحقيقة، بعد أن تبدَّدت دهشتها، جلبت إليها أزمة أخلاقية لم تتعرف عليها سوى من خلال الآثار التي خلَّفتها، من دون أن تجد

سبيلًا لتمييز كُنه تلك الأزمة. لم تستطع فهم ما بنفسها أو استعادة توازنها، بل وبلغ بها الأمر حدَّ التفكير في إطلاع المحامي على كلِّ شيء، وليتكفل هو بصرف الصبيّ. ولكن، ماذا كان كلّ شيء؟ وهنا توقفت: في حقيقة الأمر، لم يكن لديها أكثر من افتراض، وصدفة، وربما وهم. كلا، كلا، لم يكن وهمًا. وفي الحال أخذت تجمع المؤشرات المبهمة، تصرفات الفتي الصغير، وخجله، وشروده، حتَّى تنبذ فكرة كونها مخطئة. بعد وهلة قصيرة (يا للطبيعة الهوائية!)، وفيما هي تفكر أنه من المجحف اتهام الفتى بلا أساس، أقرَّت بأنها كانت واهمة، مدفوعة بغرض وحيد، ألا وهو مراقبته على نحوٍ أفضل للوقوف على حقيقة الأمور.

وفي تلك الليلة، راقبت دونا «سيڤيرينا» لفتات «إيناسيو» بطرف عينها. لم تهتدِ لأيِّ شيء، فقد استغرق الشاي وقتًا يسيرًا، فضلًا عن أن الفتى الصغير لم يرفع عينيه عن الفنجان. في اليوم التالي استطاعت مراقبته جيدًا، وفي الأيام التي تلت ذلك جيدًا للغاية. أدركت أنها كانت على صواب، أنها كانت معشوقة ومَهيبة، عشقًا مراهقًا عذريًّا، تكبحه القيود الاجتماعية، فضلًا عنَ إحساس بالنقص يَحُول دون أن يتعرف الحبُّ على ذاته. تفهَّمت دونا «سيڤيرينا» أنه ليس ثمَّة ما يستدعي التخوف من إقدام الفتى على فعلة مشينة، وخلصت إلى أن أفضل ما يمكنها عمله ألَّا تُطْلع المحامي على أيِّ شيء، حتَّى توفر عليه وعلى الطفل المسكين الكدَر. اقتنعت تمام الاقتناع بأنه كان طفلًا، واستقرَّت على أن توليه معاملة جافية بقدر تلك التي لقيها منها حتَّى ذلك الوقت،

بل وأشدَّ جفاء. وهكذا فعلت. بدأ «إيناسيو» يحس بأنها تهرب بعينيها، أو تتحدَّث بخشونة، بالقدر نفسه من الخشونة التي يتحدَّث بها «بورچس» تقريبًا. ومع ذلك، ففي بعض الأحيان كان صوتها يصدر ليِّنًا، بل ورقيقًا، بالغ الرقّة. وهكذا كانت نظراتها، المتملصة في المجمل، تطيل الهيام بعيدًا عنه إلى الحدِّ الذي كانت تستقرُّ معه على رأسه طلبًا للراحة. إلّا أن كلَّ ذلك كان يستغرق وقتًا قصيرًا.

كان يردِّد وهو في الشارع، كما في أيامه الأولى بهذا المكان:

- سأرحل.

ثمَّ يصل إلى البيت، فلا يرحل. كانت ذراعا دونا «سيڤيرينا» عنده بمثابة جملة اعتراضية، وسط تلك الفقرة المضجرة من الحياة التي عاشها، وكانت تلك الجملة تعبّر عن فكرة أصيلة وعميقة، ابتكرتها السماء من أجله وحده. بقي على حاله، وتابع المسير. وعلى الرغم من ذلك، فقد اضطر للذهاب إلى غير رجعة في نهاية المطاف. وإليكم كيف رحل ولماذا.

كانت دونا «سيڤيرينا» تُوليه معاملة طيبة منذ بضعة أيام. بدا أن صوتها قد خلا من الجفاء، واكتسى بما هو أكثر من مجرَّد اللين، اكتسى بحنان وعطف. ذات يوم أوصته بألّا يعرِّض نفسه للهواء، وذات يوم آخر بألّا يشرب المياه الباردة بعد القهوة الساخنة، نصائح، ملاحظات، أَوْلَتْه عنايةَ صديقةٍ وأمّ، مما بثَّ في نفسه اضطرابًا وارتباكًا أعظم وأعظم. بلغ «إيناسيو» من الثقة مداها

حين ضحك على المائدة ذات يوم، الأمر الذي لم يسبق له القيام به قط. أمَّا المحامي فلم يُسئ معاملته في تلك المرة، إذ كان هو راوي القصَّة الطريفة، وليس هناك من يعاقب الآخر على التصفيق له. عندئذ رأت دونا «سيڤيرينا» أن ثغر الفتى الصغير، الحسن في صمته، لم يكُن أقلّ منه حسنًا في ضحكه.

أخذ اضطراب «إيناسيو» يتفاقم، وهو لا يملك التحلِّي بالهدوء أو تفهُّم ما بنفسه. لم يكُن بخير حيثما ذهب، يستيقظ ليلًا وهو يفكر في دونا «سيڤيرينا». وفي الشارع يخلط بين النواصي والأبواب، أكثر من أيِّ وقتٍ مضى بكثير. لم يرَ امرأة، من بعيد أو من قريب، إلَّا وذكَّرته بها. عند دخوله إلى ردهة البيت لدى عودته من العمل، كان يحسُّ دائمًا بشيء من الاضطراب، شديد أحيانًا، حين يلتقي بها على قمة الدرج، فيما تتطلع إليه من خلال سياج الباب الخشبي، كما لو أنها قد جاءت تستطلع من القادم.

وذات يوم من أيام الآحاد -لم ينسَ هذا الأحد قط- كان وحيدًا في الحجرة، عند النافذة، وقد ولّى وجهه شطر البحر، الذي كان يتحدَّث إليه باللغة المبهمة الجديدة نفسها التي تتحدَّث بها إليه دونا «سيڤيرينا». راح يتسلَّى بالنظر إلى النوارس وهي تحوم في دوائر واسعة في الهواء، أو تحلِّق فوق المياه، أو تكتفي بأن تخفق بأجنحتها. كان يومًا بديع الجمال. لم يكُن أحدًا مسيحيًّا وحسب، بل أحدًا كونيًّا هائلًا.

كان «إيناسيو» يقضي كلَّ الآحاد في الحجرة أو واقفًا عند

النافذة، أو كان يعيد قراءة أحد الكتيبات الثلاثة التي جاء بها، قصص من الأزمنة الغابرة، اشتراها بمبلغ زهيد أسفل جسر «لارجو دو پاسو». كانت الساعة الثانية مساءً. وكان متعبًا، إذ لم ينَم جيدًا بعد أن طال به المسير في اليوم السابق. استلقى فوق السرير المعلق، وأمسك بأحد الكتيبات، «الأميرة ماجالونا»، ثمَّ شرع في القراءة. لم يتسنَّ له يومًا أن يفهم لماذا كلّ بطلات تلك القصص العتيقة لهن وجه دونا «سيڤيرينا» وهيئتها، ولكن الحقيقة أن هذا ما جرى. بعد مرور نصف ساعة، ترك الكتيب يسقط من بين يديه وشخص بصره إلى الحائط، من حيث رأى سيدة أحلامه تنبثق بعد خمس دقائق. كان من الطبيعي أن يفزع، إلا أنه لم يفعل. وعلى الرغم من كونه قد أغمض جفنيه، فقد رآها تنسلُّ من الجدار تمامًا، تتوقف، تبتسم، وتسير صوب السرير المعلق. كانت هي بنفسها، بذراعيها.

وعلى الرغم من ذلك، فالحقيقة أنه لم يكُن بإمكان دونا «سيڤيرينا» أن تنبثق من الجدار، حتَّى وإن كان به باب أو شقّ؛ لأنها كانت في الحجرة المقابلة تحديدًا، تنصت إلى وقع خطوات المحامي فيما هو ينزل الدَّرَج. سمعته ينزل. توجهت إلى النافذة لتشاهده يخرج، ولم تبارح مكانها حتَّى غاب بعيدًا في شارع «مانجيراس». عندئذ دخلت وجلست على الأريكة. كانت تبدو على غير طبيعتها، لا تهدأ، تكاد تفقد عقلها. قامت من جلستها، وتناولت الإبريق الموضوع فوق الطاولة ثمَّ تركته في المكان نفسه. بعد ذلك سارت إلى الباب، ثمَّ توقفت وعادت أدراجها بلا غاية تُذكر، على ما يبدو. عاودت الجلوس مرة أخرى، خمس

أو عشر دقائق. وفجأةً تذكرت أن «إيناسيو» لم يتناول من طعام الفطور إلّا قليلًا، وكان مظهره يوحي بتدنّي معنوياته، فانتبهت إلى أنه ربما كان مريضًا، بل وربما كان قد اشتدّ عليه المرض.

خرجت من الحجرة، عبرت الردهة سريعًا ثمَّ قصدت حجرة الفتى الصغير، حيث وجدت بابها مفتوحًا على مصراعيه. توقفت دونا «سيفيرينا»، استرقت النظر، ألْفَتْه فوق السرير المعلّق، نائمًا، ذراعه متدلية خارج السرير، في حين سقط الكتيب على الأرض. كان رأسه مائلًا ناحية الباب قليلًا، مما يسمح برؤية عينيه المغمضتين، وشعره غير المرتب، ومظهره الباسم النقي على نحوٍ جليّ.

شعرت دونا «سيفيرينا» بقلبها يخفق بشدَّة، فتراجعت. كانت قد حلمت به في الليلة الفائتة، وربما كان يحلم بها في تلك اللحظة. منذ مطلع الفجر وصورة الفتى أمام عينيها كغواية شيطانية. تراجعت أكثر، ثمَّ عادت، أخذت تنظر إليه لدقيقتين، ثلاث دقائق، خمس دقائق، أو ما يربو على ذلك. بدا أن النعاس قد أبرز مراهقة «إيناسيو» أكثر من ذي قبل، وأسبغ عليه تعبيرًا يكاد أنثويًّا، يكاد يكون طفوليًّا. قالت لنفسها: «مجرَّد طفل!»، بتلك اللغة الخالية من الكلمات التي جئنا بها جميعًا. وخففت تلك الفكرة من تدفق الدماء المندفعة في عروقها، كما بدَّدت الغيوم عن فكرها إلى حدٍّ ما.

«مجرد طفل!».

تطلعت إليه ببطء، عايَنَتْهُ حتَّى التخمة، برأسه المائل، وذراعه المتدلية. ألفَتْهُ طفلًا، ولكنه جميل في الوقت ذاته، أجمل منه مستيقظًا بكثير. فكانت كلُّ فكرة تهذب الأخرى، أو تفسدها. انتفضت بغتةً وتراجعت مذعورة، إذ تناهت إلى سمعها جلبة صادرة عن مكان قريب، عن غرفة كيِّ الملابس. ذهبت لإلقاء نظرة، كان القط قد أطاح بوعاء فسقط على الأرض. عادت بخطوات وئيدة لتسترق النظر إليه، فرأته مستغرقًا في نوم عميق. ما أعمق النوم الذي استغرق فيه الطفل! فالجلبة التي أفزعتها إلى تلك الدرجة لم تجعله يتحرك قيد أنملة. واصلت التطلع إليه فيما هو نائم، نائم وربما يحلم.

آه لو كان لنا أن نرى أحلام بعضنا البعض! لكانت دونا «سيڤيرينا» قد رأت نفسها في مخيلة الفتى، لكانت قد رأت نفسها تقف أمام السرير المعلَّق، باسمةً، بلا حراك، ثمَّ تنحني فوقه وتأخذ بيديه، تضمهما إلى صدرها، وتعقد حولهما ذراعيها، ذراعيها الشهيرتين. أمَّا «إيناسيو»، عاشق الذراعين، فقد تناهت إلى سمعه كلماتها، التي كانت عذبة، دافئة، وجديدة عليه في الأساس، أو على الأقل بلغة لا يعرفها، وإن كان يفهمها. تلاشت هيئتها مرَّتين، ثلاثًا، بل أربعًا، لتعاود الظهور في الحال، آتيةً من البحر أو من مكان آخر، من بين النوارس، أو عبر الردهة، بكل ما لها من رشاقة قوية. وتعود فتنحني فوقه، تأخذ بيديه مرة أخرى، وتضمهما بذراعيها إلى صدرها، حتَّى إنها، فيما هي تميل عليه أكثر، أكثر بكثير، ضمَّت شفتيها وطبعت قبلة على ثغره.

وهنا توافق الحلم والواقع، والتقت الشفاه نفسها في الخيال وخارجه. مع اختلاف أن الطيف لم يتراجع، أمَّا الشخصية الحقيقية فما كادت تفرغ من تلك اللفتة، حتَّى ولّت هاربة شطر الباب، في خجل واستحياء. توجهت إلى الحجرة المقابلة مشدوهة من جراء ما فعلت، لا يستقر بصرها على شيء. أرهفت سمعها وذهبت إلى نهاية الردهة لعلها تسمع صوتًا يخبرها بأنه قد استيقظ، ولم يَزُلْ عنها الخوف إلا بعد وقت طويل. في الحقيقة، كان نوم الطفل ثقيلًا، فلم يجعله أيُّ شيء يفتح عينيه، لا دويُّ الآنية المحطمة على مقربة، ولا القبلات الحقيقية. وفي حين أخذ الخوف يزول عن دونا «سيڤيرينا»، فلم يبارحها الشعور بالخزي، بل اشتدَّ عليها. لم تصدِّق تمام التصديق أنها فعلت ذلك. يبدو أنها قد غلَّفت رغباتها بفكرة مفادها أنه طفل عاشق، بريء، غائب عن الوعي. فمالت عليه وقبَّلته، بما يشبه الأمومة أو الصداقة. أيًّا كان ما جرى، فقد كانت حائرة، حانقة، منزعجة، منه ومن ذاتها. ثمَّ تسلل إلى نفسها خوفٌ من احتمال أن يكون الفتى قد تظاهر بالنوم، خوف رماها بقشعريرة باردة.

بيد أنه في الحقيقة ظلَّ نائمًا لوقت أطول من ذلك بكثير، ولم يستيقظ حتَّى حان موعد العشاء. جلس إلى المائدة مرحًا، وإن ألْفَى دونا «سيڤيرينا» صامتة وحازمة، أمَّا المحامي فعلى القدر ذاته من الحدّة شأن باقي الأيام. وعلى الرغم من ذلك، فلا حدّته ولا حزمها استطاعا تبديد الرؤيا الأخاذة التي كانت معه لم تزَل، أو التخفيف من إحساسه بالقبلة. لم ينتبه إلى أن دونا «سيڤيرينا» قد

غطت ذراعيها بوشاح. انتبه إلى ذلك لاحقًا، يوم الاثنين، والثلاثاء أيضًا، حتَّى يوم السبت، وهو اليوم الذي أرسل فيه «بورچس» إلى أبيه ليخبره بأنه لا يمكن لـ«إيناسيو» أن يبقى معه. لم يقدم على ذلك غاضبًا، فقد عامله برفق نسبيًّا، بل وقال له عند خروجه:

- إن احتجت إليّ، فاقصدني.

- حسنًا سنيور. دونا «سيڤيرينا»...

- إنها في حجرتها، تعاني من صداع شديد. تعالَ غدًا أو بعد غدٍ كي تودعها.

خرج «إيناسيو» وهو لا يفهم شيئًا. لم يفهم صرفه من العمل، ولا التغيير التام الذي طرأ على دونا «سيڤيرينا» من ناحيته، ولا الوشاح، ولا أيَّ شيء. كم كانت لطيفة معه! وكم كانت ودودة في حديثها معه! كيف حدث فجأة؟ أطال التفكير في الأمر إلى الحدِّ الذي افترض معه بأن الأمر مَرَدّه نظرة فاضحة حانت منه إليها، أو سهو من جانبه أشعرها بالإهانة. لم يخرج الأمر عن هذين الاحتمالين. ولذا فقد تجهم وجهها وغطى الوشاح ذراعيها رائعتي الجمال. لا يهم، فمذاق الحلم لم يفارقه. وعلى مرِّ الأعوام، لم يجد في غراميات أخرى، أقوى أثرًا وأطول عمرًا، الشعور ذاته الذي أحسَّ به ذلك الأحد، في شارع «لاپا» وعمره خمسة عشرة عامًا. أحيانًا يتعجب، وهو لا يدري أنه مخطئ فيما يقول:

- ولم يكُن سوى حلم! مجرَّد حلم!

4

رجل شهير

- ياه! هل أنت «پيستانا»؟

سألَت الآنسة «موتا»، فيما تشير بإيماءة مطولة تنم عن الإعجاب. وعلى الفور أردفت تتدارك رفع الكلفة:

- أعتذر عن سلوكي، ولكن... هل أنت هو فعلًا؟

مُحرجًا ومتبرمًا، أجابها «پيستانا» بأن نعم، بأنه هو فعلًا. كان آتيًا من عند البيانو، يجفف جبينه بمنديل، متجهًا صوب النافذة، عندما استوقفته الفتاة. لم يكُن حفلًا راقصًا، بل حفلًا صغيرًا للمقربين بالكاد، حضره مدعوون قلائل، عشرون شخصًا في المجمل، حضروا لتناول العشاء مع الأرملة «كامارجو» بشارع «أريال»، بمناسبة عيد ميلادها في الخامس من نوفمبر من عام 1875... يا لها من أرملة مرحة لاهية! كانت تعشق الضحك واللهو، على الرغم من أعوامها الستين التي أتمتها يومئذ. وكانت تلك آخر مرَّة تلهو وتضحك فيها، إذ توفيت في الأيام الأولى من عام 1876. يا لها من أرملة مرحة لاهية! بأيِّ روح وحماس راحت ترقص بعد العشاء مباشرةً، طالبةً من «پيستانا» أن يعزف رقصة رباعية! لم تضطر حتَّى للانتهاء من طلبها، فقد انحنى «پيستانا» في كياسة

وهرول إلى البيانو. وبانتهاء الرقصة الرباعية، لم تكد تمرُّ عشر دقائق حتَّى هرولت الأرملة إلى «پيستانا» مرة أخرى تطلب منه معروفًا بالغ الخصوصيَّة.

- تفضلي، يا سيدتي.

- هلّا عزفت لنا الآن رقصة البولكا التي ألَّفتها بعنوان «لا تعبث بي يا سيِّدي»؟

اربدَّ وجه «پيستانا»، إلّا أنه سرعان ما أخفى ذلك وانحنى مطرقًا في غير كياسة، ثمَّ ذهب إلى البيانو في غير حماس. ما إن تردَّدت الأنغام الأولى حتَّى غمرت الحجرة بهجة جديدة، فسارع السادة إلى السيدات، وشرع كلُّ زوج من الراقصين يتمايل على أنغام آخر صيحة في معزوفات البولكا. آخر صيحة، إذ لم يكن قد مرّ على صدورها أكثر من عشرين يومًا، ولم يبقَ رُكن واحد من أركان المدينة إلَّا وعرف تلك البولكا، وأوشكت أن تهيمن على الصفير ودندنة الليل.

كانت الآنسة «موتا» أبعد ما يكون عن افتراض أن «پيستانا» الموسيقار هو نفسه «پيستانا» الذي رأته جالسًا على مائدة العشاء ثمَّ بعد ذلك على البيانو، يرتدي بالطو بلون التبغ، وله شعر أسود طويل مجعد وعينان حذرتان ولحية حليقة. كانت صديقة لها هي التي أخبرتها بذلك حين رأته آتيًا من عند البيانو، بعد انتهاء البولكا، مما حدا بها إلى أن تسأله في إعجاب. رأينا أنه قد أجابها مُحرجًا

ومتبرمًا. وعلى الرغم من ذلك فلم تُعْفِه الفتاتان من كلمات الثناء البالغ والجزيل، إلى حدٍّ كانت لتسرَ به حتَّى أكثر النفوس تواضعًا. أمَّا هو فقد تلقاها بغضب متزايد، إلى درجة طلب معها الإذن بالرحيل متذرعًا بألم في رأسه. لا الفتاتان ولا ربة البيت ولا أحد استطاع حمله على البَقاء. عُرضت عليه وصفات منزلية، كما عُرض عليه أن ينال قسطًا من الراحة، إلّا أنه لم يقبل بأيِّ شيء، أصرَّ على المغادرة وغادر.

ما كاد يخرج إلى الشارع حتَّى سار على عجل، يخشى أن يعاودوا مناداته. لم يهدِّئ من سرعته إلى أن انعطف عند ناصية شارع «فورموزا». ولكن في هذا الموضع تحديدًا، كانت البولكا الاحتفالية الشهيرة في انتظاره. فمن بيت متواضع إلى اليمين، على بعد أمتار قلائل، انبعثت نغمات معزوفة الساعة من آلة الكلارينيت، يصاحبها الرقص. توقف «پيستانا» بضع لحظات، خطر له أن يدور على عقبيه، إلّا أنه شرع في المسير يحثُّ الخطى عبر الشارع، وتابع سيره على الجانب المقابل للبيت حيث أقيم الحفل الراقص. راحت النغمات تتبدَّد، على بعدٍ، ثمَّ دلف صاحبنا إلى شارع «أتِرَّادو» حيث كان يقطن. وعلى مقربة من بيته، رأى رجلين آتيين صوبه. وفي أثناء مرورهما بجوار «پيستانا»، شرع أولهما يصفر البولكا نفسها بقوة وحيوية، ثمَّ انضم إليه ثانيهما في صفيره، وسارا صوب الطريق بصخب وبهجة، في حين هرول مؤلف المقطوعة إلى بيته يائسًا.

وفي البيت، تنفس الصعداء. بيت عتيق، دَرَجٌ عتيق، عجوز أسود كان يقوم على خدمته، حضر لسؤاله عمَّا إذا كان يرغب في تناول العشاء، فصاح به «بيستانا» قائلًا:

- لا أريد شيئًا. أعدّ لي قهوة واذهب إلى فراشك.

تجرَّد من ثيابه وارتدي ثياب النوم ثمَّ توجه إلى الحجرة الكائنة في الجزء الخلفي من البيت. وحين أضاء الأسود مصباح الغاز بالحجرة، عندئذ ابتسم «بيستانا»، وألقت روحه السلام على ما يقرب من عشر لوحات معلقة على الحائط. واحدة منها فحسب مرسومة بالزيت، وهي لوحة الكاهن الذي رباه وعلَّمه اللاتينية والموسيقى، الكاهن الذي قال عنه المتسكعون إنه والد «بيستانا» الحقيقي. والحق أنه قد ترك له ذلك البيت العتيق، والمتروكات العتيقة، من عهد «بيدرو» الأول. كان الكاهن قد ألَّف بضع تراتيل، كان مهووسًا بالموسيقى، الدينية منها والدنيوية على حدٍّ سواء، وقد غرس حبَّه للموسيقى في الفتى، أو ربما نقله إلى دمائه في حال صحَّ ما ادَّعت الأفواه العاطلة، الأمر الذي لا تتطرق إليه قصتي كما سترون.

كانت اللوحات الأخرى لموسيقيين كلاسيكيين، «تشيماروزا»، موتسارت، بيتهوفن، «جلوك»، باخ، شومان، وثلاثة آخرين؛ بعضها محفور وبعضها الآخر مطبوع على الحجر، كلّها محاطة بأُطُر رديئة ولها أحجام متباينة، بَيْدَ أنها عُلِّقت هناك على غرار أيقونات القديسين في الكنائس. فكان البيانو هو المذبح، أما

تسبحة الليل، المفتوحة صفحاتها، فكانت سوناتا لبيتهوفن.

جاءت القهوة. شرب «پيستانا» الفنجان الأول دفعةً واحدة، ثمَّ جلس إلى البيانو. تطلع إلى لوحة بيتهوفن، وشرع يعزف السوناتا ناسيًا ذاته، ذاهلًا أو مستغرقًا، وإن عزفها بإتقان عظيم. أعاد عزف المقطوعة الموسيقية، ثمَّ توقف لبضع لحظات، قام من جلسته وذهب إلى إحدى النوافذ. عاد إلى البيانو، حان الآن دور موتسارت، تناول نوتة موسيقية وعزفها على نحوٍ مماثل، ونفسه في مكان غير المكان. ثمَّ أخذه «هايدن» إلى منتصف الليل، وإلى فنجان القهوة الثاني.

وبين منتصف الليل والواحدة صباحًا، لم يكد «پيستانا» يفعل شيئًا بخلاف الوقوف عند النافذة والنظر إلى النجوم، ثمَّ العودة والنظر إلى اللوحات. وبين الفينة والأخرى، كان يذهب إلى البيانو فيدق مفاتيحه دقات متفرقة، واقفًا على قدميه، وكأنه يفتِّش عن خاطرة ما، بيد أن الخاطرة لم تتبدَّ له، فكان يعاود الاتكاء على النافذة. كانت النجوم تبدو له نوتات موسيقية أخرى كثيرة للغاية مُثبتة في السماء، في انتظار من يقطفها. سوف يأتي يومٌ تغدو فيه السماء خاوية، حينئذٍ تصير الأرض كوكبة من النوتات الموسيقية. ما من صورة أو هذيان أو فكرة حملت إليه أيَّة ذكرى تَمُتُّ بصلة إلى الآنسة «موتا»، التي كان النعاس يتسلل إليها في تلك الأثناء، في تلك الساعة نفسها، بينما تفكر فيه، في الموسيقار الشهير صاحب كلّ هذا العدد من مقطوعات البولكا المحبوبة. وربما

سرقت فكرة الزواج من عيني الفتاة بضع لحظات من النعاس. وماذا في ذلك؟ كان عمرها عشرين عامًا، أمَّا عمره فثلاثون، حسبة موفَّقة. نامت الفتاة على أنغام البولكا، تنصت إليها من الذاكرة، في حين لا يأبه مؤلفها بالبولكا ولا بالفتاة، بل بالأعمال الكلاسيكية القديمة، يسائل الليل والسماء، يتوسل إلى الملائكة، وإلى الشيطان كملاذٍ أخير. لماذا لا يؤلِّف عملًا واحدًا فحسب يضاف إلى تلك الصفحات الخالدة؟

أحيانًا، كانت تنبثق من أعماق اللاوعي بوادر فكرة، فيهرول إلى البيانو كي يكشف عنها النقاب كاملةً ويترجمها إلى أصوات، فيذهب كلُّ ذلك سدى... كانت الفكرة تتلاشى. وفي مرات أخرى، فيما هو جالس إلى البيانو، كان يترك أنامله تمرّ فوق المفاتيح كيفما اتفق، لعلَّ أنامله تتفتح عن خيالات شأن أنامل موتسارت، ولكن لا شيء، لا شيء... فلا كان الإلهام يجيء، ولا كانت المخيلة تفيق من سباتها. وفي حال اتفق لفكرة ما أن تتبدَّى له، جميلة وواضحة المعالم، فما كانت تعدو كونها صدى لمقطوعة موسيقية من تأليف آخر، يتردد رجعها في الذاكرة، بينما يخالها هو من ابتكاره. عندئذ كان ينتصب واقفًا، مغتاظًا، ويقسم بأن يهجر الفن، وأن يذهب للعمل بزراعة القهوة أو جرِّ العربات. ولكن بعد عشر دقائق، نراه مرَّة أخرى شاخص البصر إلى موتسارت، يقلِّده على البيانو.

الواحدة، الثالثة، الرابعة صباحًا. بعد الساعة الرابعة ذهب إلى

فراشه. كان متعبًا، مثبط العزيمة، هامدًا. كان عليه أن يلقي دروسًا في اليوم التالي. نال قسطًا يسيرًا من النوم، واستيقظ في السابعة. ارتدى ثيابه وتناول الفطور. بادره الأسود بالسؤال، بناء على الأوامر الصادرة إليه، نظرًا لشرود السنيور المتكرر:

- سنيور، هل تريد العصا أم المظلة؟

- العصا.

- ولكن يبدو أنها ستمطر اليوم.

فردَّد «پيستانا» آليًا:

- ستمطر.

- يبدو كذلك سنيور، فالسماء ملبدة بالغيوم إلى حدٍّ ما.

جعل «پيستانا» ينظر إلى الأسود بنظرات مبهمة، قلقة. وفجأة:

- مهلًا!

هرول إلى حجرة اللوحات، فتح البيانو، جلس باسطًا راحتيه فوق المفاتيح. شرع يعزف لحنًا من تأليفه، إلهامًا حقيقيًا وجاهزًا، بولكا، بولكا صاخبة، كما تقول الدعاية الإعلانية. بلا أدنى تردُّد من جانبه، راحت أنامل الموسيقار تنتزع النغمات انتزاعًا، تصل بعضها ببعض، تؤرجحها. كان يمكن القول بأن ربَّة الموسيقى راحت تؤلف وترقص في آن. نسي «پيستانا» تلاميذه، نسي الأسود، الذي

كان في انتظاره بالعصا والمظلّة، بل نسي حتّى اللوحات المعلقة على الحائط في مهابة. أخذ يؤلف الموسيقى فحسب، كتابةً أو دقًّا على المفاتيح، من دون الجهود الضائعة سدى في الليلة الفائتة، في غير حنق، من دون أن يطلب من السماء شيئًا، أو يسائل عيني موتسارت. في غير ضجر. فاضت نفسه بحياة، وحُسنٍ، وجِدّة، وكأنها تنساب من نبع لا يجف.

بعد وقتٍ يسير فرغ من تأليف مقطوعة البولكا. صوَّب بضع نقاط عند عودته لتناول طعام العشاء. ولكنه أخذ يدندن بألحانها بالفعل في أثناء سيره بالشارع. راقت له. في المقطوعة الموسيقية الجديدة التي لم تصدر بعد، جرت دماء الأبوة والرسالة. وبعد يومين، سعى بها لدى الناشر الموسيقي الذي أصدر مقطوعات البولكا الأخرى، التي كان عددها يربو على الثلاثين بالفعل. وجدها الناشر جميلة.

– سوف تُحْدِث ضجة.

ثمَّ تطرقا إلى مسألة العنوان. عندما ألَّف «بيستانا» أوَّل مقطوعة بولكا له، عام 1871، أراد لها عنوانًا شاعريًّا، فاختار: «قطرات من الشمس». هزَّ الناشر رأسه وقال إنه يجب اختيار عناوين تُكتب لها الشعبية في حدِّ ذاتها، إمَّا بأن تنطوي على إشارة إلى حدث من أحداث الساعة، أو بأن يكون لكلماتها وَقْعٌ طريف. ومن ثمَّ اقترح عليه عنوانين: «قانون 18 سبتمبر» أو «الحبيبات لا يُقمن الحفلات». فسأله المؤلف:

- ولكن، ماذا يعني «الحبيبات لا يقمن الحفلات»؟

- لا يعني أيَّ شيء على الإطلاق، ولكنه سرعان ما يحظى بشعبية كبيرة.

أمَّا «بيستانا»، الذي كان لا يزال ساذجًا ولم يصدر له عمل بعد، فقد قابل كلَّ تلك التسميات بالرفض، واحتفظ بالبولكا لنفسه. بيد أنه ما لبث أن وضع بولكا أخرى، فحملته الرغبة المُلحَّة في الانتشار على إصدار كلتيهما، بالعناوين التي يراها الناشر أكثر ملاءمةً أو جذبًا للانتباه. وهكذا سارت الأمور منذ تلك اللحظة فصاعدًا.

والآن، حين سلَّم «بيستانا» البولكا الجديدة إلى الناشر، وتطرقا إلى مسألة العنوان، بادره الناشر قائلًا إنه قد أعدَّ عنوانًا رنانًا وطويلًا وراقصًا منذ أيام طوال، لأول عمل يتقدَّم به إليه. كان العنوان كالتالي: «سنيورا، دونا، احتفظي بسلّتك لنفسك». ثمَّ أردف قائلًا:

- وللمقطوعة القادمة، عندي عنوان آخر بالفعل.

ما كادت الطبعة الأولى من المقطوعة الموسيقية تُطرَح بالأسواق حتَّى نفدت على الفور. كانت شهرة المؤلف كافية لترويجها. وفضلًا عن ذلك، كان العمل في حدِّ ذاته ملائمًا لذلك اللون الموسيقيّ، إذ يتَّسم بالأصالة ويدعو المستمع إلى الرقص ويسهل حفظه سريعًا. وخلال ثمانية أيام، طبقت شهرة العمل الآفاق. كان «بيستانا» متيمًا بالمقطوعة الموسيقية بحقّ خلال

الأيام الأولى، ويلذُّ له أن يدندنها بصوت خفيض، يتوقف في الشارع كي ينصت إلى أنغامها تُعزف في أحد البيوت، ويغضب حين لا تُعزف بمهارة. سرعان ما عزفتها أوركسترا المسرح. وقد حضر إحدى تلك الحفلات بنفسه. كما لم يزعجه أن يسمع شبحًا لم يتبين ملامحه وهو يصفِر بالمقطوعة ذات ليلة في أثناء سيره عبر شارع «أتيرّادو».

لم يدُم شهر العسل أكثر من ربع شهر. فقد جعله الأساتذة القدامى، أصحاب اللوحات المعلقة، يعضّ أنامل الندم، كما في المرّات السابقة، بل في وقت أقصر. حانقًا ومتبرمًا، انقضّ «بيستانا» على تلك التي طالما جاءت لتعزيته، ربّة الموسيقى، ذات العينين اللتين تطل منهما الشقاوة، واللفتات المستديرة، السَلِسة الرشيقة. عندئذ عاوده شعوره بالاشمئزاز من ذاته، وبالكراهية تجاه من يطلب منه بولكا الساعة الجديدة، فضلًا عن جهوده الرامية لوضع مقطوعة موسيقية ذات مذاق كلاسيكي، حتّى وإن كانت صفحة واحدة، صفحة واحدة فحسب، على أن تُدرج بين صفحات باخ وشومان. دراسة تذهب سدى، وجهود لا نفع لها. كان يغوص في نهر الأردن، فلا ينال المعمودية. ليلة إثر ليلة، قضاها على تلك الحال، واثقًا ومُصرًّا، على يقين من أن العزيمة هي كلّ شيء، ما إن يتخلّى عن الموسيقى الخفيفة.

ذات يوم، عند مطلع الفجر، قال وهو يستلقي على فراشه:

- فلتذهب مقطوعات البولكا إلى الجحيم، حتّى يرقص على

أنغامها الشيطان.

بيد أن البولكا لم ترغب في الغوص على هذا العمق. كانت تَمثُل في بيت «بيستانا»، في حجرة اللوحات بعينها، تقتحمها بسرعة إلى الحدِّ الذي لا يحظى معه بأكثر من الوقت اللازم لتأليفها، ثمَّ نشرها، ثمَّ الإعجاب بها لبضعة أيام، ثمَّ التبرّم بها، وأخيرًا العودة إلى الينابيع القديمة، التي لم تَجُدْ عليه بشيء. عاش يتقلَّب من حال إلى أخرى حتَّى زواجه، وبعد زواجه.

- وبمن سيتزوج؟

سألَت الآنسة «موتا» عمَّها كاتب العدل الذي زفَّ إليها ذلك الخبر.

- سيتزوج بأرملة.

- عجوز؟

- في السابعة والعشرين من عمرها.

- جميلة؟

- ليست بالجميلة، ولا بالقبيحة، بين بين. سمعت أنه قد وقع في حبها لأنه سمعها تغني في احتفالية القديس «فرانسيسكو دي پاولا» الأخيرة. ولكني سمعت أيضًا أن لها سمة أخرى تميِّزها، ليست بنادرة الوجود، ولها قيمة أقلّ: فهي مصابة بالسل.

لا بد أن كَتَبة العدل بلا روح، أقصد أن لهم أرواحًا شريرة. في النهاية شعرت ابنة أخي كاتب العدل هذا بقطرة من البلسم تبرئ آثار لدغة الحسد. كان كلّ ذلك حقيقة. فبعد أيام، تزوج «پيستانا» من أرملة تبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، مغنية بارعة، ومريضة بالسل. استقبلها بوصفها الزوجة الروحية لعبقريته. لا شك في أن التبتل كان هو السبب وراء العقم والتّيه، بحسب ما كان يقول لنفسه. من الناحية الفنية، كان يعدّ نفسه هائمًا ليليًّا، ويعتبر البولكا بمثابة مغامرات شاب طائش. ولكن الآن، أجل، سوف ينجب ذريّة من الأعمال الجادة، العميقة، الملهمة، من نتاج العمل الشاق.

كان ذلك الأمل قد نَبَتَ منذ ساعات الحب الأولى، ثمَّ تفتَّح عند بزوغ فجر الزواج. همهمت روحه قائلة:

- «ماريا»، هَبي لي ما لم أجد في عزلة الليالي، ولا في صخب الأيام.

وسرعان ما خطرت له فكرة تأليف مقطوعة موسيقية ليلية تخليدًا لذكرى زواجهما، وتسميتها «آڤي ماريا» [السلام لكِ يا مريم]. وكأن السعادة قد جلبت له بشائر الإلهام. لم يُرِدْ أن يقول لزوجته شيئًا قبل الانتهاء من المقطوعة الموسيقية، فكان يعمل في الخفاء، وهو أمر عسير؛ لأن «ماريا» العاشقة للفن بالقدر ذاته كانت تحضر لمشاركته العزف، أو لمجرَّد الإنصات إلى عزفه، لساعات إثر ساعات، في حجرة اللوحات. اتفق لهما أن يقيما بعض الحفلات الأسبوعية، مع ثلاثة فنانين من أصدقاء

«پيستانا». وذات يوم من أيام الأحد، لم يستطع الزوج كبح جماح نفسه، ونادى زوجته كي يعزف لها شطرًا من المقطوعة الليلية. لم يخبرها بشيء عن المقطوعة أو مؤلفها. وبغتةً، توقَّف عن العزف ونظر إليها مستفهمًا. فقالت له «ماريا»:

- استمر. أليست من مؤلفات «شوبان»؟

بُهت «پيستانا» وشخص ببصره في الفضاء، عاود عزف شطرَ أو شطرين ثمَّ قام. جلست «ماريا» إلى البيانو، فتَّشت في ذاكرتها جاهدةً لوهلة، ثمَّ عزفت مقطوعة «شوبان». كان الدافع واحدًا، والفكرة واحدة. وقد عثر عليهما «پيستانا» في واحدٍ من أزقَّة الذاكرة المعتمة، في مدينة الخيانات العتيقة. حزينًا، يائسًا، غَادر البيت موليًّا وجهه شطر الجسر، واتخذ طريقه إلى «ساو كريستوڤاو». راح يقول:

- وفيمَ الكفاح؟ سأكتفي بالبولكا... تحيا البولكا!

كان المارة يسمعون ما يقول فيحملقون فيه وكأنه مجنون. أمَّا هو فكان يمضي قُدُمًا، هاذيًا، معذبًا، مثله كمثل كرة ريشة يتقاذفها الطموح والموهبة أبدًا... مرَّ بالمسلخ العتيق، وعند بلوغه بوابة معبر القطار، خطر له أن يسير فوق القضبان، في انتظار أن يسحقه أول قطار. أمره الحارس بأن يتراجع. عاد إلى صوابه، ومن ثمَّ إلى بيته.

بعد أيام قلائل، في السادسة من صباح يوم صحو ومنعش من

أيام شهر مايو 1876، شعر «بيستانا» باختلاجة مميزة ومألوفة تسري في أصابعه. قام رويدًا رويدًا، لئلا يوقظ «ماريا» التي راحت في سبات عميق آنذاك، بعد أن قضت ليلتها في سعال مستمر. ذهب إلى حجرة اللوحات، فتح البيانو، وبأهدأ صوت ممكن، استخلص مقطوعة البولكا التي طلب إصدارها لاحقًا باسم مستعار. وخلال الشهرين التاليين، وضع وأصدر مقطوعتي بولكا أخريين. لم تعرف «ماريا» شيئًا. كانت تسعل وتحتضر، إلى أن قضت نحبها ذات ليلة بين ذراعي الزوج الذي تملّكه الجزع واليأس.

كانت ليلة عيد الميلاد، وقد تفاقمت آلام «بيستانا» بسبب الحفل الراقص المقام في الجوار، حيث عُزف عدد من أفضل مقطوعات البولكا التي وضعها. كان الحفل الراقص في حدِّ ذاته يشقُّ على الاحتمال، وفوق ذلك، فقد أضفت عليه مقطوعاته الموسيقية طابعًا ساخرًا خبيثًا. كان يُحسُّ بإيقاع الخطوات، ويحدس الحركات، التي ربما كانت مثيرة، والتي يفرضها بعض من تلك المعزوفات. كلّ هذا وهو إلى جوار الجثة الشاحبة، كومة من العظام، ممددة على الفراش... هكذا مرَّت كلُّ ساعة من ساعات الليل، رتيبة أو سريعة، ترطبها قطرات الدموع وقطرات العرق، العطور والمحاليل المطهرة، تتقافز بلا توقف، كما لو كانت تتقافز على أنغام مقطوعة بولكا من تأليف «بيستانا» عظيم خفيّ.

بعد دفن الزوجة، استحوذ على الأرمل همٌّ وحيد: أن يؤلف قداسًا جنائزيًّا يُعزف في الذكرى الأولى لوفاة «ماريا»، ثمَّ يعتزل

الموسيقى. سوف يختار عملًا آخر، نسَّاخًا، ساعي بريد، بائعًا جائلًا، أي شيء من شأنه أن ينسيه ذلك الفن القاتل الأصم.

شرع يؤلِّف العمل، باذلًا كلّ شيء: الإقدام، والصبر، والتأمل، بل حتَّى ما اتفق له من النزوات، كما كان يفعل فيما مضى، مقلدًا موتسارت. درس «القدّاس الجنائزي» لموتسارت وأعاد قراءته. مرَّت أسابيع وشهور. وبعد أن بدأ سير العمل سريعًا، أخذ يتباطأ. كانت معنويات «پيستانا» ترتفع ثمَّ تتدنى. فأحيانا كان يجد العمل ناقصًا، فلا يشعر بأن له روحًا، أو فكرة، أو إلهامًا، أو نسقًا. وفي أحيان أخرى، كان يسمو قلبه ويعمل بهمّة. مرَّت ثمانية أشهر، تسعة، عشرة، أحد عشر شهرًا والقدّاس الجنائزي لم ينته بعد. ضاعف من جهوده، نسي دروسه وأصدقاءه. أعاد تأليف العمل مرات كثيرة، بيد أنه كان يرغب في الانتهاء من وضعه الآن، أيًّا كان السبيل إلى ذلك. خمسة عشر يومًا، ثمانية أيام، خمسة... بزغ فجر الذكرى السنوية ليجده مكبًّا على العمل لم يزَل.

رضي برفع قدَّاس إلهي بسيط، له وحده. لا يُمكن القول إنْ كانت الدموع التي ذرفتها عيناه في صمت هي دموع الزوج فحسب، أم شابَتْها دموع الموسيقار أيضًا. والحقيقة أنه لم يعُد للقدّاس الجنائزي ثانية قط.

- وما الجدوى؟

كان يتساءل.

مرَّ عام آخر. وفي مستهل عام 1878، ظهر الناشر. قال له:

- مرَّ عامان لم نعرف خلالهما عنك شيئًا. الكلُّ يتساءل إن كنت قد فقدت موهبتك. ماذا فعلت؟

- لا شيء.

- أتفهَّمُ الصدمة التي تركت هذا الجرح في نفسك، وإن كان قد مرَّ عليها عامان بالفعل. لقد جئت أعرض عليك عقدًا: عشرون بولكا تُسلمها خلال اثني عشر شهرًا، بالسعر القديم، فضلًا عن نسبة أكبر على المبيعات. وبنهاية العام يمكن تجديد العقد.

أومأ «بيستانا». لم يتبقَّ له من الدروس سوى القليل، وباع البيت لتسديد مديونياته، في حين أخذت احتياجاته تلتهم ما تبقى له من مال شحيح بالفعل. وافق على العقد. أوضح الناشر قائلًا:

- ولكن يجب تسليم مقطوعة البولكا الأولى على الفور، الأمر مُلحّ. هل علمت بالخطاب الذي أرسله الإمبراطور إلى «كاشياس»؟ لقد دُعي الليبراليون لتسلم سدّة الحكم، وسوف يجرون الإصلاح الانتخابي. سوف نُسمي البولكا الجديدة: «المجد للانتخابات النزيهة!»، وهذا العنوان لا يمت للسياسة بصلة، بل إنه عنوان جيد يلائم المناسبة.

وضع «بيستانا» أولى مقطوعات البولكا التي ينص عليها العقد. وعلى الرغم من صمته طويل الأمد، لم يكُن قد فَقَد الأصالة أو الإلهام. كانت المقطوعة الجديدة تحمل البصمة الرائعة نفسها. ثمَّ

توالت باقي المقطوعات بانتظام. كان لا يزال محتفظًا باللوحات والمؤلفات، ولكنه أصبح يتجنب قضاء لياليه على البيانو؛ لئلا ينقاد لغوايات جديدة. أصبح يطلب تذكرة مجانية كلما قُدِّمت أوبرا جيدة أو حفل موسيقيّ. كان يذهب، يجلس في أحد الأركان، ويتذوَّق جرعة من الموسيقى التي لن يتفتق عنها ذهنه يومًا. أحيانًا، لدى عودته إلى البيت مفعمًا بالموسيقى، كان يستيقظ بداخله المايسترو الذي لم يُنشر له عمل من قبل. عندئذ كان يجلس إلى البيانو، وبلا أدنى فكرة يعزف بضع نغمات حتَّى يخلد إلى النوم بعد عشرين أو ثلاثين دقيقة.

هكذا مرَّت السنون، حتَّى عام 1885. كانت شهرة «پيستانا» قد وضعته في صدارة مؤلفي البولكا، بيد أن صدارة القرية لم تُرضِ ذلك القيصر، الذي ظلَّ يؤثر عليها المركز، لا الثاني، بل المائة في روما. كانت مشاعره ما زالت تتقلَّب من حال إلى أخرى حيال مؤلفاته كما في سابق عهده، مع اختلاف أن تقلُّباته أصبحت أقلّ عنفًا، فما عاد يشعر بحماس الساعات الأولى، ولا ارتياع ما بعد الأسبوع الأوَّل، بل بشيء من السرور ثمَّ شيء من الضيق.

وفي ذلك العام أصيب بحمّى خفيفة، إلَّا أنها أخذت تستفحل بعد أيام قلائل، إلى أن استحالت حمَّى وبيلة. كان في حالة خطيرة بالفعل حين ظهر الناشر الذي لم يكُن يعرف بدائه، بل ذهب ليزفَّ إليه خبر صعود المحافظين، ويطلب منه مقطوعة بولكا بهذه المناسبة. أوضح له الممرض (عازف كلارينيت فقير بالمسرح)

حالة «بيستانا»، على نحو آثر معه الناشر الصمت. ولكن المريض هو الذي أصرَّ على أن يخبره الناشر بسبب زيارته، فامتثل لرغبته، وختم حديثه قائلًا:

- ولكن ليس قبل أن تتعافى تمامًا.

فأجابه «بيستانا»:

- بمجرَّد أن تخفَّ الحمّى قليلًا.

أعقب قولَه صمتٌ دام لبضع ثوانٍ. ذهب عازف الكلارينيت على أطراف أصابعه ليُعدّ الدواء. وقام الناشر من جلسته ثمَّ ودَّعه قائلًا:

- وداعًا.

فأجابه «بيستانا»:

- اسمع، الأرجح أنني سوف أقضي نحبي هذه الأيام، ولذا سأعدّ لك مقطوعتي بولكا على الفور. يُمكن استخدام الثانية عند صعود الليبراليين.

وكانت تلك هي الدعابة الوحيدة التي ألقاها طوال حياته، قبل فوات الأوان، إذ قضى نحبه فجر اليوم التالي، في الرابعة وخمس دقائق، وهو على وفاق مع الناس، وفي خصومة مع ذاته.

5

المرغوبة

- آهٍ! سيدي المستشار، ها قد بدأت تتحدَّث بالأشعار.

- في قلوب البشر جميعًا، يجب أن تكون ثمّة قيثارات، وإلّا لما كانوا بشرًا. ولست أقول إنه ينبغي للقيثارات أن تعزف في كلِّ حين، أو لأي سبب، بل على فتراتٍ متباعدة، أو لذكريات بعينها... أتعرف لماذا أبدو لك شاعرًا، على الرغم من قوانين المملكة والشَعر الذي خطَّ فيه الشيب؟ لأننا نسير عبر حيٍّ «جلوريا»، على مقربة من وزارة الخارجية... وهناك التلّة الشهيرة... وأمامنا يقوم بيت...

- هلمّ بنا نمضي قدمًا.

- هيًّا... يا لـ«كينتيليا» الفاتنة! كل تلك الوجوه التي تمرُّ هناك، هي وجوه أخرى، ولكنها تحدِّثني عن ذلك الزمن، وكأنها وجوه الماضي ذاتها. فالقيثار يعزف، والمخيلة كفيلة بالباقي. يا لـ«كينتيليا» الفاتنة!

- كان اسمها «كينتيليا»؟ كنت أعرف شكلًا فتاةً تدعى بهذا الاسم وأنا في كلية الطب. كان يقال عنها إنها أجمل فتيات المدينة.

- لا بد أنها الفتاة نفسها، فقد كانت مشهورة بذلك. هل كانت نحيلة وفارعة الطول؟

- بالضبط. وكيف انتهى بها الحال؟

- توفيت عام 1859. في العشرين من إبريل. لن أنسى ذلك اليوم ما حييت. سأحكي لك قصّة جديرة بالاهتمام في رأيي، وأعتقد أنك ستوافقني الرأي. انظر، كان ذلك بيتها... وكانت تعيش مع عمٍّ لها، قائد كتيبة متقاعد. وكان لها بيت آخر في «كوزمي ڤيليو». حين تعرفت على «كينتيليا»... في ظنك، كم كان عمرها حين تعرفت عليها؟

- لو أنك تعرفت عليها عام 1855...

- بالفعل كان عام 1855.

- لا بد أنها كانت في العشرين من العمر.

- بل في الثلاثين.

- في الثلاثين؟

- كانت في الثلاثين من العمر. إلّا أنها لم تكُن تبدو كذلك، ولا حتَّى أعدى أعدائها كانوا يحسبونها في الثلاثين من العمر. كانت تقرُّ بذلك بنفسها مختالةً. على العكس من ذلك، كانت إحدى صديقاتها تؤكد أن عمر «كينتيليا» لا يربو على سبعة وعشرين عامًا. إلّا أنها كانت تدَّعي ذلك كي تبدو أصغر سنًّا بدورها، إذ

ولدت كلٌّ منهما في اليوم نفسه.

- دعك من سخرية القدر، فسخرية القدر والحنين لا يجتمعان.

- وما الحنين إن لم يكُن سخريةً الزمن والحظّ؟ انظر، ها قد شرعتُ أتحدَّث بكلام منمق. كان عمرها ثلاثين عامًا، ولكن الحقّ أنها لم تكُن تبدو كذلك. تذكَّر جيدًا أنها كانت نحيلة وفارعة الطول. كانت عيناها وكأنهما قطعتان من ستار الليلة الأخيرة، وفق ما كنت أقول آنذاك. وهما وإن كانتا عينين ليليتين، فقد خَلَتَا من الغموض والهاوية. كان لها صوت بالغ الرقّة، يتسم بطابع «ساو باولو» إلى حدٍّ ما، فضلًا عن ثغر واسع وأسنان كانت تضفي عليها تعبيرًا ضاحكًا بمجرَّد الحديث. كما كانت تضحك أيضًا، وقد مثَّلت لي ضحكاتها وعيناها مصدر ألمٍ شديد لبعض الوقت.

- ولكن، إن خلت عيناها من الغموض...

- خلت عيناها من الغموض إلى حدٍّ اعتبرتهما معه بوابة قصر مفتوحة، أمَّا ضحكتها فالنفير الذي ينادي الفرسان. كنا نعرفها بالفعل، أنا وزميلي في المكتب «چواو نوبريجا». كلانا كان مبتدئًا في سلك المحاماة، وقد جمعت بيننا علاقة وثيقة منقطعة النظير. بيد أنه لم يخطر لنا الوقوع في حبها قط. كانت في أوج مجدها آنذاك، جميلة، ثرية، أنيقة، ومن صفوة المجتمع. بيد أنه ذات يوم، في مسرح «بروڤيزوريو» القديم، بين فصل وآخر من أوبرا «البيوريتان»، وفيما أنا في أحد الأروقة، سمعت جمعًا من

الفتية يتحدَّثون عنها وكأنها قلعة منيعة. اعترف اثنان منهم بإجراء محاولات لم تؤتِ ثمارها. واحتار الجميع في أمر تبتل الفتاة الذي بدا لهم عصيًّا على التفسير، وراحوا يطلقون النكات: قال أحدهم إنها قد نذرت الانتظار حتى يزيد وزنها أولًا، وقال ثانٍ إنها كانت في انتظار أن يعود عمُّها شابًّا للزواج منه، وقال ثالث إنه يرجح أن تكون قد طلبت ملاكًا من حارس بوابة السماء... تفاهات ضقت بها بشدّة. وفيما يتصل باعتراف اثنين منهم بمغازلتها أو عشقها، فقد اعتبرتها سفالة لا توصف. أمَّا الأمر الذي اتفقوا عليه جميعًا، بحماس وإخلاص، هو جمالها الفائق.

- أوه! ما زلت أذكرها!... كانت بارعة الجمال.

- وفي اليوم التالي، عند وصولي إلى المكتب، بين قضيتين متأخرتين، حكيت لـ«نوبريجا» حديث الليلة الماضية. ضحك «نوبريجا» من الموقف، ثمَّ أخذ يتأمله، وخطا عدَّة خطوات قبل أن يتوقف أمامي، شاخصًا، مطرقًا. سألته:

- أراهن أنك تحبها، أليس كذلك؟

فأجابني:

- كلا، وماذا عنك؟

- لقد خطر لي أمرٌ ما: ماذا لو حاولنا اقتحام القلعة؟ ماذا سنخسر؟ لا شيء. فإمَّا أن تلقي بنا إلى الشارع، وهو ما لنا أن نتوقع حدوثه بالفعل، أو تقبل بأحدنا، وفي تلك الحالة خيرٌ للآخر أن

يرى صديقه سعيدًا.

- هل أنت جاد فيما تقول؟

- كلّ الجدية.

أضاف «نوبريجا» أنه ليس جمالها وحده الذي يضفي عليها تلك الجاذبية. جدير بالذكر أنه كان يفتخر بشخصيته العملية، وعلى الرغم من ذلك فقد كان في الأساس حالمًا، يقضي حياته في القراءة ووضع النظم الاجتماعية والسياسية. وفقًا له، فقد تجنب فتية المسرح الحديث عن ممتلكات الفتاة، التي تعد من مفاتنها، ومن الأسباب التي يرجح أنها قد أفضت بالبعض إلى الحزن، وأفضت بالجميع إلى التهكم. كما قال لي:

- اسمع، لست مع رفع المال إلى مصافّ الآلهة، ولا الإعراض عنه كليةً. لا ينبغي لنا التصديق بأن المال يهب كلّ شيء، ولكن علينا الإقرار بأنه يهب بعض الأشياء، بل الكثير من الأشياء، كساعة اليد هذه على سبيل المثال. دعنا نحارب من أجل «كينتيليا»، سواء أكانت لي أو لك، والأرجح أنها ستكون لي، فأنا أكثر منك وسامةً.

- سيدي المستشار، الاعتراف خطير. هل بدأ الأمر على سبيل الدعابة؟

- أجل، على سبيل الدعابة، وكأننا ما زلنا طالبين في المدرسة، زججنا بنفسنا في مسألة بالغة التعقيد، قد تفضي إلى لا شيء على الإطلاق، إلّا أنها كانت كثيرة الثمار. كانت بداية طائشة، تكاد

تكون لهو أطفال، وإن خلا من الإخلاص، ولكن المرء يريد، ولا يكون إلَّا ما تريد طبيعة الجنس البشري. كنا نعرفها، وإن لم تكُن قد جمعت بيننا لقاءات عديدة. ما إن اتفقنا على مخطط عمل مشترك، حتَّى دخل إلي حياتينا عنصر جديد، وخلال شهر واحد كان قد دبَّ بيننا شجار.

- شجار؟

- أو ما كاد يكون شجارًا. لم نكُن قد وضعناها في الحسبان، فرَمَتْ كلينا بسحرها، وبعنف. بعد بضعة أسابيع، نَدَرَ حديثنا عن «كينتيليا» وأصبح خاليًا من المبالاة. حاول كل منا خداع الآخر وإخفاء مشاعره. وهكذا ذابت الروابط التي كانت تجمع بيننا، بعد مرور ستة أشهر، في غير بغض، أو صراع، أو أية مظاهر بادية، إذ كنا لا نزال نتبادل الحديث حيثما اتفق لنا أن نلتقي، وإن أصبحنا نعمل في مكتبين منفصلين بحلول ذلك الوقت.

- بدأت ألمح بوادر الدراما...

- بل قل التراجيديا. فبعد مرور وقت قصير، تركني «نوبريجا» في ساحة القتال وحيدًا، إمَّا لأنها قد أفاقته من وهمه شفهيًّا، أو ليأسه من الفوز. تولّى منصب قاضي بلدية بإحدى المناطق الداخلية في «باهيا»، حيث هزل جسده وتوفي قبل مرور أربعة أعوام. أفسم لك أن تلك الروح العملية التي تقمَّصها «نوبريجا» لم تكُن السبب وراء افتراقه عنِّي. فحتَّى وإن طالت أحاديثه عن فوائد المال، في

النهاية كان الشغف هو ما أودَى بحياته، وكأنه «ڤرتر»[1] ساذج.

- ولكن بلا مسدس.

- السمُّ يقتل أيضًا، ويمكن القول بأن حبَّ «كينتيليا» كان أشبه بذلك. فهو الذي أرداه قتيلًا، وما زال يؤلمني حتَّى يومنا هذا... ولكن، أفهم مما تقول أنني أضجرك بحديثي.

- ماذا تقول بالله عليك! أقسم لك بأن حديثك لا يضجرني. لم تكُن بأكثر من دعابة سخيفة زلَّ بها لساني. تابِع حديثك، سيدي المستشار. بقيت وحيدًا في ساحة القتال...

- لم تكُن «كينتيليا» تترك أحدًا وحده في ساحة القتال، ولست أقصد أنها السبب في ذلك، بل الآخرون. فلطالما جاء الكثيرون لاحتساء كأس من الآمال، ثمَّ ذهبوا لتناول العشاء في موضع آخر. ما كانت تؤثر أحدًا على الآخر، إلَّا أنها كانت دمثة الأخلاق، رشيقة، ولها عينان من تلك العيون الشاردة التي لم تُخلق للغيورين من الرجال. أمَّا أنا، فقد كانت غيرتي مريرة، بل وأحيانًا مروعة، فبدا لي كلُّ رجل تافه فارسًا، وكلُّ فارس شيطانًا. في النهاية، أصبحت رؤية عابري اليوم الواحد مألوفة لديّ. في حين كان ثمّة آخرون، خوفي منهم أعظم، وهم أولئك الذين يجيئون متخفين بقفازات الصديقات. أعتقد أن ذلك النوع من المفاوضات قد أثير مرتين أو ثلاث مرات، من دون نتائج تُذكر. فقد أعلنت «كينتيليا» أنها لن

1- بطل رواية «آلام الشاب ڤرتر» للشاعر الألماني «جوته».

تقدم على شيء ما لم ترجع إلى عمّها، في حين أشار عليها عمُّها بالرفض، الأمر الذي كانت على علم به مقدمًا. لم تكن زيارات الرجال تروق للعجوز الطيِّب على الإطلاق، خشية أن تختار ابنة أخيه أحدهم ثمَّ تتزوجه. كان قد ألِف وجودها إلى جواره، وكأنها العكاز الذي تتوكأ عليه النفس الكسيحة، إلى حدِّ الخوف من فقدانها كليةً.

- أيكون ذلك هو السبب في عزوف الفتاة المنهجي عن الزواج؟

- سترى أن ذلك غير صحيح.

- ألاحظ أنك كنت أكثر إصرارًا من الآخرين.

- ... كنت واهمًا في بادئ الأمر. فمن بين حشدٍ ضخم من المرشحين الذين لم يحالفهم النجاح، كانت «كينتيليا» تؤثرني على الرجال الآخرين جميعًا، فتتحدث معي لوقت أطول وبقدر أكبر من الحميمية، إلى حدٍّ خطر لي معه أننا سوف نتزوج.

- عمَّ كنتما تتحدثان؟

- عن كلِّ ما لم تكُن تتحدث عنه مع الآخرين. ومما يدعو إلى الذهول أنها، وإن كانت مولعة للغاية بالحفلات الراقصة والنزهات، برقص الڤالس والضحك، فقد كانت في حديثها معي بالغة الجدية والرصانة، بالغة الاختلاف عمَّا درجت عليه، أو عمَّا بدت عليه.

- السبب واضح: كانت تستسيغ حديثك أكثر من أحاديث الآخرين.

- أشكرك. كان السبب الأعمق من ذلك هو الاختلاف بيننا، والذي أخذ يتزايد مع الزمن. كانت حين تضيق ذرعًا بالحياة هنا، تذهب إلى «كوزمي ڤيليو»، حيث كانت تطول أحاديثنا وتكثر. لا أستطيع أن أخبرك بما كانته الساعات التي أمضيتها هناك، حيث دمجت كلًا من حياتي والحياة المتدفقة منها، وإن أخبرتك فلن تتفهم شيئًا. مرَّات كثيرة أردت أن أفصح لها عما أشعر به، فكانت الكلمات تخاف وتلبث مكانها بالقلب. كتبت رسائل إثر رسائل، بدت لي كلُّها باردة، مشتتة، أو مترعة بالعبارات الرنانة. فضلًا عن ذلك، فلم تكن هي تتيح لي الفرصة لأي شيء، إذ كانت تبدو بمظهر الصديقة القديمة. في أوائل عام 1857، مرض أبي في «إيتابوراي». فسارعت بزيارته، لأجده يحتضر، مما حال دون ذهابي إلى المحكمة طوال أربعة أشهر. عدت بنهاية مايو. فاستقبلتني «كينتيليا» حزينةً على حزني، ورأيت حدادي على أبي باديًا في عينيها بوضوح.

- وما كان ذلك إن لم يكُن حبًّا؟

- هذا ما حسبته، ورتبت حياتي حتَّى أتزوجها. عندئذ أصيب عمها بمرض خطير. ما كانت «كينتيليا» لتبقى وحيدة في حال وفاته، فبخلاف أقربائها الكثيرين ممن يعيشون هنا وهناك، كانت تسكُن معها آنذاك في البيت الكائن بشارع «كاتيتي» إحدى بنات

عمومتها، أرملة تدعى دونا «أنا». ولكن الحق أن رفيقها الرئيسي كان في طريقه إلى الرحيل، وفي تلك النقلة من حياة الحاضر إلى الحياة الأخروية، كان في استطاعتي أن أنال ما أريد. لم يطُل مرض العم. فبمساعدة الشيخوخة، أودى المرض بحياته خلال أسبوعين. دعني أقُلْ لك إن وفاته قد ذكرتني بوفاة أبي، وكدت أشعر بالألم نفسه آنذاك. رأتني «كينتيليا» أتألم، فتفهمت دوافعي المضاعفة. وبحسب ما قالته في وقتٍ لاحق، فقد سعدت بالصدفة التي جعلت مصابنا واحدًا، بالأخذ في الحسبان أنه نازل بنا لا ريب في ذلك، وبمنتهى السرعة. بدت لي كلمتها وكأنها دعوة للزواج، فسعيت لطلب يدها للزواج بعد شهرين. ظلّت دونا «أنا» تسكن معها، وكانت كلتاهما حينئذ في «كوزمي ڤيليو»، حيث ذهبتُ وألفيتهما معًا في الشرفة القريبة من الجبل. كانت الرابعة من مساء يوم الأحد. تركت لنا دونا «أنا» الساحة خالية، ظنًّا منها بأننا عاشقان.

- أخيرًا!

- وفي الشرفة، في ذلك المكان المنعزل، بل ويمكنني وصفه بالريفي، بُحْتُ لها بأول كلمة. كان مخططي على وجه التحديد يقتضي بالتعجيل بكلِّ شيء، خشية أن تتبدَّد قواي بعد خمس دقائق من الحديث. وعلى الرغم من ذلك، فأنت لا تعرف كم شقَّ عليَّ ذلك. ما كانت معركة حربية لتشقّ عليَّ إلى هذا الحدّ، وأقسم لك بأنني لست محاربًا بالفطرة. إلّا أن تلك المرأة النحيلة المرهفة

كانت تفرض ذاتها عليّ، كما لم تفعل أخرى من قبل أو من بعد.

- وماذا إذن؟

- حدست «كينتيليا» ما كنت على وشك أن أطلب منها، نظرًا لامتقاع وجهي، فسمحت لي بالحديث كيما تعدَّ الردّ الملائم. جاء ردّها بالاستفهام والنفي في آن: ولمَ الزواج؟ خير لنا أن نظلّ صديقين كما في سابق عهدنا. فقلت لها إن الصداقة عندي، ومنذ زمن بعيد، لم تكن سوى حارس الحبّ الذي عجز عن احتوائه أطول من ذلك، فسمح له بالخروج. ابتسمت «كينتيليا» للمجاز، وهو ما آلمني بلا سبب. لاحظتْ الأثر الذي تركتْهُ ابتسامتها، فاستعادت جديتَها مرَّة أخرى وحاولت إقناعي بأنه خير لنا ألّا نتزوج. قالت:

- لقد تقدَّم بي العمر، أنا في الثالثة والثلاثين.

فأجبتها قائلًا:

- ولكني أحبك كما أنتِ.

وقلتُ لها أشياء لا يسعني تكرارها الآن. تفكَّرت «كينتيليا» لوهلة، ثمَّ أصرَّت على أن نظلَّ صديقين، قائلةً إنني وإن كنت أصغُرها سنًّا، فقد كنتُ أحظى بوقار رجل أكبر منها سنًّا، وأبثُّ في نفسها الثقة كما لا يفعل غيري. يائسًا، خطوت بضع خطوات، ثمَّ عاودت الجلوس مرَّة أخرى وحكيت لها كلَّ شيء. عند معرفتها بما دبَّ بيني وبين صديقي وزميلي في الدراسة من شجار وافتراق،

انتابها شعور، لست أدري هل أصفه بالأسى أم بالحنق. كبحتُ كلا الشعورين، لم يكُن الأمر يستحق أن نبلغ هذا الحدّ.

- أنتِ تقولين هذا لأنكِ لا تشعرين بما أشعر.

- أيكون ضربًا من ضروب الهذيان إذن؟

- أعتقد كذلك. أؤكد لكِ أنني، وحتَّى وقتنا هذا، كنت سأفترق عنه مرَّة أخرى، بل ومائة مرَّة، إذا اقتضت الحاجة. وأعتقد أنه يمكنني الجزم بأنه كان سيفعل الشيء نفسه.

عندئذ نظرت إليَّ مرتاعةً، وكأنها تنظر لشخص تبدو قواه العقلية مختلّة. ثمَّ هزَّت رأسها، وردَّدت أنها كانت غلطة، وأن الأمر لم يكُن يستحق. قالت فيما تمدُّ لي يدها:

- لنظلّ صديقين.

- مستحيل. تطلبين مني ما يفوق مقدرتي، لن أستطيع أن أرى فيكِ مجرَّد صديقة أبدًا. لا أريد أن أفرض عليكِ أيَّ شيء، بل دعيني أقُلْ لكِ إنني لن أصرَّ حتَّى أكثر مما فعلت، لأنني لن أقبل بردٍّ آخر الآن.

تبادلنا بضع كلمات أخرى، ثمَّ ذهبت... انظر إلى يدي.

- ما زالت ترتعش.

- مع أنني لم أخبرك بكلِّ شيء. لن أحدِّثك عن الضيق الذي

شعرت به، ولا عن الإحساس بالألم والحنق الذي لازمني. كنت نادمًا، غاضبًا. كان ينبغي لي أن أسعى للاستيقاظ من وهمي منذ الأسابيع الأولى. بيد أن الذنب كان ذنب الأمل، تلك النبتة الضارّة التي لم تترك عندي مكانًا لنبتات خير منها. بمرور خمسة أيام ذهبت إلى «إيتابوراي»، حيث دُعيت لقضاء بعض المصالح المتعلقة بإجراءات تقسيم ميراث أبي. لدى عودتي بعد ثلاثة أسابيع، وجدت في البيت رسالة من «كينتيليا».

- أوه!

- فضضت الرسالة مضطربًا، كان تاريخها يرجع إلى أربعة أيام مضت. كانت رسالة مطولة، وردت فيها إشارات إلى الأحداث الأخيرة، وأمور لطيفة وأخرى حرجة. أكدَّت فيها «كينتيليا» أنها كانت في انتظار عودتي كلَّ يوم، إذ لم يدُرْ في بالها أنني سأبلغ من الأنانية حدًّا لا أعود معه إلى هناك قط؛ ولذا فقد كتبت لي تلك الرسالة، تسألني فيها أن أجعل من مشاعري الشخصية التي لا صدى لها صفحة من صفحات ماضٍ قد انطوى، وأن أظلَّ صديقًا لها فحسب، وأن أذهب لزيارة صَديقتي. ختمت رسالتها بتلك الكلمات الفريدة:

- أتريد ضمانًا؟ أقسم لك بأنني لن أتزوج ما حييت.

أدركت أن ثمّة علاقة مودّة تجمع بيننا، مع الفارق أنني كنت شغوفًا بها، بينما اصطفتني هي لشخصي. كنا شريكين مقبلين على

تجارة الحياة، كلٌّ منا برأس مال مختلف: أنا بكل ما أملك، أمّا هي فبمبلغ زهيد. أرسلت ردًّا على رسالتها بهذا المعنى، مصرحًا بأن طاعتي وحبّي لها قد بلغا حدًّا أمتثل معه لرغبتها، وإن يكن على مضض، بالأخذ في الاعتبار شعوري بالإهانة بعد ما دار بيننا. طمست كلمة «وبالسخف»، بعد أن كتبتها بالفعل، حتّى يتسنى لي لقاؤها من دون أن تكدر صفونا تلك الكلمة، وكفى بالأخرى.

- أراهن على أنك ذهبت إليها خلف الرسالة مباشرة، أليس كذلك؟ هذا ما كنتُ سأفعل لو كنت مكانك، فتلك الفتاة إمّا أنها لم تكُن تطيق صبرًا على الزواج منك، أو أنني مخطئ.

- دع عنك تلك النظريات الفسيولوجية المعهودة فيك، فنحن أمام حالة بالغة الخصوصية.

- اسمح لي بأن أحزر البقية: كان قَسَمها بمثابة رباط روحاني، استطعت أن تحلّها أنت منه في وقت لاحق، ما دمت مستفيدًا من ذلك الحلّ. باختصار، ذهبت مسرعًا إلى بيتها.

- كلا، بل ذهبت بعد يومين. وفي تلك الأثناء، أرسلت ردًّا على رسالتي مرفقًا به بطاقة ودودة، ختمتها بالفكرة الآتي ذكرها:

- لا تحدِّثني عن الإهانة حيث لم يشهد الواقعةَ أحد.

ذهبت، عدت مرّة أخرى، بل مرّات أخرى، واستأنفنا علاقتنا. لم تحدّثني عن أيِّ شيء. في بادئ الأمر، شقَّ عليَّ كثيرًا أن أبدو كما في سابق عهدي. ثمَّ عاد شيطان الأمل يوسوس إلى قلبي. ومن

دون أن أفصح عن شيء، دار بخلدي أنها ذات يوم، في المستقبل البعيد، سوف تتزوجني. وكان ذلك الأمل هو الذي حسّن من صورتي في عينيّ، في ظل الوضع الذي وجدت فيه نفسي. سَرَتْ شائعات زواجنا في كل مكان، إلى أن بلغت سمعي، فكنت أنكر بصفة رسميّة وبجديّة، أمّا هي فكانت تهزُّ كتفيها ضاحكةً. كانت تلك المرحلة هي الأهدأ في حياتنا، باستثناء واقعة لم تستغرق وقتًا طويلًا، بطلها دبلوماسي نمساوي، أو شيء من هذا القبيل، قوي البنية، أنيق، أشقر، له عينان واسعتان جذابتان، وفوق ذلك يحمل لقب «فيدالجو» النبيل. أبدت له «كينتيليا» من اللطف ما جعله يتخيَّل أنه قد لاقى القبول بالفعل، وسعى للمضي قدمًا. في اعتقادي أن التفاتةً ما، حانت منّي في غير وعي، قد عجَّلت بإيقاظ المبعوث النمساوي من وهمه، وإلا فقد أدرك ذلك بقليل من الفطنة التي حَبَتْه بها السماء. بعد زمن يسير مرضت «كينتيليا»، وعندئذ توطدت العلاقة بيننا على نحوٍ ملحوظ. اتخذت قرارها بعدم الخروج في أثناء تلقيها العلاج، وهو ما قاله لها الأطباء كذلك. هناك كنت أمضي ساعات طوالًا بصفة يومية. إمَّا كانت «كينتيليا» ودونا «أنا» تعزفان الموسيقى، أو كنا نلعب أو نقرأ كتابًا، بيد أننا كنا نكتفي بتبادل الأحاديث في معظم الأوقات. عندئذ استطعت دراستها عن كثب. وبينما أستمع إلى قراءاتها، لاحظت أنها كانت تجد الكتب الرومانسية الخالصة عصيّة على الفهم، بل كانت تنحيها جانبًا بضجر، في حال ورد ذكرٌ لشغف عنيف بها. لم تكن تفعل ذلك عن جهل، بل كانت معرفتها بالشغف مبهمة،

والحالات التي شهدتها قد عاشها آخرون.

- بأيّ مرض أصيبت؟

- كانت إصابتها في العمود الفقري. قال الأطباء إن الإصابة ربما لم تكُن حديثة، وإنها على وشك بلوغ مرحلة حرجة. وفيما نحن على تلك الحال، أقبل عام 1859. ثمَّ تفاقمت إصابتها إلى حدٍّ كبير ابتداءً من مارس من ذلك العام. تخللت تلك الفترةَ راحةٌ لم تدُم إلَّا قليلًا، ولكن بحلول نهاية الشهر أصبحت حالتها ميؤوسًا منها. ومنذ ذلك الحين، لم أرَ كائنًا مفعمًا بالنشاط إلى تلك الدرجة إزاء الكارثة التي تحيق به. بلغتْ من النحول حدًّا بدت معه شفافة، تكاد تكون سائلة. كانت تضحك، أو بالأحرى كانت تنفرج شفتاها بالكاد عن ابتسامة. كانت تراني أخفي دموعي، فتضغط على يديّ شاكرةً. وذات يوم، فيما هي وحدها مع الطبيب، سألته عن الحقيقة. همَّ بالكذب، فقالت له إن ذلك عديم الفائدة، وإن حالتها ميؤوس منها. غمغم الطبيب قائلًا:

- كلا، حالتك ليست ميؤوسًا منها.

- هل تقسم لي بأن حالتي ليست ميؤوسًا منها؟

تردَّد الطبيب، فأعربت له عن شكرها. ما كادت تتأكد من موتها، حتَّى أعدَّت العدة للوفاء بما وعدت به نفسها.

- تزوجت منك، أراهن على ذلك.

- لا تذكّرني بتلك المراسم الحزينة. أو بالأحرى، دعني أتذكّرها، فمعها تهبُّ نسائم الماضي. لم تقبل «كينتيليا» برفضي أو بتوسلاتي. تزوجتْني وهي على مشارف الموت. تزوجنا في الثامن عشر من إبريل من عام 1859. أمضيت آخر يومين، حتَّى العشرين من إبريل، إلى جوار عروسي وهي تحتضر، وعانقتها لأول مرَّة في حياتي بعد أن أصبحت جثّة هامدة.

- كلُّ هذا غريب إلى حدٍّ بعيد.

- لا أعرف ما قول نظرياتك الفسيولوجية. ولكن بحسب رأيي، وهو رأي غير متخصص، كان نفور تلك الفتاة من الزواج نفورًا جسديًّا خالصًا. فتزوجت وهي مشرفة على الموت، على حافة الهاوية. قُل عنها مسخ، إن شئت، ولكن أضف إلى ذلك أنها كانت مسخًا فاتنًا.

6

الدافع الخفي

وقف «جارسيا» يحدِّق في أظفاره ويفرقع أصابعه، في حين جلس «فورتوناتو» على المقعد الهزاز شاخصًا ببصره إلى السقف. أمَّا «ماريا لويزا» فقد جلست على مقربة من النافذة تنتهي من بعض أشغال التطريز. مرَّت خمس دقائق ولم ينبس أيٌّ منهم بكلمة واحدة. كانوا قد تحدَّثوا بشأن الطقس، الذي كان بديعًا يومئذ، بشأن «كاتومبي»، حيث يقطن «فورتوناتو» وزوجته، وبشأن مستشفى سوف نأتي إلى ذكره لاحقًا. وبالأخذ في الحسبان أن الأشخاص الثلاثة الحاضرين هنا قد توفُّوا ودُفنوا بالفعل، فقد حان الوقت لأن نحكي قصتهم كاملةً بلا نقصان.

فضلًا عن تلك الأمور الثلاثة، كانوا قد تحدَّثوا بشأن أمر آخر من القبح والخطورة بحيث لم يجدوا معه رغبةً كبيرة في الحديث بشأن الطقس أو الحيّ أو المستشفى. بل إن كافة أحاديثهم في تلك الأمور كانت مصطنعة. وفي تلك اللحظة تحديدًا، بدت أنامل «ماريا لويزا» وكأنها ما زالت ترتعش، بينما ارتسم على وجه «جارسيا» تعبير قاسٍ غير معهود فيه. والحقيقة أنه لا مناص من العودة إلى بداية الوضع لفهم طبيعة الأحداث.

كان «جارسيا» قد أنهى دراسة الطب في العام السابق، 1861. وفي عام 1860، عندما كان طالبًا بالكلية لم يزَل، التقى بـ«فورتوناتو» لأول مرَّة، عند باب مستشفى «سانتا كازا». كان في طريقه للدخول إلى المستشفى، بينما الآخر في طريقه للخروج. تركت هيئة «فورتوناتو» في نفسه انطباعًا، وعلى الرغم من ذلك، كان «جارسيا» لينسى ذلك الانطباع ما لم يلتقِ به ثانيةً، بعد أيام قلائل. كان يسكن في شارع «دون مانويل». ومنَ الأنشطة الترفيهيةً النادرة التي كان يقبل عليها، التردّد على مسرح «ساو چانواريو»، القائم على مقربة من بيته، بين الشارع سالف الذكر والشاطئ. كان يتردَّد مرَّة أو مرَّتين شهريًّا على المسرح، حيث لم يجد يومًا ما يربو على أربعين شخصًا. وحدهم الأكثر شجاعة كانوا يجرؤون على بلوغ ذلك الركن من أركان المدينة. وذات ليلة، فيما هو جالس بالمسرح، أقبل «فورتوناتو»، واتخذ لنفسه مقعدًا إلى جواره.

كانت مسرحية مُغرقة في الدراما، تعجّ بطعنات السكاكين والويلات والندم. إلَّا أن «فورتوناتو» راح ينصت إليها باهتمام منقطع النظير، فيتضاعف انتباهه في اللحظات الأليمة، وتتنقل عيناه بنهم من ممثل لآخر، إلى حدٍّ ذهب معه الطالب للشكِّ في أن المسرحية تهيج ذكريات شخصية لدى جاره. وبختام العمل الدرامي، عُرضت مسرحية هزلية، إلَّا أن «فورتوناتو» لم ينتظر وغادر المسرح، فتبعه «جارسيا». سار «فورتوناتو» عبر زقاق «كوتوڤيلو»، ثمَّ شارع «ساو جوزيه»، حتَّى بلغ مفرق «كاريوكا». سار متمهلًا، خافضًا رأسه، يتوقَّف بين الفينة والأخرى ليهوي

بعصاه على أحد الكلاب النائمة، ثمَّ يمضي في طريقه بينما يعوي الكلب ألمًا. وفي ميدان «كاريوكا» استقل عربة، ثمَّ اتجه شطر ميدان «كونستيتويساو». أمَّا «جارسيا» فقد عاد إلى بيته، لا يعرف أكثر من ذلك شيئًا.

مرَّت بضعة أسابيع. وذات ليلة، في التاسعة مساءً، سمع أصواتًا آتية من الدرج في أثناء وجوده بالبيت. على الفور نزل من العلِّية حيث يسكن، إلى الطابق الأول حيث يسكن موظف في مخزن السلاح الحربي. فرأى الموظف نفسه غارقًا في دمائه، يحمله بعض الرجال صعودًا. سارع الأسود الذي كان يقوم على خدمته بفتح الباب. كان الرجل يتأوه، واختلطت الأصوات ببعضها البعض، على الضوء الخافت. بعد أن وُضع المصاب في السرير، قال «جارسيا» إنه من الضروري الاتصال بطبيب. فسارع أحدهم قائلًا:

- سيصل الطبيب حالًا.

نظر إليه «جارسيا»: كان هو الرجل نفسه الذي التقى به في مستشفى «سانتا كازا» ثمَّ في المسرح. دار في مخيلته أنه قد يكون أحد أقرباء المصاب أو أصدقائه، إلا أنه استبعد ذلك الافتراض حين سمعه يسأل عمَّا إذا كان للمصاب أهل أو أشخاص مقربون. قال له الأسود أن لا، فتولَّى «فورتوناتو» زمام الأمور. طلب من الغرباء مغادرة المكان، أدَّى أجور الحمالين، وأعطى أوامره الأولية. طلب من «جارسيا» البقاء لمدِّ يد العون للطبيب، علمًا منه

بأنه جار المصاب وطالب في كليَّة الطب. وفي الحال قصَّ علينا ما جرى.

- هاجمته إحدى عصابات «الكابويرا». كنت آتيًا من ثكنة «مورا»، حيث ذهبت لزيارة أحد أبناء عمومتي، حين سمعت جلبة عارمة للغاية، ثمَّ هرج ومرج. يبدو أنهم أصابوا شخصًا آخر بجروح في أثناء مروره، إلا أنه دلف إلى واحدٍ من تلك الأزقّة، فلم أرَ سوى هذا السيِّد، الذي كان يعبر الشارع في اللحظة التي طعنه فيها بالمدية أحد أفراد عصابة الكابويرا في أثناء مروره بجواره. لم يسقط في الحال. أخبرني أين يسكن، فرأيت أن من الأفضل أن أحضره بنفسي، آخذًا في الحسبان أن المكان على بعد خطوتين.

سأل «جارسيا»:

- هل كنت تعرفه من قبل؟

- كلَّا، لم يسبق لي أن رأيته قط. من هو؟

- إنه رجل صالح، موظف في مخزن السلاح الحربي. واسمه «جوڤيا».

- لا أعرفه.

بعد قليل، حضر طبيب وشرطيّ. ضُمدت جراحه وأُخذت الأقوال. صرَّح الشخص المجهول بأنه يدعى «فورتوناتو جوميز دا سيلڤيرا»، مستثمر، أعزب، يسكن في «كاتومبي». أقرَّ الطبيب

بخطورة الإصابة. وخلال تضميد الجروح بمساعدة الطالب لعب «فورتوناتو» دور الخادم، إذ تكفَّل بحمل الوعاء والشمعة والضمادات من دون أن يتسبب في أدنى قدر من الإزعاج، بينما يتطلع ببرود إلى المصاب الذي أخذ يتأوَّه بشدَّة. في النهاية، تفاهم مع الطبيب على انفراد، ورافقه إلى بسطة الدرج، ثمَّ أكَّد للشرطيّ أنه على استعداد لمعاونة الشرطة في التحقيقات. خرج كلٌ من الطبيب والشرطي، في حين بقي «فورتوناتو» والطالب بالغرفة.

كان «جارسيا» مذهولًا. نظر إليه، فرآه يتخذ لنفسه مقعدًا بهدوء، يبسط ساقيه، يضع يديه في جيوب سرواله، ويحدِّق بعينيه في المصاب. كانت له عينان لامعتان، بلون الرصاص، تتحركان ببطء، ويطلُّ منهما تعبير قاسٍ، جاف، بارد. كان وجهه نحيلًا شاحبًا، ولحيته عبارة عن خطٍّ دقيق أسفل ذقنه، تصل من صدغ إلى الآخر، قصيرة، شقراء، وخفيفة. لعله كان في الأربعين منَ عمره. بين الفينة والأخرى، كان يلتفت إلى الطالب، يسأله عن أمرٍ يتعلق بالمصاب، ثمَّ يعاود النظر إلى المصاب لساعته، بينما يجيب الفتى سؤاله. أحسَّ الطالب بالنفور والفضول في آن. لم يستطع إنكار كونه يشهد صنيعًا نادرًا من حيث التفاني، وفي حال كان منزهًا عن المصلحة الشخصية كما بدا بالفعل، فلا مفر من التسليم بحقيقة أن القلب البشري يشبه بئرًا من الأسرار.

غادر «فورتوناتو» قبل الواحدة بقليل. ثمَّ عاد في الأيام التالية، أمَّا المريض فقد تعافى سريعًا. وقبل أن يتمَّ له الشفاء، اختفى

«فورتوناتو» من دون أن يخبر الرجل الذي نال معروفه بمحل سكنه. فكان الطالب هو من أخبره بالاسم والشارع والرقم. قال وهو في فترة النقاهة:

- ما إن أتمكن من الخروج حتَّى أذهب لأشكره على صنيعه.

وبعد سبعة أيام سارع بالذهاب إلى «كاتومبي». استقبله «فورتوناتو» متململًا، وأصغى إلى كلمات العرفان بالجميل في نفاد صبر، ثمَّ ردَّ عليه في ضيق. وانتهى به الأمر إلى أن أخذ يدقّ على ركبتيه مستخدمًا رباط الرُوب. في حين جلس «جوڤيا» في مواجهته مطرقًا، يمسح بأصابعه على القبعة، يرفع عينيه من حين إلى آخر، ولم يعُد لديه ما يقوله. بعد مرور عشر دقائق طلب الإذن بالمغادرة، وغادر. قال له مالك البيت ضاحكًا:

- حذارِ من عصابات الكابويرا!

خرج المسكين من هناك شاعرًا بالخزي والمهانة، يبتلع بصعوبة الاحتقار الذي تعرَّض له، يحاول جاهدًا نسيانه أو تفسيره أو الصفح عنه، لئلَّا يبقى في قلبه سوى ذكرى المعروف، بيد أن جهده ضاع سدى. فقد اقتحم الاستياء قلبه، حيث نزل ضيفًا جديدًا لا يشاركه في المكان أحد، وألقى بالمعروف خارجًا، على نحو لم يملك معه سوى التسلق إلى رأسه والانزواء هناك بوصفه مجرَّد فكرة بسيطة. وهكذا أوعز صانع المعروف بنفسه إلى ذلك الرجل بنكران الجميل الذي شعر به.

اندهش «جارسيا» من كلّ ما جرى. كان هذا الفتى يمتلك بذور القدرة على فكّ شفرة الناس، وفحص الشخصيات، كان عاشقًا للتحليل، ويشعر بلذته، الفائقة بحسب قوله، لذّة اختراق طبقات نفسية عدَّة، حتَّى يصل إلى السرِّ الكامن في قلب الكائن. أثارت المسألة فضوله، وخطر له أن يذهب للقاء الرجل في «كاتومبي»، ولكنه تذكَّر أنه لم يتلقَّ منه دعوة رسمية إلى بيته. كان في حاجة إلى عذر على الأقلّ، إلّا أنه لم يستطع التفكير في عذر واحد.

مرَّ زمن، وتخرَّج وانتقل للسكنى في شارع «ماتا-كاڤالوس»، بالقرب من شارع «كوندي»، حينئذ التقى بـ«فورتوناتو» في حافلة تجرُّها الخيول، ثمَّ التقى به مرَّات أخرى، إلى أن خلق تكرار اللقاء ألفة بينهما. وذات يوم دعاه «فورتوناتو» إلى زيارته في بيته القريب، في «كاتومبي».

- هل تعرف أنني متزوج؟

- لم أكن أعرف.

- تزوجت منذ أربعة أشهر، تبدو لي وكأنها أربعة أيام. تعالَ لتناول العشاء معنا يوم الأحد.

- الأحد؟

- لا تختلق الأعذار. لا أقبل أعذارًا. تعالَ يوم الأحد.

ذهب «جارسيا» إلى هناك يوم الأحد. قدَّم له «فورتوناتو»

عشاءً طيبًا وسيجارات فاخرة وحديثًا ودودًا، برفقة زوجته، وهي سيدة جديرة بالاهتمام. لم تكن هيئته قد تبدَّلت، فما زالت عيناه كصفائح معدنية، قاسية وباردة. أمَّا باقي ملامحه فلم تكن أكثر جاذبية من ذي قبل. على كلٍّ حال، فإن لم تكن المجاملات التي استقبل بها «جارسيا» تغفر له طبيعته، فقد عوَّضته عنها قليلًا، ولم يكُن هذا بالشيء الهيِّن. أمَّا «ماريا لويزا»، فكانت تحظى بالفتنتين، فتنة الشخصية وفتنة السلوك. كانت رشيقة، دمثة الخُلُق، لها عينان رقيقتان خاضعتان. كانت في الخامسة والعشرين من العمر، في حين لم يَبْدُ عليها أنها تتجاوز التاسعة عشرة. في زيارته الثانية، أدرك «جارسيا» عدم وجود تناغم بين شخصيتيهما، كما أدرك أن العلاقة بينهما تخلو، أو تكاد تخلو، من أيِّ انسجام روحي. ومن ناحية الزوجة، فقد أظهرت تجاه الزوج سلوكًا يتجاوز الاحترام ويبدو أقرب منه إلى الخوف والإذعان. ذات يوم اجتمع ثلاثتهم معًا، وفي تلك الأثناء سأل «جارسيا» مخاطبًا «ماريا لويزا» عمَّا إذا كانت ملمَّة بالظروف التي تعرَّف خلالها إلى الزوج. فأجابت الشابة:

- كلّا.

- سأخبرك بمعروف لطيف.

فقاطعه «فورتوناتو»:

- الأمر لا يستحقّ.

فأصرَّ الطبيب:

- سترى سيدتي أن الأمر يستحقّ.

قصَّ عليها واقعة شارع «دون مانويل». فأصغت إليه الشابة وقد تملكتها الدهشة. مدَّت يدها للزوج ذاهلةً، ضغطت على معصمه، باسمةً وممتنَّة، وكأنها قد اكتشفت لتوها أن ثمّة قلبًا يدقُّ بين جوانحه. أخذ «فورتوناتو» يهزُّ كتفيه، إلّا أنه لم يكُن ينصت لحديثه في غير اكتراث. في النهاية حكى بنفسه وقائع زيارة المصاب إلى بيته، بكلِّ التفاصيل المتعلقة بمظهره، إيماءاته، كلماته المتعثّرة، صمته، وخلص إلى كونه رجلًا مغفلًا في المجمل. راح يضحك بشدَّة وهو يقصُّ عليهم ما جرى. لم تكُن ضحكاته زائفة. فالزيف متملصٌ ملتوٍ، في حين تردَّدت ضحكاته مرحة صريحة.

قال «جارسيا» لنفسه: «رجل لا مثيل له!».

استاءت «ماريا لويزا» بسبب تهكُّم الزوج، إلّا أن الطبيب ردَّ لها شعورها السابق بالرضا، إذ عاد لذكر تفاني زوجها ومهاراته نادرة الوجود في التمريض. ثمَّ ختم حديثه قائلًا إن زوجها ممرض ماهر إلى الحدِّ الذي يحدو به إلى دعوته للعمل معه في حال أقام مستشفى ذات يوم.

- اتفقنا؟

- علامَ اتفقنا؟

- لنقِم مستشفى؟

- لم نتفق على أيِّ شيء، كنت أمازحك.

- ربما أمكن عمل شيء. وبالأخذ في الاعتبار أنك في بداية مشوارك كطبيب، أعتقد أن ذلك سوف يكون في صالحك. أملك بيتًا سوف يخلو عمَّا قريب، ويصلح لهذا الغرض.

أبدى «جارسيا» رفضه يومئذ، وفي اليوم التالي، إلَّا أن الفكرة كانت قد استحوذت على فكر الآخر، ولم يعُد التراجع ممكنًا. في الحقيقة، كانت بداية جيدة بالنسبة له، وربما أصبحت تجارة رابحة لكليهما. في نهاية المطاف، وافق «جارسيا» بعد أيام، الأمر الذي مثَّل خيبة أمل لـ«ماريا لويزا». كانت كائنًا متوترًا مرهفًا، مجرَّد التفكير في اضطرار زوجها لأن يعيش على اتصال مع الأمراض البشرية كان يؤلمها، بيد أنها لم تجرؤ على معارضته، وحَنَتْ رأسها في إذعان. سرعان ما تمَّ لهما وضع الخطة وتنفيذها. والحقيقة أن «فورتوناتو» لم يُعْنَ بأمرٍ آخر، لا في حينه، ولا في وقت لاحق. بعد افتتاح المستشفى، تولَّى بنفسه منصب المدير ومشرف الممرضين، كان يفحص كلَّ شيء، ينظِّم كلَّ شيء: المشتريات، الحساء، العقاقير، الحسابات.

حينئذ تسنت لـ«جارسيا» ملاحظة أن التفاني الذي أبداه «فورتوناتو» لمصاب شارع «دون مانويل» لم يكُن مجرَّد حالة استثنائية، بل كانت تلك هي طبيعة ذلك الرجل التي جُبل عليها.

عايَنَهُ مقبلًا على الخدمة كما لم يفعل أيٌّ من الخدم أنفسهم. لم يكُن ينثني أمام أيّ شيء. لم يعرف الرجل علةً شديدة الوطأة أو باعثة على النفور، بل كان على أهبة الاستعداد في كلّ حين، ولكلّ شيء، في أيّ ساعة من ساعات النهار أو الليل. كان الجميع يقابل ذلك بالدهشة والتصفيق. كان «فورتوناتو» يدرس العمليات الجراحية ويتابعها، ولا يسمح لأحدٍ سواه باستخدام المواد الكاوية. كان يقول:

- عندي إيمان قويّ بالمواد الكاوية.

عزَّزت المصالحُ المشتركة أواصرَ الصداقة. وأصبح «جارسيا» من الزوار الدائمين للبيت، حيث كان يتناول العشاء كل يوم تقريبًا، ويراقب شخص وحياة «ماريا لويزا»، التي كانت تعيش في عزلة معنوية بادية. وكأن عزلتها قد ضاعفت من سحرها. بدأ «جارسيا» يشعر بشيء ما يسبِّب له ارتباكًا عند حضورها، عند حديثها، في أثناء عملها مُطرقةً بجوار النافذة، أو عند عزفها الموسيقى الشجيّة على البيانو. رويدًا رويدًا، تسلَّل الحبُّ إلى قلبه. وحين كشف أمره، أراد أن يلقي به خارجًا، كي لا ينشأ رابط آخر بينه وبين «فورتوناتو» بخلاف رابط الصداقة، إلّا أنه لم يستطع. بالكاد استطاع أن يكتمه بداخله. تفهَّمت «ماريا لويزا» كلا الأمرين، العاطفة والصمت، بيد أنها قد احتفظت بذلك لنفسها.

في أوائل شهر أكتوبر جرت واقعة كشفت لعيني الطبيب وضع الشابة بوضوح أكبر. التحق «فورتوناتو» بدراسة التشريح وعلم

وظائف الأعضاء، فأصبح ينفق ساعات الفراغ في تسميم القطط والكلاب وتمزيقها إربًا. ونظرًا للإزعاج الذي كان يتسبب فيه عويل الحيوانات لنزلاء المستشفى؛ فقد نقل المعمل الخاص به إلى البيت، حيث اضطرت زوجته، التي تميل للتوتر بطبعها، لأن تتجشَّم ذلك العناء. إلّا أنها ذات يوم، حين بلغت معاناتها حدًّا لم تعُد تتحمَّل معه المزيد، ذهبت للقاء الطبيب وطلبت منه أن يحمل زوجها على التوقُّف عن تلك التجارب، كما لو كان ذلك مطلبًا شخصيًّا.

- ولكنك بنفسك...

سارعت «ماريا لويزا» تقول، وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة:

- بطبيعة الحال سوف يعتبرني طفلةً. كنت أريدك أن تقول له، بصفتك طبيبًا، إن ما يفعله يؤذيني، وصدِّقني حين أقول لكَ إنه يؤذيني.

سرعان ما تمكَّن «جارسيا» من حمل الآخر على التوقف عن تلك الدراسات. وفي حال ذهب لإجرائها في مكان آخر، فلم يعرف بذلك أحد، إلّا أنه احتمال جائز. عبَّرت «ماريا لويزا» للطبيب عن امتنانها، نيابة عن نفسها وعن الحيوانات التي لم تقدر على رؤيتها تتجشَّم ذلك العناء. كانت تسعل من حين إلى آخر. سألها «جارسيا» عمَّا إذا كان بها خطبٌ ما، فأجابته بالنفي.

- اسمحي لي بأن أجسَّ نبضك.

- ليس بي شيء.

لم تسمح له بجسّ نبضها، وانصرفتْ. انتاب «جارسيا» شعور بالقلق. على عكس ما قالت، دار بخلده أنها ربما تكون على غير ما يرام، وأنه من الضروري فحصها وتنبيه الزوج في الوقت المناسب.

بعد مرور يومين -في اليوم الذي نراهم فيه الآن على وجه التحديد- ذهب «جارسيا» إلى هناك لتناول العشاء. وفي الصالة قيل له إن «فورتوناتو» بمكتبه، فسار متجهًا إلى المكتب: كاد يبلغ الباب في اللحظة التي خرجت فيها «ماريا لويزا» جزعةً. فسألها:

- ما الخطب؟

فصاحَت الشابة مختنقةً وهي تبتعد عن المكان:

- الفأر! الفأر!

تذكَّر «جارسيا» أنه سمع «فورتوناتو» عشية اليوم الفائت يشتكي من فأر قرض إحدى الأوراق المهمّة الخاصة به. وعلى الرغم من ذلك، كان «جارسيا» أبعد ما يكون عن توقُّع ما رأى. إذ رأى «فورتوناتو» جالسًا إلى منضدة في منتصف المكتب وقد وضع فوقها صحنًا من الكحول. كان السائل يتموَّج. وبسبابة وإبهام يده اليسرى، أمسك بخيط يتدلى من طرفه الفأر مربوطًا من ذيله، في حين أمسك بيمينه مقصًّا. وفي اللحظة التي دخل فيها «جارسيا» إلى المكان، كان «فورتوناتو» يبتر واحدة من أرجل الفأر، ثمَّ دلَّى الفأر البائس في الحال إلى شعلة النار، بسرعة، لئلا

يقتله. ثمَّ صنع الشيء نفسه في رِجل الفأر الثالثة، إذ كان قد بتر رِجله الأولى بالفعل. تسمَّر «جارسيا» في مكانه مرتاعًا، وقال له:

- اقتله فورًا!

- حالًا.

وبابتسامة لا مثيل لها، هي انعكاس لصورة نفس صافية، وتنمّ عن اللذّة الحميمية الناشئة عن الأحاسيس السّامية، بتر «فورتوناتو» رِجل الفأر الثالثة، وللمرَّة الثالثة دلّى الفأر إلى شعلة النار بالحركة نفسها. راح البائس يتلوَّى متألّمًا، داميًا، محترقًا، إلّا أنه لم يمُت بعد. أشاح «جارسيا» بعينيه، ثمَّ عاود النظر من جديد، مدَّ يده ليحول دون استمرار ذلك العذاب، بيد أنه لم يستطع؛ لأن ذلك الرجل الشيطان كان يبثُّ الخوف في النفوس، بكلِّ ما لتعابير وجهه من سكينة مشرقة. بقي أمامه بتر الرِّجل الأخيرة. بترها «فورتوناتو» ببطء شديد، فيما يتابع المقصّ بعينيه. سقطت الرِّجل، بينما ظلّ يتطلع إلى الفأر، شبه جثَّة هامدة. ثمَّ دلّاه للمرَّة الرابعة إلى الشعلة، بحركة أسرع من ذي قبل، كي يُبقي له على مِزَقٍ من الحياة، إن أمكن.

استطاع «جارسيا» الواقف في مواجهته أن يسيطر على شعوره بالاشمئزاز من الاستعراض ليحدِّق في وجه الرجل. لم يبدُ عليه أثر للغضب، أو البغض، بل مجرَّد لذّة عظيمة، هادئة وعميقة، كتلك التي قد يشعر بها آخر عند الاستماع إلى سوناتا جميلة أو

مشاهدة تمثال فاتن، شيء أشبه بالإحساس بالجمال المحض. بدا له أن «فورتوناتو» قد نسيه كليةً، وهو ما كان حقيقة. ومع الأخذ بذلك في الاعتبار، فلا بد أنه لم يكُن يتظاهر، بل كانت تلك حقيقته بعينها. خفتت الشعلة. ربما كان قد تبقَّى للفأر أثر للحياة، ظلُّ الظلّ. اغتنم «فورتوناتو» الفرصة وبتر أنفه، ثمَّ قرَّب لحمه من النار للمرة الأخيرة، وفي النهاية ترك الجثَّة تسقط في الصحن، ثمَّ نحّى ذلك الخليط من الدماء والجلد المحترق برمته جانبًا.

عند قيامه من جلسته وجد «فورتوناتو» الطبيب، ففزع. عندئذٍ، أبدَى سخطه على الحيوان الذي قرض الورقة، إلَّا أن غضبته كانت مصطنعة على نحوٍ جليّ.

فكَّر الطبيب بينه وبين نفسه: «إنه يُنزِلُ العقاب في غير غضب، مدفوعًا بحاجته لبلوغ الإحساس باللذّة، التي لا يمنحه إياها سوى الألم المحيق بالآخرين: ذلك هو سرُّ هذا الرجل».

شدَّد «فورتوناتو» على أهمية الورقة، والخسارة التي ستلحق به من جراء خسارتها، صحيح أنها تقتصر على مضيعة الوقت، ولكن وقته قد أصبح لا يُقدَّر بثمن الآن. اكتفى «جارسيا» بالإنصات إليه، من دون أن ينبس بكلمة، أو يصدِّقه. بل أخذ يستعيد أفعاله، الخطير منها وعديم الأهمية، فوجد تفسيرًا واحدًا لها جميعًا. كانت هي الحالة ذاتها، التي تتبدَّل خلالها مفاتيح حساسيته، كأن ما به هيام بالفن منقطع النظير، وكأنه نموذج مصغَّر لـ«كاليجولا».

عادت «ماريا لويزا» إلى المكتب بعد قليل، فذهب إليها زوجها ضاحكًا، أخذ بيديها وهو يقول بوداعة:

- يا لرقة قلبك!

ثمَّ أردف ملتفتًا إلى الطبيب:

- هل تصدِّق أنها كادت تسقط مغشيًّا عليها؟

دافعت «ماريا لويزا» عن نفسها بخوف، قالت إنها متوترة، وإنها امرأة. ثمَّ جلست بجوار النافذة ومعها الأصواف والإبر الخاصة بها، وأصابعها ترتعش لم تزَلْ، كما رأينا في بداية هذه القصَّة على وجه التحديد. كما تذكرون، بعد حديثهم عن أمور أخرى، خيَّم الصمت على ثلاثتهم، فجلس الزوج شاخص البصر إلى السقف، في حين أخذ الطبيب يفرقع أصابعه. بعد قليل ذهبوا لتناول العشاء، إلّا أن العشاء لم يكن باعثًا على البهجة. أخذت «ماريا لويزا» تسعل وهي مستغرقة في التفكير، في حين تساءل الطبيب عمَّا إذا لم تكن بالفعل عرضة للخطر برفقة رجل كهذا. كان هذا مجرَّد احتمال وارد. إلّا أن الحبَّ جعل من الاحتمال حقيقةً في عينيه. فأوجس خيفة من أجلها، وقرَّر أن يراقبهما.

أخذت «ماريا لويزا» تسعل، ثمَّ تسعل، ولم يمرّ وقت طويل قبل أن يكشر المرض عن أنيابه. كانت مصابة بداء السلّ، الكهل الذي لا يشبع، ويستنزف الحياة حتَّى الرمق الأخير، إلى أن يخلف وراءه كومة من العظام. نزل الخبر على «فورتوناتو» كالصاعقة.

كان يحبُّ زوجته بحقٍّ، على طريقته، كان قد ألِفَها، وعزَّ عليه فقدانها. لم يدَّخر جهدًا، أو طبيبًا، أو دواءً، أو يتوانَ عن توفير الهواء الصحيّ لها، بل وفَّر لها كافة السبل والأدوية. ومع ذلك، فقد ضاع كلُّ ذلك سدى. كان مرضها قاتلًا.

في أواخر أيامها، وفي حضرة أشد الآلام التي قاستها الشابة، كَبَحَتْ طبيعة الزوج كلَّ هوى آخر. لم يفارقها لحظةً. شَخَصَ بعينيه الباهتتين الباردتين إلى تفسُّخ حياتها البطيء الأليم، ونهل من أوجاع الشابة الجميلة وجعًا تلو الآخر، وقد هزلت وشفَّ جسدها الذي راحت تلتهمه الحمَّى وينخر فيه الموت. أنانيته بالغة القسوة، المتضورة جوعًا إلى الأحاسيس، لم تُعفِها من دقيقة واحدة من سكرات الموت، ولا جازتها عنها بقطرة واحدة من الدموع، في العلن أو في الخفاء. لم يشعر بالصدمة إلّا بعد أن قضت نحبها. عاد إلى رشده، ليجد نفسه وحيدًا مرةً أخرى.

وفي الليل، ذهبت قريبة لـ«ماريا لويزا»، كانت قد قدَّمت لها المساعدة وهي تحتضر، لتنال قسطًا من الراحة. فبقي «فورتوناتو» و«جارسيا» في الصالون، ليسهرا على جثمانها، وكلاهما مستغرق في التفكير. كان الإنهاك قد نال من الزوج، فقال له الطبيب أن يستريح قليلًا:

- استرِح، نَم ساعة أو ساعتين، وسأستريح أنا الآخر لاحقًا.

خرج «فورتوناتو»، ذهب ليستلقي على أريكة بالحجرة الملحقة

بالصالون، وغفا في الحال. استيقظ بعد مرور عشرين دقيقة، أراد أن يعود إلى النوم، غفا بضع دقائق، ثمَّ قام وعاد إلى الصالون. سار على أطراف أصابعه لئلا يوقظ قريبة زوجته التي كانت نائمة على مقربة. ما إن بلغ الباب حتَّى تسمَّر في مكانه مندهشًا.

كان «جارسيا» قد اقترب من الجثمان، كشف عنه الغطاء، وجعل يتأمَّل ملامح الفقيدة لبضع لحظات. ثمَّ انحنى يطبع قبلةً على رأسها، وكأن الموت يضفي طابعًا روحيًّا على كلِّ شيء. وفي تلك اللحظة بلغ «فورتوناتو» الباب. تسمَّر في مكانه مندهشًا، لا يمكن أن تكون تلك قبلة صداقة، بل ربما كانت خاتمة كتاب زنا. من الجدير بالملاحظة أنه لم يشعر بالغيرة. كانت الطبيعة قد جَبَلَتْه على نحوٍ لا يشعر معه بالغيرة أو الحسد، إلَّا أنه شعر بالزهو، وهو ليس بأقلَّ استحواذًا على النفوس من الاستياء. أخذ يتطلَّع مندهشًا، يعضُّ على شفتيه.

وفي تلك الأثناء، انحنى «جارسيا» ليطبع قبلة أخرى على الجثمان، حينئذ لم يستطع تحمُّل المزيد. فاستحالت القبلة نحيبًا، ولم تَقْوَ عيناه على احتواء الدموع التي انهمرت غزيرةً، دموع الحب الصامت، واليأس العصيّ على العلاج. أمَّا «فورتوناتو»، فقد ظل في مكانه عند الباب، يتذوَّق في هدوء نوبة الألم النفسي طويلة الأمد، بالغة الطول، على نحوٍ لذيذ.

7

ثلاثية في مقام لا الصغير

الفصل الأول

ADAGIO CANTABILE

رافقت «ماريا ريچينا» جدتها إلى حجرتها، ثمَّ ودَّعتها وانصرفت إلى الحجرة الخاصة بها هي الأخرى. وعلى الرغم من الألفة القائمة بينهما، فلم تستطع خادمتها أن تنتزع منها كلمة واحدة إلى أن خرجت من الحجرة بعد نصف ساعة وهي تقول إن سيدتها الصغيرة جادة للغاية يومئذ. ما كادت «ماريا ريچينا» تخلو إلى نفسها حتَّى جلست على حافة الفراش فاردةً ساقيها، واضعةً قدمًا فوق الأخرى، تفكر.

وتقتضي الحقيقةُ القول بأن تلك الفتاة كانت تفكِّر عاشقةً في رجلين في الوقت ذاته، أولهما في السابعة والعشرين من عمره ويُدعَى «ماسيل»، وثانيهما في الخمسين ويدعى «ميراندا». أقرُّ بأن ذلك أمر مكروه، ولكني لا أملك تبديل طبيعة الأشياء، ولا أملك إنكار أنها، إذا كان الرجلان يعشقانها، فلم تكُن هي أقلّ

عشقًا لهما. باختصار، كانت فتاة غريبة الأطوار، أو مُغفَّلة بلغة صديقاتها في المدرسة. لا أحد ينكر أن لها قلبًا عظيمًا وروحًا نقيًّا، إلّا أن ما يعيبها هي مخيلتها، فلها مخيلة مُتَّقدة شرهة، ولا تشبع في الأساس، تنفر من الواقع، فتفرض على صروف الحياة صروفًا أخرى تخصُّها هي، مما يفضي إلى أمورٍ عجيبة لا مفر منها.

استمرت زيارة الرجلين (الذين وقعا في غرامها منذ زمن قريب) حوالي ساعة. تجاذبت معهما «ماريا ريچينا» أطراف الحديث في بهجةٍ، ثمَّ عزفت مقطوعة كلاسيكية على البيانو، سوناتا، جعلت جدتها تغفو غفوةً قصيرة. بعد انتهائها من العزف تناقشوا بشأن الموسيقى. قال «ميراندا» أشياء صائبة بشأن الموسيقى الحديثة والقديمة. كانت الجدة على دين الموسيقار «بيليني» وأوبرا «نورما»، كما تحدَّثت عن معزوفات موسيقية من أيّامها، عذبة، تبعث على الحنين، وتتَّسم بالوضوح في الأساس. وافقت الحفيدة «ميراندا» على آرائه، في حين وافق «ماسييل» الجميع من باب الكياسة.

وبالقرب من الفراش، راحت «ماريا ريچينا» تستعيد كلَّ هذا، الزيارة، الحديث، الموسيقى، النقاش، أسلوب كلٍّ منهما، كلمات «ميراندا» وعيني «ماسييل» الجميلتين. كانت الساعة الحادية عشرة، وقد خلت الحجرة إلّا من الضوء المنبعث من مصباح زيت، وكان كلُّ شيء يدعو إلى السُّبات والاستغراق في الأحلام. بيد أن «ماريا ريچينا» جاهدت لاستعادة أحداث الليلة، لمحت

رجلين إلى جوارها، أصغت إليهما، وتبادلت معهما الأحاديث لما يقرب من ثلاثين أو أربعين دقيقة، على أنغام السوناتا نفسها التي عزفتها: لا، لا، لا.

الفصل الثاني

ALLEGRO MA NON TROPPO

في اليوم التالي ذهبت الجدَّة والحفيدة لزيارة صديقة لهما في «توچيكا». وفي طريق العودة، اصطدمت العربة بطفل كان يعبر الشارع عَدْوًا. رأى أحدهم ما جرى فاعترض طريق الخيل مجازفًا بنفسه، ونجح في إيقافها وإنقاذ حياة الطفل الذي جُرح بالكاد وفقد وعيه. ناس، جلبة... هرعت أمُّ الطفل إليه دامعة العينين، في حين ترجَّلت «ماريا ريچينا» عن العربة ورافقت المصاب إلى بيت أمِّه، الذي كان في الجوار.

من يعرف طُرُق عمل القدر يحزر على الفور أن الشخص الذي أنقذ حياة الصغير كان أحد رجلي الليلة الفائتة، «ماسييل». تلقَّى الطفل الإسعافات الأولية، ثمَّ رافق «ماسييل» الفتاة إلى العربة، وقبل بدعوة الجدَّة لمرافقتهما إلى المدينة. كانوا في «إنچينيو ڤيليو». وفي العربة لاحظت «ماريا ريچينا» أن الدم يسيل من يد الشاب. سألته الجدَّة مرارًا عمَّا إذا كان الصغير في حالة سيئة للغاية، إذا كان سينجو. فأخبرها «ماسييل» بأن جروحه طفيفة. ثمَّ قصَّ عليهما وقائع الحادث: كان واقفًا على الرصيف في انتظار أن تمرَّ عربة حين رأى الصغير يعبر الشارع أمام الخيل. أدرك الخطر، وحاول تداركه أو الحدَّ منه.

قالت العجوز:

- ولكنك جرحت.

- هذا لا شيء يُذكر.

ثمَّ سارعت الفتاة قائلة:

- بل لقد جُرح بالفعل، كان بإمكانك أن تضمد جرحك أنت أيضًا.

فأصرَّ قائلًا:

- هذا لا شيء. مجرَّد خدش، سأجفف الدماء بالمنديل.

لم يتسنَّ له الوقت كي يخرج منديله، إذ قدَّمت له «ماريا ريچينا» منديلها. تناول «ماسييل» المنديل، متأثِّرًا، إلّا أنه تردَّد في تلويثه بالدماء. فقالت له:

- هيّا، هيّا.

ورأته خجلًا، فأخذت المنديل من يده، وجففت الدماء التي سالت على يده بنفسها.

كانت له يد جميلة، في جمال صاحبها، ولكن بدا أنه لم يكُن قلقًا بشأن جرح يده بقدر ما كان قلقًا بشأن تجاعيد أكمام القميص. وفي أثناء حديثه، كان يختلس النظر إلى أكمامه، ثمَّ يواريها. لم ترَ «ماريا ريچينا» شيئًا، رأته هو، ورأت فوق كلِّ شيء العمل الذي

قام به لتوه، والذي أحاطه بهالة في عينيها. أدركَتْ أن طبيعة الشاب السخيّة قد تجاوزت عاداته المتأنية الأنيقة، حتَّى ينتزع حياة طفل لا يعرفه من الأساس من بين يدي الموت. تحدَّثوا عن الأمر حتَّى بلغوا بيت الفتاة وجدّتها. رفض «ماسييل» العربة التي عرضاها عليه، وأعرب لهما عن امتنانه، وودَّعهما على أن يلتقي بهما ليلًا. ودَّعته «ماريا ريچينا» هي الأخرى قائلةً:

- ألقاكَ الليلة!

انتظرته بلهفة. وصل في حوالي الساعة الثامنة، وقد ضمَّد يده بضمادة سوداء. اعتذر عن الحضور هكذا، ولكنهما قالتا له إنه من الأفضل تضميد الجرح، فامتثل لقولهما.

- ولكنك أفضل حالًا!

- أنا بخير، لم يكُن ذلك شيئًا يذكر.

نادته الجدَّة من الجانب الآخر من الصالون:

- تعالَ، تعالَ. اجلس هنا بجواري، فأنت بطل.

أنصت «ماسييل» إليها باسمًا. مرَّت دفعة السخاء وبدأ يحصد مكاسب التضحية التي بذلها، والتي كان أعظمها إعجاب «ماريا ريچينا»، البريء والعظيم إلى حدٍّ نسيت معه الجدَّة والصالون. جلس «ماسييل» بجوار العجوز، في حين جلست «ماريا ريچينا» على الجانب المقابل. الآن وقد أفاقت الجدَّة من الذعر الذي

انتابها، جعلت تحكي لهما عن الاضطراب الذي أحست به في بادئ الأمر، قبل أن تعرف أيَّ شيء، ثمَّ وهي تتخيل الطفل وقد لقي مصرعه، بينما يتبادل «ماسييل» و«ماريا ريچينا» النظرات خلسةً، ثمَّ في شرود. تساءلت «ماريا ريچينا» أين لها أن تجد خيرًا منه خطيبًا. أمَّا الجدّة، التي لم تكُن حسيرة البصر، فقد وجدت نظراتهما أطول مما ينبغي، وغيرت مجرى الحديث. استفسرت من «ماسييل» عن بعض أخبار المجتمع.

الفصل الثالث

ALLEGRO APPASSIONATO

كان «ماسييل» رجلًا «واسع الاطلاع على الأمور»، على حدِّ قوله بالفرنسية، فأخرج من جعبته حفنة من الحكايات والأخبار الجديرة بالاهتمام. كان أهمّ تلك الأخبار جميعًا أن زيجة إحدى الأرامل لم تتمّ.

فصاحت الجدَّة بدهشة:

- غير معقول! وماذا عنها؟

- يبدو أنها هي التي تراجعت عن الزواج، ومع ذلك فقد حضرت الحفل الراقص أوَّل أمس، حيث رقصت وتبادلت الأحاديث بحماس شديد. أوه! والشيء الذي كان له أكبر أثر في نفسي، بعد هذا الخبر، هو العقد الذي تزيَّنتْ به، رائع.

فسألته العجوز:

- هل به صليب من الماس؟ أعرفه، إنه بارع الجمال.

- كلّا، ليس ذلك العقد.

كان «ماسييل» يعرف العقد ذا الصليب، الذي تزيَّنتْ به في

زيارتها لبيت أحد أفراد عائلة «ماسكارينياس». لم يكُن هو العقد نفسه. بل إن العقد الآخر كان معروضًا في متجر «ريسيندي» حتى أيام قلائل مضت. يا له من شيء بديع. ثمَّ قدَّم لها وصفًا تفصيليًّا: عدد الأحجار الكريمة، وضعها وصقلها، حتَّى ختم حديثه قائلًا إنه كان تحفة الليلة.

فتأمَّلت الجدَّة في خبث:

- كان حريًّا بها أن تتزوج عوضًا عن كل هذا البذخ!

- أوافقكِ الرأي، فثروتها لا تسمح لها بمثل ذلك. ولكن، مهلًا! غدًا سأذهب إلى متجر «ريسيندي»، من باب الفضول، لأعرف الثمن الذي بِيعَ به العقد. لم يكُن الثمن زهيدًا، غير ممكن.

- ولكن، لماذا لم يتمّ الزواج؟

- لم يتسنَّ لي أن أعرف السبب، ولكني مدعو على العشاء مع «ڤينانسينيو كورِّيا»، وسيحكي لي كلَّ شيء. أتعرفين أنه قريب لها أيضًا؟ فتى صالح. نشب بينه وبين البارون شجار ضخم...

لم تكُن الجدَّة تعرف بشأن الشجار. قصَّ عليها «ماسييل» وقائع الشجار من البداية إلى النهاية، بما في ذلك كافة الدوافع والعوامل التي أدَّت إلى تفاقمه. كانت القشَّة التي قصمت ظهر البعير حين أدلى البارون بتعليق على طاولة القمار، ملمحًا إلى إحدى نقائص «ڤينانسينيو»، الذي كان أعسر. نما إلى علمه ما قيل، فقطع كافة العلاقات التي تجمع بينه وبين البارون. والطريف في الأمر أن

شركاء البارون في اللعب قد اتهموا بعضهم بعضًا بنقل ما أدلى به من كلمات. أخبرها «ماسييل» بأن عدم البوح بما يقال على طاولة القمار كان بمثابة قاعدة وضعها البارون، بالأخذ في الحسبان الصراحة التي يتعامل بها اللاعبون في المكان.

ثمَّ قدَّم تقريرًا بشأن شارع «أوڤيدور»، عشية اليوم السابق، بين الواحدة والرابعة مساءً. كان يعرف أصناف الأقمشة والألوان الحديثة، كما تطرق إلى أشهر أزياء الساعة، وأوَّلها أزياء مدام «پينا مايا»، وهي سيِّدة ذات قدرٍ مرموق من «باهيا»، «في غاية الأناقة»، وثانيها تلك الخاصة بمدموازيل «پيدروزا»، وهي كريمة قاضٍ بـ«ساو پاولو»، «فاتنة»، وذلك على حدِّ وصفه لهما بالفرنسيةً. ثمَّ ذكر ثلاثًا أخريات، وبعد ذلك عقد مقارنة بين الخمس، وراح يستدلُّ ويخلص إلى النتائج. أحيانًا كان ينسى نفسه ويتحدَّث بالفرنسية. ومن الممكن جدًّا ألّا يكون ذلك سهوًا، بل عمدًا. كان يجيد اللغة إجادة تامَّة، ويعبِّر بها عن نفسه بيسر، بل وتوصَّل ذات يوم إلى المُسلَّمة الإثنية الآتي ذكرها: ثمَّة باريسيون في كل مكان. وفي معرض حديثه، أوضح مسألة متعلقة بلعبة الأوراق التي تُسمى بـ«ڤولتاريتي».

– لديكِ خمس أوراق رابحة من البستوني ورقم سبعة، ولديكِ أيضًا الشايب والملكة القلب...

تبدَّل حال «ماريا ريچينا» من الإعجاب إلى الضجر: أخذت تتشبث بهذا وذاك، تتأمَّل هيئة «ماسييل» النضرة، وتتذكَّر العمل

النبيل الذي جاء به يومذاك، ولكنها ظلَّت تنزلق أبعد فأبعد، ولم يمرّ وقت طويل قبل أن يستحوذ عليها الضجر. لم يكُن ثمَّة مفر. عندئذ لجأت إلى حيلة فريدة. إذ حاولت المزج بين الرجلين، الحاضر والغائب، فجعلت تتطلع إلى الأول، وتنصت إلى الآخر من الذاكرة، وتلك وسيلة عنيفة وأليمة، بيد أنها من الفعالية بحيث تسنَّى لـ«ماريا ريچينا» أن تتأمَّل كائنًا مثاليًا فريدًا.

وفيما هي على تلك الحال حضر الآخر، «ميراندا» شخصيًّا. تبادل الرجلان التحيَّة بفتور. وما لبث «ماسييل» أن غادر بعد عشر دقائق.

بقي «ميراندا». كان جافًّا، فارع القامة، ذا تعابير قاسية باردة. كان له وجه تعِب، وتظهر آثار أعوامه الخمسين بادية على الشعر الأشيب والتجاعيد والبشرة. وحدها عيناه لاح فيهما شيء لم يهرم بعد إلى تلك الدرجة. كانت عيناه دقيقتين، تتواريان أسفل بروز الحاجبين الضخم. ولكن هناك، في أعماق عينيه، في الأوقات التي لا تستغرقان خلالها في التفكير، كان يلمع وميض الشباب. ما كاد «ماسييل» يغادر، حتَّى بادرته الجدَّة سائلةً عمَّا إذا كان على علم بالحادث الذي وقع في «إنچينيو ڤيليو»، ثمَّ قصَّت عليه وقائع الحادث وقد طعَّمتها بمبالغات صارخة، في حين أصغى إليها الآخر في غير إعجاب ولا حسد. في النهاية سألته:

- ألا تظن ذلك أمرًا عظيمًا؟

- أظنُّ أنه ربما يكون قد أنقذ حياة شخصٍ بلا قلب، قد يبقر

بطنه بالسكين يومًا، من دون أن يعرفه.

احتجَّت الجدَّة:

- أوه!

فتدارك قائلًا:

- أو ربما فعل ذلك عارفًا من هو.

فسارعت «ماريا ريچينا» قائلة:

- لا تكُن شريرًا، كان بمقدورك أن تفعل الشيء ذاته لو كنت هناك.

ابتسم «ميراندا» في تهكُّم، وأبرزت ضحكته ملامحه القاسية. أناني وخبيث هو ذلك الـ«ميراندا»، لم يتفوَّق سوى في جانب واحد فحسب: كان مثاليًّا من الناحية الروحانية. وجدت فيه «ماريا ريچينا» المترجم البارع الوافي لعدد من الأفكار التي كانت تعتلج بداخلها على نحو مبهم، لا هيئة لها، ولا تعبير عنها. كان حاذقًا أريبًا، بل وعميقًا، كلّ هذا في غير تحذلق، وفي غير أن يخوض أدغالًا مستغلقة، بل كان بالأحرى يلزم سهول الأحاديث العادية طوال الوقت تقريبًا، وهو على يقين تام بأن قيمة الأشياء كامنة في الأفكار التي توحي بها إلينا. كان لهما الذائقة الفنية نفسها. وعلى الرغم من التحاق «ميراندا» بدراسة الحقوق امتثالًا لأبيه، فقد كان موسيقيّ الهوى.

توقَّعت الجدَّة السوناتا، فأعدَّت نفسها لغفوة قصيرة. فضلًا عن أنها لم تكُن قادرة على السماح لرجل كهذا بالدخول إلى قلبها، إذ كانت تجده ثقيل الظلّ، باعثًا على الضجر. أطرقَتْ بعد مرور

بضع دقائق. ثمَّ تردَّدت أنغام السوناتا، لتتخلَّل حديثًا عذبًا في رأي «ماريا ريچينا»، ولم تعزف السوناتا سوى لأنه طلب منها، قائلًا إن ذلك سوف يكون من دواعي سروره. فقالت تخاطب جدتها:

- جدتي، الآن عليكِ أن تتحلي بالصبر.

اقترب «ميراندا» من البيانو. بجوار المصابيح، أظهر رأسه كلَّ ما ناء به من إجهاد السنين، في الوقت الذي بدت فيه ملامح وجهه أشدَّ قسوة وصفراوية بكثير. انتبهت «ماريا ريچينا» إلى ذلك التبدُّل، وراحت تعزف في غير أن تنظر إليه، وهو أمر عسير بالأخذ في الحسبان أن كلماته، إن تحدَّث، كانت تنفذ إلى أعماق نفسها، إلى درجة ترفع معها الفتاة عينيها في غير شعور منها، ليقع بصرها في الحال على كهل دميم. عندئذ كانت تتذكر «ماسييل»، وزهرة شبابه، وملامحه الصادقة، الرقيقة، العذبة، وفي النهاية تتذكر العمل النبيل الذي جاء به يومذاك. وهي مقارنة مجحفة في حقِّ «ميراندا» بقدر ما كانت المقارنة بين روحيهما مجحفة في حقِّ «ماسييل». لجأت الفتاة إلى الحيلة ذاتها. فأكملت كلًّا منهما بالآخر. كانت تنصت إلى هذا فيما تفكِّر في الآخر. وأعانت الموسيقى الخيال، المتردِّد في بادئ الأمر، ولكنه سرعان ما اكتسب حيوية وكمالًا. وهكذا راحت «تيتانيا»[2]، تتأمَّل حُسن مظهر طائر الحبَّاك بإعجاب، فيما هي تنصت إلى أنشودته، فلا تنتبه إلى أن له رأس حمار.

2- ملكة الجن في مسرحية «حلم ليلة صيف» لشكسبير.

الفصل الرابع

Minuetto

مرَّت عشرة أيام، عشرون، ثلاثون يومًا، بعد تلك الليلة، ثمَّ عشرون أخرى، ثمَّ ثلاثون. ليس ثمَّة خط زمني مؤكَّد. ويُستحسن ترك الأمور مبهمة. بقي الوضع كما كان عليه. وبقي كلٌّ من القصور الشخصي الذي يتَّسم به الرجلان، والمتمِّم المثالي الذي تعالج به ذلك القصور، كما هو. مما تمخَّض عنه رجل ثالث، لا تعرفه.

كان «ماسييل» و«ميراندا» يتبادلان الشعور بعدم الثقة، ويمقتُ كلٌّ منهما الآخر أكثر فأكثر، ويتجشمان بالغ الألم، على وجه الأخصّ «ميراندا»، الذي جاء شغفه في أواخر أيامه. وفي نهاية المطاف شعرَا بالضيق ناحية الفتاة، التي رأتهما يرحلان رويدًا رويدًا. كان الأمل يحدوهما أن يتراجعا أحيانًا، بيد أن كلَّ شيء يقضي نحبه، حتَّى الأمل، فخرج الرجلان إلى غير عودة. مرَّت ليالٍ إثر ليالٍ... وأدركت «ماريا ريچينا» أن الأمر منتهٍ.

ليلةَ اقتنعت بذلك تمام الاقتناع، كانت ليلةً من أجمل ليالي العام، صافية، منعشة، ساطعة. كانت ليلة بلا قمر، إلّا أن صاحبتنا كانت تضيق بالقمر -لسبب غير معروف على وجه التحديد- إمَّا لأن نوره مستعار، أو لأن الجميع يشعر نحوه بالإعجاب، أو ربما

كلا الأمرين. كانت تلك واحدة من سماتها الغريبة، واحدة أخرى.

في الصباح، قرأت مقالًا بالجريدة يقول بوجود نجوم ثنائية تبدو لنا وكأنها جرم سماوي واحد. وبدلًا من أن تأوي إلى فراشها، اتكأت على نافذة الحجرة، تنظر إلى السماء، لعلَّها تكتشف زوجًا من تلك النجوم الثنائية، إلّا أن جهدها قد ضاع سدى. أما وقد عجزت عن اكتشافها في السماء، فقد فتَّشت عنها في دخيلة نفسها، أغمضت عينيها كي تتخيَّل تلك الظاهرة، علم فلك سهل ورخيص، بيد أنه لا يخلو من الخطورة. أسوأ ما فيه أنه يضع الأجرام السماوية في متناول اليد، على نحو إذا فتح المرء عينيه معه، ورأى النجوم تتلألأ لم تزَل، عاليًا في السماء، فعظيمة هي وحشته وأكيد هو تجديفه. وهو ما كان. إذ رأت «ماريا ريچينا» في دخيلة نفسها النجمة الثنائية والوحيدة. على حدة، كانت كلٌّ منهما ذات قيمة لا بأس بها. ولكن إذا اجتمعتا، كانتا تؤلفان جرمًا سماويًّا واحدًا ساطعًا. وكانت هي تبغي الجرم السماوي الساطع. حين فتحت عينيها ورأت قبَّة السماء نائية إلى هذا الحدّ، خلصت إلى أن الخلق كتاب معيب ويفتقر إلى الدقَّة، وتملَّكها القنوط.

عندئذ لمحت على جدار البيت شيئًا أشبه بعيني قط. شعرت بالخوف في بادئ الأمر، ولكنها انتبهت على الفور إلى أن ذلك لم يكُن أكثر من نسخة خارجية من النجمتين اللتين رأتهما في دخيلة نفسها، وانطبعت صورتهما على شبكية عينيها. كانت شبكية تلك الفتاة تعكس كلَّ ما يدور بمخيلتها إلى الخارج. هبَّ الهواء باردًا،

فتراجعت الفتاة وأوصدت النافذة ثمَّ أوت إلى فراشها.

لم تخلد إلى النوم في الحال، بسبب حلقتين من العقيق طُعِّم بهما الحائط. أدركت أنه وهم آخر، فأغمضت عينيها وراحت في سبات. حلمت بأنها تحتضر، بأن روحها تحلِّق في الهواء، صوب نجمة ثنائية بديعة الجمال. انشطرت النجمة إلى اثنتين، فحلّقت صوب أحد الشطرين. وهناك لم تجد ما شعرت به في البدء، فسارعت إلى الشطر الثاني، والنتيجة واحدة، والعودة واحدة، وها هي رائحة غادية بين النجمتين المنفصلتين. عندئذ انبثق صوت من الهاوية، بكلمات لم تفهمها:

- إنها لعنتك، أيتها النفس الباحثة عن الكمال. لعنتك أن تتأرجحي إلى أبد الآبدين بين نجمتين تفتقران إلى الكمال، على أنغام سوناتا المطلق القديمة: لا، لا، لا...

8

آدم وحواء

في أوائل القرن الثامن عشر، وفي أثناء وجود بعض الأصدقاء المقرَّبين على المائدة، أعلنت إحدى مالكات مزارع قصب السكر في «باهيا» لأحد المدعوين، يُعرف عنه ولعه بالحلوى، عن تقديم صنف من أصناف الحلوى المميزة. وللوقت أراد أن يعرف كنه صنف الحلوى، فوصفته صاحبة البيت بالفضولي. لم تكُن ثمَّة حاجة إلى المزيد. فبعد قليل، كان الجميع قد انخرط في نقاش حول الفضول، سواء أكانت سمةً تُميِّز الذكور أم الإناث، وسواء أكانت مسؤولية الخروج من الفردوس تقع على حواء أم آدم. ألقت السيدات بالمسؤولية على آدم، في حين ألقى الرجال بالمسؤولية على حواء، باستثناء القاضي الخارجي الذي لم ينبس بكلمة، والراهب الكرملي «بينتو»، الذي أجاب باسمًا حين سألته مالكة البيت، دونا «ليونور»:

- سيدتي العزيزة، أنا مجرَّد عازف ڤيولا.

ولم يكذبها القول، إذ لم تكُن براعته في العزف على الڤيولا والقيثار تقلُّ عن براعته في اللاهوت.

طُلبت مشورة القاضي الخارجي، فأجاب بأنه ليس ثمَّة أساس

يصلح لتكوين رأي، فقد جرت الأمور في الفردوس الأرضي على نحو مختلف عمَّا ورد في أوَّل أسفار موسى الخمسة، وهو سفر منتحل. عمَّ الذهول، وتردَّدت ضحكات الراهب الكرملي الذي كان يعرف عن القاضي الخارجي كونه واحدًا من أعظم الرجال ورعًا وتقوى بالمدينة، فضلًا عن كونه مرحًا ومبتكرًا، بل ومحبًّا للدعابة، على أن تكون الدعابة ملائمة ومرهفة. أمَّا المسائل الجادة فكان يتعامل معها بمنتهى الجديَّة.

قالت دونا «ليونور» للراهب:

- يا أبتِ «بينتو»، قُل للسيد «ڤيلوزو» أن يلزم الصمت.

فبادر الراهب قائلًا:

- لن أقول له أن يلزم الصمت، فأنا أعرف أن كلَّ ما يخرج من فمه حسنٌ في معناه.

ثمَّ قال «چواو باربوزا»، العقيد في الجيش:

- ولكن الكتاب المقدَّس...

فقاطعه الراهب الكرملي:

- لنترك الكتاب المقدَّس في سلام. فالسيد «ڤيلوزو» مطلع على كتب أخرى بطبيعة الحال...

أصرَّ القاضي الخارجي، فيما يتناول صحن الحلوى الذي

قدَّمته إليه دونا «ليونور»:

- أعرف الكتاب الأصليّ، وأنا على استعداد لأن أخبركم بما أعرف، ما لم تطلبوا غير ذلك.

- هيَّا، أخبرنا.

- إليكم كيف جرت الأمور. بادئ ذي بدء، لم يكُن الربُّ هو خالق العالم، بل الشيطان...

صاحت السيدات في دهشة:

- باسم الصليب!

وطلبت منه دونا «ليونور»:

- لا تتفوه بهذا الاسم.

ثمَّ تدخَّل الراهب «بينتو»:

- أجل، يبدو أن...

- فليكُن «الشرير». «الشرير» هو خالق العالم. بيد أن الرب، الذي قرأ خواطره، أطلق يديه، ولم يراعِ سوى تصويب ما صنعت يداه أو تلطيفه، حتَّى لا يبقى الشرُّ تحت رحمة القنوط من الخلاص أو العمل الصالح. وعلى الفور ظهر العمل الإلهي، فما إن خلق «الشرير» الظلمات، حتَّى خلق الربُّ النورَ، هكذا كان اليوم الأول. وفي اليوم الثاني، يومَ خُلقت المياه، جاءت إلى الدنيا

العواصف والأعاصير، بيد أن نسائم الأصيل هبَّت من خاطرة إلهية. وكان اليوم الثالث يوم الأرض، فخرجت منها النباتات، وإن اقتصرت على النباتات الخالية من الثمار والأزهار، تلك الشائكة، والحشائش القاتلة، على غرار الشوكران. أمَّا الرب فقد خلق أشجار الفاكهة والنباتات المغذية أو تلك الخلابة. وما إن حفر «الشرير» مهاوي وكهوفًا في الأرض، حتَّى خلق الرب الشمس، والقمر، والنجوم، وكانت تلك صنائع اليوم الرابع. وفي اليوم الخامس خُلقت الدواب والماء والهواء. الآن بلغنا اليوم السادس، وهنا أطلب منكم أن تُولوني انتباهكم مضاعفًا.

لم يكُن ثمَّة ما يستدعي أن يطلب منهم ذلك، فقد أخذ يطالعه الجالسون حول المائدة جميعًا، في فضول.

تابع «ڤيلوزو» حديثه قائلًا إنه في اليوم السادس، خُلق الرجل، وما هو إلَّا أن خُلقت المرأة. كلاهما جميل، وإن خلا جسداهما من الروح الذي عجز «الشرير» عن أن يهبهما إياه، ولم يمنحهما سوى أحشاء كريهة. وبنفخة بعث الرب فيهما الروح، ثمَّ بنفخة ثانية بعث فيهما المشاعر النبيلة، النقيَّة، السامية. ولم تنتهِ الرحمة الإلهية عند هذا الحدّ، فقد أمر الربُّ بأن يُزهر بستانٌ عامرٌ بالأطايب، وإلى هناك قادهما، حيث ملَّكهما على كلِّ شيء. فخرَّ كلاهما ساجدًا عند قدمي الرب، يذرفان دموع العرفان. وقال لهما الرب:

– هنا تعيشان، ومن جميع الثمر تأكلان أكلًا، أمَّا ثمار هذه الشجرة فلا، لأنها شجرة معرفة الخير والشرّ.

أصغى آدم وحواء إليه في خشوع. أما وقد باتا وحدهما، فقد نظر كلاهما إلى الآخر متعجّبًا. ما عاد أيٌّ منهما يبدو الشخص نفسه. كانت حواء، قبل أن يبعث الرب فيها المشاعر النبيلة، تشعر برغبة في أن تنصب لآدم شركًا، في حين يشعر آدم بقوّة تدفعه إلى صفعها. أمّا الآن فقد باتا يستغرقان في تأمُّل أحدهما الآخر، أو مطالعة الطبيعة الخلّابة. وحتّى تلك اللحظة لم يكونا قد عرفا قط هواءً نقيًّا، أو مياهًا منعشةً، أو أزهارًا جميلةً وعطِرةً، إلى تلك الدرجة، ولا الشمس كانت قد أرسلت مثل هاتيك السيول الجارفة من السطوع في موضع غير ذلك. ويدًا بيد، طاف آدم وحواء بكافة أرجاء المكان، وضحكا كثيرًا، في الأيام الأوائل، إذ لم يعرفا كيف يضحكان حتّى هذه اللحظة. ما كان لديهما إحساس بالزمن. فلم يشعرا بوزر البطالة، وعاشا حياتهما في تأمُّل. في المساء، كانا يذهبان لمراقبة مغيب الشمس وبزوغ القمر، وعدّ النجوم. نادرًا ما كان يتسنّى لهما عدُّ ألف نجمة، إذ كان يتسلل إليهما النعاس، فيخلدان إلى النوم وكأنهما ملاكان.

وبطبيعة الحال، ثارت ثائرة «الشرير» حين علم بالوضع. لم يكُن قادرًا على الذهاب إلى الفردوس، حيث ينفر منه كلّ شيء، ولن يبلغ به الأمر إلى محاربة الرب. ولكن تناهَى إلى سمعه حفيف الأوراق اليابسة على الأرض، نظر ليجد الحية. فناداها بحماس جارف:

- تعالي إليَّ أيتها الحيّة، أيتها المرارة الزاحفة، يا سمّ السموم،

هل تودِّين أن تكوني أنتِ سفيرة أبيكِ، حتَّى يستردَّ ما صنعت يداه؟

لوَّحت الحيّة بذنبها بإشارة مُبهمة، بدت إشارة بالإيجاب. إلّا أن «الشرير» وهبها القدرة على الكلام، فأجابت أن نعم، أن ستذهب حيثما شاء، إلى النجوم إن وهبها جناحي نسر، وإلى البحر إن كشف لها سرَّ التنفس تحت الماء، وإلى أعماق الأرض إن جعل لها موهبة النمل.

وأخذت الخبيثة تثرثر كيفما اتفق، بلا توقف، سعيدة بلسانها، مسرفةً في حديثها. بيد أن الشيطان قاطعها قائلًا:

- لا شيء من هذا القبيل، لا الهواء ولا البحر ولا الأرض، بل البستان العامر بالأطايب ليس سواه، حيث يعيش آدم وحواء.

- آدم وحواء؟

- أجل، آدم وحواء.

- مخلوقان بارعا الحُسن رأيناهما منذ زمنٍ، فارعا الطول وممشوقا القوام كمثل النخيل، أليس كذلك؟

- بالضبط.

- أوه! كم أمقتهما. آدم وحواء؟ كلا، كلا، أرسلني إلى مكان آخر. كم أمقتهما! أتعذَّب بشدَّة لمجرَّد رؤيتهما. لعلَّك لا تريد مني أن ألحق بهما الأذى...

- هذا هو بالضبط ما أريد.

- أحقًا؟ سأذهب إذن. وسأفعل ما شئت، يا سيدي وأبي. هيَّا، قُل لي سريعًا ماذا تريد مني أن أفعل. هل ألدغ كعب حواء؟ سألدغه...

فقاطعها «الشرير» قائلًا:

- كلّا. بل أريد عكس ذلك تمامًا. ثمَّة شجرة في البستان، شجرة معرفة الخير والشرّ. يُفترض بهم ألَّا يمسّوها أو يأكلوا من ثمرها. اذهبي، ادخلي إلى البستان، التفي حول الشجرة، وحين يمرُّ أحدهما من هناك، ناديه برفق، اقطفي ثمرةً وقدِّميها له قائلةً إنها أشهى ثمار العالم. إنْ أبَى أن يأكلها، فأصرِّي قائلةً إن أكلها كافٍ لمعرفة سرّ الحياة ذاته. اذهبي، اذهبي...

- إني ذاهبة، إلَّا أنني لن أكلِّم آدم، بل حواء. إني ذاهبة، إني ذاهبة. سرُّ الحياة ذاته، أليس كذلك؟

- أجل، سرُّ الحياة ذاته. اذهبي، أيتها الحيّة، يا ابنة حشاي، يا زهرة الشرّ. وإن أبليتِ بلاءً حسنًا، أقسم بأن أفضل ما في الخلق سيكون لكِ، وبذلك أقصد البشر، فيكون كعب حواء لكِ خالصًا كي تلدغيه، وتكون دماء آدم لكِ خالصةً كي تغرسي فيها فيروس الشرّ... اذهبي، اذهبي، ولا تنسي.

تنسى؟ كانت الحية قد حفظت كلَّ شيء عن ظهر قلب. ذهبت، توغلت في الفردوس، وزحفت حتَّى بلغت شجرة الخير

والشرّ، التفت حولها ثمَّ أخذت تترقب. وبعد قليل ظهرت حواء، تسير وحيدةً، رشيقة، بثقة ملكة تعرف أن أحدًا لن ينزع التاج عن رأسها. أكل الحسد صدر الحية، فهمَّت باستدعاء السمّ الزعاف إلى لسانها، ولكنها انتبهت إلى أنها هناك امتثالًا لأوامر «الشرير»، وبصوتٍ معسول نادتها، فسرت رعشة في جسد «حواء».

- من يناديني؟

- أنا التي أناديكِ، وها أنا آكل هذه الثمرة.

- أيتها الملعونة، إنها شجرة الخير والشرّ!

- بالضبط. والآن صرت عارفةً بكلِّ شيء، أصل الأشياء وسرّ الحياة. هيَّا، كُلي فتكون لكِ مقدرةٌ عظيمة على الأرض.

- كلّا، أيتها الغادرة!

- حمقاء! لمَ ترفضين بهاء الأزمان؟ أصغي إليّ، افعلي كما أقول، فتكونين جيشًا، وتقيمين مدائن، وتدعين كليوباترا، «أليسار»، سميراميس... ويخرج من رحمك أبطالٌ، وتكونين أنتِ «كورنيليا»، وتسمعين صوت السماء، وتكونين أنتِ «ديبورا»، وتنشدين، وتكونين أنتِ «صافو». وذات يوم، إن شاء الرب أن ينزل على الأرض، سوف يصطفي رحمك، وَسوف تدعين مريم الناصرية. أيُّ شيء تريدين فوق ذلك؟ ملكية، شعر، ألوهية، أمن أجل الطاعة الحمقاء تفرِّطين في كلِّ هذا؟ ولن يقتصر الأمر على ذلك، بل سوف تجعلكِ الطبيعة أجمل وأجمل. ألوان الأوراق

الخضر، ألوان السماء الزرقاء، الزاهية والباهتة، ألوان الليل، سوف تنعكس على عينيكِ. وأمَّا الليل، إذ يباري الشمس، فلسوف يعبث بخصلات شعرك. وأبناء رحمك سوف ينسجون لكِ من الثياب خيرها، ويصنعون لكِ من العطور أزكاها، وتهبك الطيور ريشاتها، والأرض أزهارها، كلّ شيء، كلّ شيء، كلّ شيء.

أصغت حواء إليها في غير اكتراث. ثمَّ أقبل آدم، سمعهما وأكَّد على إجابة حواء: لا شيء يستحق خسارة الفردوس، لا المعرفة، ولا المقدرة، ولا أيٍّ وهم آخر من أوهام الأرض. وفيما هو يقول قوله ذلك، وضع كلٌ منهمّا يده في يد الآخر، وانصرفا عن الحيّة، التي ذهبت مسرعة لإحاطة «الشرير» بما جرى.

في حين قال الربُّ، الذي سمع كلَّ شيء، لجبرائيل:

- اذهب يا رئيس ملائكتي، انزل إلى الفردوس الأرضي، حيث يعيش آدم وحواء، وأحضرهما إلى النعيم الأبدي الذي يستحقانه لصدِّهما غوايات «الشرير».

وللوقت اعتمر رئيس الملائكة الخوذة المرصعة بالألماس، التي سطعت كألف شمس، ثمَّ شقَّ الهواء، وذهب إلى آدم وحواء قائلاً:

- السلام لكَ يا آدم، السلام لكِ يا حواء. تعاليا معي إلى الفردوس الذي تستحقانه لصدكما غوايات «الشرير».

حنَى كلاهما رأسه، في ذهولٍ وحيرة، علامةً على الطاعة.

عندئذ أمسك جبرائيل بيد كلٍّ منهما، وصعد ثلاثتهما حتَّى بلغوا المثوى الأبديّ، حيث كان آلاف من الملائكة يترقَّبون، يترنمون:

- ادخلا، ادخلا. إن الأرض التي تركتماها، سوف تبقى خاضعة لصنائع «الشرير»، للحيوانات الضارية الخبيثة، والنباتات الضارة السامة، والهواء الملوّث، وحياة المستنقعات. وتتولَّى حكمَها الحيّةُ الزاحفة، اللادغة، ذات اللعاب السائل، وفي خضمِّ تلك البغضاء، لن يجلب مخلوق آخر، على شاكلتكما، بارقةً من الأمل والتقوى.

وهكذا دخل آدم وحواء إلى السماء، على أنغام كلِّ القيثارات، التي وحَّدت أنغامها في ترنيمة إلى المرتدين من الخلق.

أما وقد انتهى من حديثه، مدَّ القاضي الخارجي صحنه إلى دونا «ليونور» طالبًا المزيد من الحلوى، في حين جعل باقي المدعوين يتبادلون النظرات، في دهشة، فعوضًا عن التفسير، استمعوا إلى سرد غامض، أو على أقلِّ تقدير، بلا معنى واضح. سبقتهم دونا «ليونور» إلى الحديث:

- أصبتُ حين قلت إن السيد «ڤيلوزو» يعبث بنا. لم يكُن ذلك ما طلبناه منه، ولا جرى شيء مما قال، أليس كذلك يا أبتِ «بينتو»؟

فأجابها الراهب الكرملي باسمًا:

- السيد القاضي أعلم.

في حين قال القاضي الخارجي فيما هو يرفع ملعقة من الحلوى إلى فمه:

- بالتفكير في الأمر مليًّا، أعتقد أن لا شيء مما قلتُ قد جرى. ولكن يا دونا «ليونور»، لو كان ذلك ما جرى، لما كنّا الآن هنا نتذوَّق هذه الحلوى، الطيبة بحقّ. أهي من صنع الحلواني القديم في «إيتاپاچيبي» أيضًا؟

9

الممرِّض

إذن، فأنت تظن أن ما جرى لي عام 1860 قد يجد له متسعًا في صفحة من صفحات كتاب؟ فليكن، شرطي الوحيد ألَّا يُنشر أيٌّ من هذا قبل وفاتي. لن يطول انتظارك، ربما ثمانية أيام، إن لم يكن أقل. فمرضي عصيٌّ على الشفاء.

انظر، كان في وسعي أن أقصَّ عليك حياتي كاملةً، وفيها أمور أخرى جديرة بالاهتمام، بيد أن ذلك يستلزم وقتًا وورقًا ومعنويات، أشياء لست أملك منها سوى الورق. أمَّا المعنويات فمترديةٌ، وأمَّا الوقت فيشبه المصباح فجرًا. ولن تلبث أن تشرق شمس اليوم التالي، شمس شيطانية، مستغلقة كما الحياة. وداعًا سيدي العزيز، اقرأ ما يلي وتمنَّ لي خيرًا. اغفر لي ما بدا لكَ رديئًا، ولا تزدرِ نبتة السذاب إن لم يتضوَّع منها أريج الورود. طلبت مني وثيقة إنسانية، فإليك ما طلبت. ولا تطالبني فوق ذلك بإمبراطورية المغول العظمى، ولا بصورة فوتوغرافية «للمكابيين». ولكن اطلب حذاء موتي، ولن أعطيه لأحدٍ سواك.

كما تعلم، جرت تلك الأحداث عام 1860. كنت قد أصبحت لاهوتيًّا في العام السابق، خلال شهر أغسطس، وأنا في الأربعين

من عمري. وبذلك أقصد أنني صرت أنسخ الدراسات اللاهوتية الخاصة بأحد قساوسة «نيتيروي»، زميل دراسة قديم، مقابل سكن وفراش ومنضدة، يقدِّمها لي بلباقة. وخلال شهر أغسطس، سالف الذكر، من عام 1859، تلقَّى رسالة من خوري إحدى قُرى المناطق الداخلية، يسأله فيها عمَّا إذا كان يعرف شخصًا ذا خبرة، كتومًا، صبورًا، يرغب في العمل ممرضًا لدى الكولونيل «فيليسبيرتو» براتب مجزٍ. تحدَّث إليَّ القسيس بهذا الشأن، فقبلت عن طيب خاطر، إذ كنت قد سئمت نسخ الاقتباسات اللاتينية والصيغ الإكليريكية. ذهبت إلى العاصمة لأودِّع أخي، ثمَّ تابعت طريقي إلى القرية.

عند وصولي إلى القرية، عرفت المزيد من أخبار الكولونيل. كان رجلًا لا يُطاق، غريب الأطوار، مغاليًا في مطالبه، لا يحتمله أحد، ولا حتَّى أصدقاؤه، يستهلك من الممرضين أكثر مما يستهلك من الدواء، بل وسبق له أن هشَّم وجهي اثنين منهم. فأجبت بأنني لست أخشى الأصحاء، ناهيك عن المرضى. وبعد التفاهم مع الخوري، الذي أكَّد على ما وردني من أخبار وأوصاني بالرفق والرحمة، تابعت طريقي إلى محل إقامة الكولونيل.

وجدته بشرفة البيت، مستلقيًا على مقعد، يتنفس بصعوبة شديدة. لم يستقبلني استقبالًا سيئًا. ولم ينبس بحرف في بادئ الأمر، بل شَخَصَ إليَّ بعيني قطٍّ يراقب ما يجري، ثمَّ أشرقت ملامح وجهه القاسية بصنف من صنوف الضحكات الخبيثة.

وفي النهاية قال لي إنه لم يكُن بين الممرضين الذين حظي بهم مَن يصلح لشيء، كانوا كثيري النوم، يردّون بوقاحة، يتتبعون رائحة الجواري، بل وكان بينهم لصان!

- هل أنت لص؟

- كلا، يا سيدي.

ثمَّ سألني عن اسمي. أخبرته باسمي فأومأ في ذهول:

- «كولومبو»؟

- كلَّا، يا سيدي، بل «پروكوپيو چوزيه جوميز ڤالجونو».

- «ڤالجونو»؟

وجده اسمًا لا يليق بإنسان، واقترح أن يدعوني «پروكوپيو» فقط لا غير، فأجبته بأن يدعوني بالاسم الذي يرضيه. أقصُّ عليك تلك الواقعة الغريبة، ليس لمجرَّد أنها تعطي صورةً وافية عن الكولونيل، بل كذلك لأن إجابتي أعطته خير انطباع عني، وهو ما أخبر به الخوري شخصيًّا، وزاد على ذلك أنني ألطف من حظي بهم من الممرضين. والحقُّ أننا عشنا شهر عسل دام سبعة أيام.

وفي اليوم الثامن، بدأت أختبر الحياة التي عاشها من سبقوني، حياة جديرة بالكلاب، فلا نوم، ولا تفكير في أيِّ أمر آخر، بل التعرُّض للإساءة، والضحك منها أحيانًا، مبديًا أمارات الإذعان والرضاء. وقد لاحظت أنها إحدى السبل لنيل رضاه. بسبب من

مرضه ومزاجه، ما كان يصدر عنه سوى كلّ ما هو وقح. كان يعاني من حفنة أمراض: تمدُّد الأوعية الدموية، الروماتيزم، فضلًا عن ثلاث أو أربع عِلَل أخفّ وطأة. كان على مشارف الستين، إلّا أن الجميع كان يلبي رغباته منذ عمر الخامسة. لو كان ضيِّق الخلق وحسب لما أهمَّني، بيد أنه كان فوق ذلك خبيثًا، يسعد بآلام الآخرين وإهانتهم. بمرور ثلاثة أشهر، كنت قد تعبت من التحمُّل، فعقدت العزم على الرحيل، فقط انتظرت فرصة سانحة.

وما لبثت الفرصة أن سنحت. ذات يوم، لم أضع له الكمادات في ميعادها، فأمسك بعصاه وهوى بها عليَّ مرتين أو ثلاثًا. لم تكن ثمَّة حاجة لأكثر من ذلك. للوقت قدَّمت استقالتي، وذهبت لإعداد حقيبتي. فتبعني الكولونيل إلى حجرتي، وطلب مني أن أبقى، فلا داعي للغضب من عجوز ضيِّق الخلق. ألحَّ في الطلب إلى الحدِّ الذي بقيت معه.

ذات ليلة قال لي:

- أنا على شفير الهاوية يا «بروكوپيو». ليس لي أن أعيش طويلًا. أنا هنا ولكن رجلي في القبر. عليك أن تحضر عزائي يا «بروكوپيو»، وإلّا فلن أقبل بأيَّة أعذار. عليك أن تذهب، وعليك أن تصلي عند مقبرتي.

ثمَّ أردف ضاحكًا:

- وإن لم تذهب، فسوف أعود ليلًا لأجذبك من قدميك. هل

تؤمن بأرواح العالم الآخر يا «بروكوپيو»؟

- إطلاقًا!

فسارع بالردِّ بحيوية وهو يحملق بعينيه:

- ولماذا لا تؤمن بها أيها الحمار؟

هكذا كان الحال في أوقات الصلح، ولك أن تتخيل أوقات الحرب. أمسك عن الضرب بالعصا، بيد أن السباب ظلَّ كما هو، إن لم يكُن أسوأ. ومع الوقت، غَلُظ جلدي، ولم أعُد آبَه بأيِّ شيء. كنت حمارًا، جملًا، غبيًّا، أحمق، كسولًا، كنت كلَّ شيء. ولم يكُن هناك آخرون ليشاطروني حصتي من الشتائم على الأقل. لم يكُن له أقرباء، باستثناء ابن أخ توفي بداء السلِّ في أواخر مايو أو مطلع يوليو، في «ميناس». في بعض الأحيان كان أصدقاؤه يمرّون من هناك لتحيته والتصفيق له، لا أكثر، فلا تدوم الزيارة أكثر من خمس أو عشر دقائق. لم يبقَ سواي. كنت وحيدًا في مواجهة قاموس كامل من الشتائم. عقدت العزم على الرحيل أكثر من مرَّة، إلَّا أنني كنت أبقى أمام إلحاح الخوري.

لم يقتصر الأمر على توتر العلاقة بيننا، بل زد على ذلك لهفتي للعودة إلى العاصمة. ليس الأمر أنني كنت مضطرًّا إلى الاعتياد على الانعزال عن العالم بصفة دائمة وأنا في الثانية والأربعين من العمر، بجوار مريض وحشي، بإحدى المناطق الداخلية. ولتكوين فكرة عن مدى عزلتي، يكفي العلم بأنني لم أكُن حتَّى

أطالع الصحف. فباستثناء الأنباء بالغة الأهمية التي كانت تُحمَل إلى الكولونيل، لم أكُن أعرف شيئًا عن باقي العالم. ولذا فقد عقدت النية على العودة إلى العاصمة في أوَّل مناسبة، حتَّى وإن دعا ذلك إلى خصومة بيني وبين الخوري. وبالأخذ في الاعتبار أنني بصدد تقديم اعتراف شامل، يجدر بي القول إنني كنت متلهفًا على الذهاب لتبديد ما جنيت من نقود هناك، إذ لم أكُن أنفق شيئًا، بل ادَّخرت راتبي كاملًا.

كان من المرجح أن تسنح فرصة مواتية، فقد ساءت حال الكولونيل، وكتب وصيته، مثيرًا سخط كاتب العدل بقدر ما كان يثير سخطي تقريبًا. صار يعاملني بغلظة أشدّ، وندرت فترات اللين والسكينة. بحلول ذلك الوقت، كنت قد فقدت النزر اليسير من الرحمة التي كانت تنسيني شطط المريض، وصرت أحمل بداخلي بذرة المقت والنفور. في أوائل أغسطس، عقدت العزم على الرحيل بصفة نهائية. قبل الخوري والطبيب بالأسباب التي دفعتني إلى ذلك، إلّا أنهما طَلَبا مني البقاء لبعض الوقت. منحتهما شهرًا، على أن أرحل بنهاية الشهر، أيًّا كانت حال المريض. وقد سعى الخوري للبحث عن بديل.

سترى ماذا حدث. في ليلة الرابع والعشرين من أغسطس، أصيب الكولونيل بنوبة من الغضب العارم، دفعني بشدَّة، سبَّني بأقذع الشتائم، توعدني بأن يرميني برصاصة، وانتهى به الأمر إلى أن قذفني بصحن من العصيدة لأنه وجده باردًا. ارتطم الصحن

بالحائط، حيث تحطَّم إلى شظايا. وصاح بي قائلًا:

- سوف تدفع الثمن، أيها اللص!

ثمَّ ظلَّ يدمدم طويلًا. في الحادية عشرة استسلم للنعاس. وفيما هو نائم، أخرجت من الحقيبة كتابًا، رواية قديمة مترجمة لـ«دارلينكور»، كنت قد عثرت عليها هناك، وشرعت في القراءة بالحجرة نفسها، على مسافة قريبة من الفراش. كان عليَّ أن أوقظه عند منتصف الليل حتَّى أناوله الدواء. وسواء أكان ذلك بسبب الإنهاك أو الكتاب، فقد غفوت بدوري قبل أن أبلغ نهاية الصفحة الثانية. استيقظت على صيحات الكولونيل، وقمت من مكاني مفزوعًا. أمَّا الكولونيل، الذي بدا وكأنه يهذي، فقد واصل صياحه، وانتهى به الأمر إلى أن جذب إبريقًا بيده، ثمَّ قذفني به. لم يتسنَّ لي الوقت الكافي حتَّى أتفادى الإبريق، فأصابني في الجانب الأيسر من وجهي. كان الألم من الشدَّة بحيث لم أعُد أرى شيئًا. ألقيت بنفسي فوق المريض، أحطت عنقه بيديّ، تصارعنا، ثمَّ خنقته.

عندما أدركت أن المريض في النفس الأخير، تراجعت مذعورًا، وصرخت، بيد أن أحدًا لم يسمعني. عدت إلى الفراش، هززت جسده لإنعاشه، ولكن بعد فوات الأوان. أصيب الكولونيل بانفجار في الأوعية الدموية، ولقي حتفه. ذهبت إلى الحجرة الملحقة، ولم أجرؤ على العودة إلى حجرته طيلة ساعتين. أنا وبحقٍّ لست قادرًا على سرد كلِّ ما مررت به في تلك الأثناء. انتابني ذهول، هذيان مبهم وغبيّ. بدت لي الجدران وكأنها تتخذ

أشكالًا، وسمعت أصواتًا مكتومة. صيحات الضحية، قبل أن تتصارع وبعدها، ظلّت تتردد بداخلي، وأينما وليت وجهي بدا الهواء مشبعًا بالاختلاجات. لا تحسبني أبتكر صورًا أو عبارات إنشائية، أقول لك إنني قد سمعت بوضوح أصوات تصرخ فيَّ: قاتل! قاتل!

أمَّا فيما عدا ذلك فقد خيَّم الصمت على كلِّ شيء. بل إن دقَّات الساعة، البطيئة، الجافة، المتماثلة، قد جاءت لتؤكد على الصمت والعزلة. ألصقت أذني بالباب على أمل أن أسمع أنينًا، كلمة، شتيمة، أيّ شيء دال على الحياة، يردُّ لضميري السلام. كنت على استعداد لتلقِّي عشر ضربات، عشرين، بل مائة ضربة، على يد الكولونيل. ولكن لا شيء، لا شيء، خيَّم الصمت على كلِّ شيء. كنت أطوف بالحجرة من جديد على غير هدى، أجلس، أضع يديّ على رأسي، أتحسَّر على مجيئي إلى هذا المكان، أصيح ذاهلًا:

- ملعونة هي الساعة التي قبلت فيها بأمر مثل ذلك!

رحت ألعن قسيس «نيتروي»، الطبيب، الخوري، وأولئك الذين أعدُّوا لي مكانًا، وأولئك الذين طلبوا مني أن أبقى لوقت أطول. وتشبثت بفكرة مفادها أن الرجال الآخرين متواطئون معي.

أشعرني الصمت بالهول في نهاية المطاف، فتحت النوافذ لسماع حفيف الرياح، إن هبَّت الرياح، فلم تهبّ. مرَّت الليلة هادئة، والنجوم تلمع، في غير اكتراث، شأن أولئك الذين يرفعون

قبعاتهم احترامًا لجنازة تمرُّ بهم ثمَّ يتابعون حديثهم في شؤون أخرى. اتكأت على النافذة لبعض الوقت، شاخص البصر إلى الليل، مستسلمًا لذكريات حياتي الماضية لعلّني أجد راحةً من ألم الحاضر. يمكن القول بأنني عندئذ فقط فكرت في العقاب بوضوح. وجدتني أحمل وزر جريمة على عاتقي، ورأيت العقاب مؤكدًا. وهنا زاد الخوف من شدّة وخز الضمير. أحسست بشعري وقد انتصب. بعد دقائق، لمحت خيال ثلاثة أو أربعة أشخاص يتلصصون في الفناء، يدلّ مظهرهم على أنهم في حالة تربص. تراجعتُ، فتلاشت الخيالات. كانت مجرَّد هلوسة.

قبيل مطلع الفجر، عالجت رضوض وجهي. عندئذ فقط جرؤت على العودة إلى الحجرة. تراجعت مرتين، في حين دعت الحاجة إلى الدخول، فدخلت إلى الحجرة. وعلى الرغم من ذلك، فلم أتوجه إلى الفراش في الحال. ارتعدت ساقاي وخفق قلبي بشدَّة، بل وذهبت إلى التفكير في الهرب، إلّا أن ذلك كان بمثابة اعتراف بالجريمة، في حين كنتُ في أمسِّ الحاجة لطمس آثارها. ذهبت إلى الفراش، رأيت الجثَّة، وقد اتسعت العينان وانفغر الفم، وكأنه يسمع لكلمات الزمان الأبدية بالمرور من خلاله:

- قايين، ماذا فعلت بأخيك؟

رأيت آثار أظفاري على عنقه، فأحكمت إغلاق أزرار القميص العلوية وسحبت طرف الملاءة حتَّى ذقنه. ثمَّ ناديت عبدًا وقلت له إن الكولونيل قد توفي في أثناء النوم، وبعثت برسالة إلى كلٍّ من

الخوري والطبيب.

كان أوَّل ما خطر لي الرحيل على الفور، بذريعة لقاء أخي المريض، والحقُّ أنني كنت قد تلقيت رسالة منه قبل بضعة أيام، يخبرني فيها بأن حالته ليست على ما يرام. ولكني انتبهت إلى أن الاستعجال في الرحيل يثير الشكوك، فبقيت. بل وكفنت الجثمان بنفسي، بمعاونة عجوز أسود حسير البصر. لم أغادر مكان حفظ الجثث. كنت أخشى أن يكشفوا أمري. أردت أن أرى ما إذا كانت الريبة بادية على وجوههم، إلّا أنني لم أجرؤ على التفرّس في وجوه الحاضرين. كنت أشعر بالضيق من كلّ شيء، خطوات اللصوص التي يتسللون بها إلى المكان، الهمسات، المراسم والصلوات التي تلاها الخوري. وعندما حانت الساعة، أغلقتُ الصندوق بيدين ترتعشان، ترتعشان إلى حدِّ أنْ قال أحدهم للآخر، إذ انتبه إليهما، بنبرة تنم عن الشفقة:

- مسكين «بروكوبيو»! على الرغم مما تجشمه، فهو يشعر بشديد الأسف.

بدا لي ذلك من سخرية القدر. كنت متلهفًا على الانتهاء من الأمر برمته. خرجنا إلى الشارع. كان الانتقال من شبه العتمة التي غرق فيها البيت إلى وضح الشارع بمثابة صدمة شديدة بالنسبة لي. خِفتُ أن يستحيل عليَّ إخفاء الجريمة آنذاك. شخصت ببصري إلى الأرض، ومضيت قدمًا. وحين انتهى كلُّ شيء، تنفست الصعداء، وبتُّ في سلام مع الناس، وإن لم أكن في سلام مع

ضميري، فقضيت الليالي الأولى في جزع وغمّ، بطبيعة الحال. وغنيٌّ عن الذكر أنني جئت إلى «ريو دي چانيرو» بعد ذلك على الفور، أو أنني عشت هنا في رعب، وإن كنت بمنأى عن الجريمة. فأصبحت قليل الكلام، لا أضحك، بالكاد آكل، تراودني هلوسات، كوابيس...

قيل لي:

- دعك من المتوفى، فليس الأمر يستحق كلَّ هذه الوحشة.

أمَّا أنا فكنت أستغلُّ وهمَهم، وأُكثر من الثناء على المتوفي، وأقول عنه إنه كان إنسانًا طيبًا، صحيح أنه كان متطاولًا، ومع ذلك كان له قلب من ذهب. وفيما أثني عليه، كنت أقنع نفسي أنا أيضًا، لبضع ثوانٍ على الأقلّ. ومن الظواهر الأخرى الجديرة بالاهتمام، التي ربما استطعت الاستفادة بها، أنني طلبت رفع قداس إلهي من أجل راحة الكولونيل الأبدية، بكنيسة «ساكرامنتو»، وإن لم أكُن متدينًا. لم أرسل دعوات، لم أقُل شيئًا لأحد. ذهبت لحضور القداس الإلهي، وحيدًا، جاثيًا على ركبتيّ طيلة الوقت، وأنا أكثر من رسم علامة الصليب. منحت القسيس مكافأة مضاعفة، ووزعت الصدقات على باب الكنيسة، كلُّ هذا من أجل المرحوم. لم يكُن القصد من وراء ذلك تضليل الآخرين، بدليل أنني ذهبت وحيدًا. وحتَّى أستوفي هذه النقطة، سوف أضيف أنني لم أكُن أذكر الكولونيل إلّا وقلتُ: «فليتغمد الرب روحه برحمته!» ثمَّ أتبعتُ قولي بسرد بعض نوادره الباعثة على البهجة، ونوبات غضبه

الطريفة.

بعد وصولي إلى «ريو دي چانيرو» بسبعة أيام، تلقيت رسالة الخوري التي أطلعتك عليها، يخبرني فيها بالعثور على وصية الكولونيل، وبأنني أنا وريثه الوحيد. لك أن تتخيل ذهولي. بدا لي أنني أسأت فهم الرسالة. قصدتُ أخي، وقصدتُ أصدقائي، ففهم الجميع الأمر نفسه. ورد بالرسالة أنني الوريث الوحيد للكولونيل. ذهبت إلى الظن بأنه شرَك منصوب لي، ولكني انتبهت في الحال إلى أنه ثمة سبل أخرى للإيقاع بي، في حال اكتُشفت الجريمة. فضلًا عن ذلك، فقد كنت أعرف مدى نزاهة الخوري، الذي لن يسمح بأن يُستخدم كأداة. أعدت قراءة الرسالة، خمس مرَّات، عشرًا، مرَّات كثيرة، وهناك وجدت الخبر.

سألني أخي:

- كم كان يملك؟

- لا أعرف، ولكنه كان ثريًّا.

- لقد أثبت أنه كان صديقًا لك بحقّ.

- كان صديقي حقًّا... حقًّا.

وهكذا آلت إليَّ يديَّ ممتلكات الكولونيل، في مفارقة من مفارقات الحظّ. فكرت في عدم قبول التركة؛ إذ بدا لي أمرًا بغيضًا أن أتلقى من تلك التركة مليمًا واحدًا، وكان ذلك أبغض إلى نفسي

من أن أصبح قاطع طريق مأجورًا. فكّرت في الأمر أيامًا ثلاثة، آخذًا في الاعتبار طيلة الوقت أن عدم قبول التركة قد يثير الشكَّ في أمر ما. وبمرور الأيام الثلاثة، اهتديت إلى حلّ وسط، ألّا وهو قبول التركة، ثمَّ الجود بها كاملةً، شيئًا فشيئًا، وفي الخفاء. لم أكُن مدفوعًا إلى ذلك بتأنيب الضمير وحسب، بل كانت تلك وسيلة للتكفير عن الجريمة بعمل صالح. بدا لي أنني بذلك أكون قد سويت حسابي.

استعددت، ثمَّ ذهبت إلى البلدة. وفي الطريق، كنت كلما دنوت من المكان أتذكّر الواقعة المؤسفة. بدت مشارف البلدة بمظهر مأساوي، وظِلُّ الكولونيل وكأنه ينبثق من كل حدب وصوب. راحت مخيلتي تسترجع الكلمات، الإيماءات، ليلة الجريمة البشعة من أوَّلها إلى آخرها.

جريمة أم شجار بالأيدي؟ في الحقيقة، كان شجارًا بالأيدي، تعرضت خلاله للهجوم فدافعت عن نفسي، وفيما أدافع عن نفسي... كان شجارًا مشؤومًا، فاجعة. استحوذت الفكرة على ذهني. جعلت أوازن إساءات الكولونيل، فرجحت كفّة اللطمات والشتائم. لم يكُن ذنب الكولونيل، أعرف جيدًا، بل ذنب المرض الذي كان يجعله ضيِّق الخلق، بل وخبيثًا، إلى هذا الحدّ... ولكني غفرت له كلَّ شيء، كلَّ شيء... أسوأ ما في الأمر كانت الفاجعة التي وقعت يومذاك... أخذت في اعتباري كذلك أن الكولونيل ما كان ليعيش أطول من ذلك كثيرًا. كانت أيامه معدودة، بل وكان

يحسُّ بذلك ويقرُّ به. كم كان سيعيش؟ أسبوعين، أو أسبوعًا واحدًا، بل ربما أقلّ. لم تعُد تلك حياةً، بل أسمال حياة، إن أمكن وصف المعاناة المتواصلة التي تجشمها الرجل المسكين بتلك التسمية... ومن يدري، فربما كانت وفاة الكولونيل بعد الشجار من قبيل الصدفة؟ من الممكن، بل الأرجح أن يكون ذلك ما جرى، دون غيره. ثمَّ استحوذت عليَّ تلك الفكرة هي الأخرى.

وبالقرب من البلدة انقبض صدري، وانتابتني رغبة في التراجع، إلَّا أنني سيطرت على أعصابي ومضيت قدمًا. استُقبلت بالتهاني. وأخبرني الخوري ببنود الوصيّة، وما أوصى به لصالح الأعمال الخيرية، وفي معرض حديثه راح يُثني على خدمتي بهمّة وبرفق مسيحي للكولونيل، الذي عرف كيف يعبِّر عن امتنانه على الرغم من صلفه وقسوته. كنت أجيبه مشيحًا ببصري:

- بلا شكّ.

كنت مذهولًا، فالكلُّ يثني على ما أبديت من تفانٍ وصبر. اضطرتني أولى إجراءات تقسيم التركة إلى البقاء لبعضِ الوقت في البلدة. وكَّلتُ محاميًا، وسارت الأمور بيسر. وفي تلك الفترة، كثيرًا ما كنت أتحدَّث عن الكولونيل. كانوا يأتون بقصص عنه، في غياب اعتدال الخوري، فكنت أدافع عنه، أشير إلى بعضِ فضائله، أقول إنه كان حازمًا.

- عن أيّ حزم تتحدث! لقد مات، انتهى. ومع ذلك فقد كان

الشيطان بعينه.

ثمَّ إنهم كانوا يقصّون عليَّ أفعالًا منحرفة، وبعضها خارق للعادة. أتريدني أن أخبرك بها؟ كنتُ في بادئ الأمر أنصت إليهم، يملؤني الفضول. وبعد ذلك، داخَلَ قلبي سرورٌ لا مثيل له، سعيت لطرده مخلصًا. كنت أدافع عن الكولونيل، أوضّح لهم حقيقته، أَعْزُو بعض الأمور إلى المنافسات المحلية، أعترف بأنه بالفعل كان على قدر يسير من العنف... فيقاطعني الحلاق قائلًا:

- قدر يسير؟ كان الرجل كالأفعى الهائجة!

كان الجميع، بمن فيهم جامع الضرائب، والصيدلاني، والنسّاخ، كلهم يقولون الشيء نفسه، ثمَّ يقصون نوادر أخرى عن المتوفى وحياته كاملة. كان الشيوخ يذكرون أفعاله الوحشية في الطفولة. والسرور الحميم، الصامت، اللئيم، ينمو بداخلي كديدان شريطية أخلاقية، باقية وتتجدَّد في الحال، مهما مزَّقتها إربًا.

ألهتْني الالتزامات المتعلقة بتقسيم التركة، أضف إلى ذلك أن آراء أهل البلدة كانت معادية للكولونيل إلى حدٍّ أخذ يفقد معه منظر الأمكنة ذلك الأثر الكئيب الذي كان يتركه في نفسي في بادئ الأمر. أما وقد آلت إليَّ التركة، فقد حولتها إلى سندات ونقود. كانت قد مرَّت أشهر طوال، ولم تعُد فكرة توزيع التركة كاملةً على شكل صدقات وتبرعات خيرية تستحوذ عليَّ كما في بادئ الأمر، بل ووجدت أنها تنطوي على الكثير من الادِّعاء.

أدخلت بعض التعديلات على الخطة الأولية، فتصدَّقت ببعض المال على الفقراء ومستشفى «سانتا كازا دا ميزيريكورديا»، كما تبرعت ببعض الثياب الجديدة لكنيسة البلدة، إلى آخره: بقيمة اثنين وثلاثين «كونتو» في المجمل. كما كلَّفت ببناء ضريح للكولونيل من الرخام الخالص، صنعه رجل من نابولي عاش هنا حتَّى عام 1866، ثمَّ ذهب ليقضي نحبه في باراجواي، حسبما أعتقد.

مرَّت السنون، فخبت الذاكرة واصطبغت بالرمادي. أحيانًا أفكِّر في الكولونيل، ولكن من دون ذعر الأيام الأوائل بعد الحادث. واتفق كافة الأطباء الذين أخبرتهم بأمراض الكولونيل على أن موته كان أكيدًا، ولم يتعجبوا سوى من مقاومته لفترة طويلة إلى ذلك الحدّ. ربما كنتُ قد بالغت عن دون عمد في الوصف الذي قدَّمته لهم آنذاك، ولكن الحقّ أن موت الكولونيل كان وشيكًا، حتَّى وإن لم تقع تلك الفاجعة.

وداعًا، سيدي العزيز. وإن وجدت تلك المذكرات ذات قيمة تُذكر، فاجزني عنها بضريح من الرخام أيضًا، وليكُن النقش على ضريحي آيةً من آيات الموعظة على الجبل، أدخلت عليها تعديلًا لتصبح كما يلي: «طوبى لمن يتملّكون، لأنهم يتعزّون».

10

الدبلوماسي

دلفت السوداء إلى غرفة الطعام، حيث ذهبت إلى السفرة المحاطة بالجلوس، وهمسَتْ إلى السنيورا بصوت خفيض. يبدو أنها طلبت منها أمرًا عاجلًا؛ لأن السنيورا قامت في الحال.

- هل ننتظرك، يا دونا «أديلايدي»؟

- كلا، لا تنتظرني يا سيد «رانچيل»، استمر وسوف أعود لاحقًا.

كان «رانچيل» هو قارئ كتاب الطالع. عاد إلى الصفحة، وتلا العنوان الآتي: «لو أن هناك من يحبُّك سرًّا». عمَّت الحركة أرجاء المكان، وتبادل الفتيان والفتيات الابتسام. إنها عشية عيد القديس «چواو» عام 1854، والبيت قائم بشارع «مانجيراس». «چواو» هو اسم مالك البيت، «چواو ڤيجاس»، وله ابنة تدعى «چوانينيا». في كلِّ عام يجتمع الأقارب والأصدقاء بالمناسبة نفسها، فتوقد النار في موضع بالفناء، حيث تُشوى البطاطا كما جرت العادة، ويُقرأ الطالع. كما تُقام وليمة عشاء، وأحيانًا يرقص الحضور، ويلعبون بعض الألعاب الجماعية، كلُّ هذا في جوٍّ من الألفة. يعمل «چواو ڤيجاس» كاتب عدل في إحدى المحاكم المدنية. قال «چواو»:

- هيّا بنا. من سيبدأ الآن؟ سوف تبدأ دونا «فيليسمينا». دعونا نَرَ لو أن هناك من يحبُّها سرًّا.

انفرجت شفتا دونا «فيليسمينا» عن ابتسامة صفراء. كانت امرأة أربعينية لا بأس بها، بلا موهبة أو ثراء، تقضي حياتها في التلصص على الزوج، بطرف عين مخلصة. في الحقيقة، كانت الدعابة ثقيلة، ولكن تلقائية. كانت دونا «فيليسمينا» نموذجًا مثاليًّا لتلك الشخصيات السمحة الوديعة، التي يبدو وكأنها قد ولدت للترفيه عن الآخرين. أخذت الزهر وألقت به وقد بدت عليها أمارات الإذعان غير المصدِّق. صاح صوتان في آن: «رقم عشرة». خفض «رانچيل» عينيه إلى أسفل الصفحة، وقعت عيناه على الخانة الموافقة لرقم عشرة، وقرأ محتوياتها التي ورد بها:

- نعم، ثمَّة شخص، ينبغي لها أن تبحث عنه يوم الأحد في الكنيسة، عند حضورها القداس الإلهي.

فبادر الجالسون حول الطاولة جميعًا بتهنئة دونا «فيليسمينا»، التي ابتسمت في تهكُّم، وإن شعرت في دخيلة نفسها بالأمل.

أخذ آخرون الزهر، وتابع «رانچيل» يقرأ طالع كلّ منهم. كان يقرأ بفصاحة مصطنعة، يخلع نظارته بين الفينة والأخرى، ويمسحها ببطء بالغ بطرف منديل من الكتان، إمَّا لأنه من الكتان، أو لأنه يفوح بعطر الياسمين الزكي. كان كثير التباهي، ويُلقب هناك بـ«الدبلوماسي».

- هيّا أيها الدبلوماسي، استمر.

سرت في جسد «رانچيل» اختلاجة. كان قد نسي قراءة الطالع، مستغرقًا في المرور بعينيه على صفٍّ الفتيات الجالسات على الجانب المقابل من الطاولة. هل كان يعشق أيًّا منهن؟ دعونا نَرَ بالتدريج.

كان أعزب، ليس عن قناعة، وإنما هو صنيع الظروف المحيطة. كان له في شبابه بعض الغراميات العابرة، ولكن مع مرّ الوقت بدأ يشعر برغبة مُلحَّة في بلوغ أعلى المراتب؛ ولذا فقد طال عزوفه عن الزواج حتى الأربعين من العمر، وهو العمر الذي نراه عليه الآن. كانت نفسه تصبو إلى حبيبة لها منزلة أعظم، تنتمي إلى وسط أرقى من ذلك الذي كان يعيش فيه، وأنفق في انتظارها زمنًا. بلغ به الأمر أن راح يتردد على الحفلات الراقصة التي يقيمها محام ثري ذائع الصيت، كان يعمل لديه في نسخ المستندات، وكثيرًا ما يُشمله المحامي بحمايته. وخلال الحفلات الراقصة، كان «رانچيل» يقف منه موقف المرءوس، شأنه في المكتب. كان يُمضي ليلته هائمًا عبر الأروقة، يتلصَّص على القاعة، يرى السيدات يمرقن، يلتهم بعينيه حشدًا من الأكتاف البديعة والخصور الرشيقة. كان يحسد الرجال، ويقلدهم. كان يخرج من هناك منفعلًا، عاقد العزم. وفي غياب الحفلات الراقصة، كان يتردَّد على حفلات الكنائس، حيث يتسنَّى له أن يرى عددًا من خيرة فتيات المدينة. فضلًا عن ذلك، كان دائم التردد على ساحة القصر الإمبراطوري،

في أيام المواكب، لمشاهدة النبيلات والحاشية والوزراء وقادة الجيش والدبلوماسيين والقضاة. كان ملمًّا بكلّ شيء، ويعرف الناس جميعًا، بل والعربات الخاصة بهم. كان يخرج من الموكب شأنه حين يخرج من الحفلات الراقصة، مندفعًا، متَّقِدًا، قادرًا على انتزاع كفّ الحظ بحركة واحدة.

أسوأ ما في الأمر أن سور الشاعر كان يقف حائلًا بين اليد وبين الثمر، ولم يكن «رانچيل» بالرجل الذي يقفز فوق الأسوار. كان يُقْدِم على كلّ شيء في مخيلته، فيختطف نساءً ويبيد مدائن. بينه وبين نفسه، تقلّد منصب وزير الدولة أكثر من مرَّة، ونال كفايته من المجاملات والمراسيم. وذات يوم، في الثاني من ديسمبر، لدى عودته من الموكب الذي أقيم في ساحة القصر، بلغ من الخيال مبلغًا ونصَّب نفسه إمبراطورًا. وفي سبيل ذلك، أطلق في مخيلته ثورة، سكب خلالها شيئًا من الدماء، القليل، وأقام في إثرها ديكتاتورية عادلة، ولم يثأر سوى من أجل بعض صغائر الأمور التي أُثارت استياءه بوصفه كاتب عدل. أمَّا هنا على أرض الواقع، فلم تكن مآثره بأكثر من حكايات خرافية. في حقيقة الأمر كان مسالمًا وكتومًا.

في الأربعين من العمر تخلَّى عن طموحاته. بيد أن طباعه ظلَّت كما هي. وعلى الرغم من سعيه إلى الزواج، فلم يجد لنفسه عروسًا. كانت أكثر من فتاة لتقبل به عن طيب خاطر، إلّا أنه كان يخسرهن جميعًا بسبب من إسرافه في الاحتياط. ذات يوم انتبه إلى

«چوانينيا»، التي كانت قد قاربت عامها التاسع عشر، ولها عينان جميلتان، هادئتان، عذراوان. كان «رانچيل» يعرفها منذ نعومة أظفارها، بل كان يحملها على عنقه، عبر الممشى العمومي، أو خلال ليالي الألعاب النارية في «لاپا»، فكيف يحدِّثها عن الحب؟ ولكن من ناحية أخرى، كانت العلاقة التي تجمع بينه وبين البيت وثيقة إلى حدٍّ قد يسهل معه على «رانچيل» الزواج منها. وإمَّا الزواج منها، أو لا زواج.

هذه المرَّة، لم يكُن السور عاليًا، بل وكان الثمر على ارتفاع منخفض، يكفي أن يمدَّ ذراعه بقليل من الجهد لقطفه. كان «رانچيل» على تلك الحال منذ بضعة أشهر. لا يمدُّ ذراعه قبل أن يختلس النظر أولًا إلى كافة الجوانب، خشية أن يكون أحدهم آتيًا، وفي حال كان أحدهم آتيًا، يتظاهر «رانچيل» بغير ذلك ثمَّ يذهب. وحين يتسنَّى له أن يمدُّ ذراعه، كانت تهبُّ عصفة ريح يهتزُّ لها الثمر، أو يمرق طائرٌ فوق الأوراق اليابسة، فلا يحتاج «رانچيل» إلى أكثر من ذلك حتَّى يرفع يده. هكذا مضى الوقت، والشغف يتسلل إلى قلبه، ويسبِّب له ساعات طوالًا من الكآبة، تتبعها دائمًا آمال أفضل. وفي هذه اللحظة تحديدًا، يحمل أول رسالة حب، على استعداد أن يسلمها. سبق أن سنحت له فرصتان أو ثلاث، بيد أنه دائمًا ما يرجئ تسليم الرسالة. ما أطولها من ليلة! وفي تلك الأثناء، تابع قراءة الطالع بوقار العرافين.

كان كلُّ ما يحيط به يبعث على البهجة. يهمس الحضور،

يضحكون، أو يتبادلون الأحاديث في آن. العمّ «روفينو»، مهرّج العائلة، يحوم حول الطاولة حاملًا ريشة يدغدغ بها آذان الفتيات. في حين يشعر «چواو ڤيجاس» بالقلق لتأخر صديق له، «كاليستو». أين يكون قد ذهب «كاليستو»؟

- إلى الخارج، إلى الخارج، فأنا في حاجة إلى الطاولة. هيَّا بنا إلى حجرة الضيوف.

كانت تلك هي دونا «أديلايدي» التي عادت إلى البيت، وأوشكت أن تعدَّ المائدة لتناول طعام العشاء. هاجر الجميع. في سيرها يُمكن للمرء أن يعاين جيدًا مدى رشاقة ابنة كاتب العدل. تابعها «رانچيل» بعينين واسعتين، عاشقتين. أمَّا هي فتوجهت إلى النافذة، لبضع ثوانٍ، بينما جرى العمل على إعداد إحدى الألعاب الجماعية، فتوجه إلى هناك هو الآخر. كانت تلك هي الفرصة المواتية حتَّى يسلمها الرسالة.

وعلى الجانب المقابل، في بيت ضخم، كان ثمَّة حفل راقص. جعلتْ تتطلع، وهو أيضًا. عبر النوافذ أبصرا أزواج الراقصين يمرّون في تناغم، السيدات يرفلن في الحرائر والدانتيلا، والسادة في ثياب فاخرة أنيقة، وقد ازدانت صدور البعض منهم بالنياشين. بين الفينَة والأخرى، كان وميض الألماس يسطع، سريعًا، خاطفًا، فيما يدور الراقصون. أزواج يتبادلون الأحاديث، شارات عسكرية تتلألأ، جذوع رجال تميل، حركات مراوح اليد، كلُّ هذا على نحو خاطف، عبر النوافذ التي عجزت عن إظهار القاعة كاملةً، بيد أنَّ

الحدس بالبقية كان ممكنًا. كان «رانچيل» على الأقل ملمًّا بكلٍّ هذا، وأخبر ابنة كاتب العدل بكلِّ شيء. أمَّا شيطان العظمة، الذي كان يبدو نائمًا، فقد عاد يمارس ألاعيبه على قلب صاحبنا، وها هو يسعى لغواية قلب الأخرى أيضًا. همس إليها «رانچيل»:

- أعرف شخصًا سيكون بخير حالٍ هناك.

فأجابته «چوانينيا» بسذاجة:

- ذلك الشخص هو أنت.

ابتسم «رانچيل» شاعرًا بالإطراء، ولم يجد ما يقوله. تطلع إلى الخدم والسُوَّاس ببزّاتهم، في الشارع، يتبادلون الأحاديث جماعاتٍ، أو يتكئون على أسقف العربات. شرع يسمِّي أصحاب العرباتِ: هذه العربة لـ«أولينداً»، وتلك لـ«مارانجوابي». ولكن ثمَّة عربة أخرى آتية، تنعطف من ناحية شارع «لاپا»، وتدخل إلى شارع «مانجيراس». توقفت في الجهة المقابلة: يقفز الخادم ليفتح باب العربة، ثمَّ يرفع قبعته وينحني تحيّةً. تبرز من داخل العربة صلعة، ثمَّ رأس، ثمَّ رجل، ثمَّ وسامان، ثمَّ امرأة ترفل في ثياب فاخرة. يدلفان إلى الفناء، ثمَّ يرقيان درجًا مكسوًّا ببساط ومزيَّنًا بمزهريتين ضخمتين وضعتا بالأسفل.

- «چوانينيا»، سيِّد «رانچيل».

اللعنة على تلك اللعبة! في هذه اللحظة تحديدًا كان يصوغ في رأسه إشارة أراد أن يلمِّح بها إلى الزوجين الذين أخذا يرقيان

الدرج، ومن ثمَّ كان يعتزم أن يسلمها الرسالة بتلقائية... امتثل «رانچيل»، وجلس أمام الفتاة. كانت دونا «أديلايدي»، التي تولّت إدارة اللعبة، تجمع الأسماء، وكان ينبغي لكلّ شخص أن يكون صنفًا من صنوف الأزهار. بطبيعة الحال اختار العمّ «روفينو»، المهرج دائمًا، زهرة القَرْع لنفسه. في حين جعل «رانچيل» يفاضل في ذهنه بين الأزهار، رغبةً في تلافي المبتذل منها، وعندما سألته مالكة البيت عن زهرته، أجابها بتروٍّ وعذوبة:

- شبُّ الليل، يا سيدتي.

تنهد كاتب العدل قائلًا:

- أسوأ ما في الأمر أن «كاليستو» ليس هنا!

- هل قال إنه سيحضر بالفعل؟

- أجل. بل وذهب البارحة إلى مكتب العدل، حتَّى يخطرني بوصوله متأخرًا، ولكنه أكَّد على حضوره. كان عليه أن يحضر حفلًا راقصًا في شارع «كاريوكا» أولًا...

ثمَّ صاح صوت في الرواق:

- نطلب الإذن بالدخول لشخصين!

- أخيرًا! ها هو الرجل!

ذهب «چواو ڤيجاس» ليفتح الباب. كان «كاليستو»، برفقة فتى

غريب، قدَّمه إلى الجميع بوجه عام:

- «كيروس»، موظف بمستشفى «سانتا كازا». قريب لا بأس به، وإن كان يشبهني إلى حدٍ كبير. فولة وانقسمت نصفين.

ضحك الجميع. كانت دعابة ألقى بها «كاليستو»، الدميم كالشيطان، في حين كان «كيروس» فتى وسيمًا في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من العمر، له شعر أسود، وعينان سوداوان، وقوام ممشوق على نحو فريد. تراجعت الفتيات قليلًا، في حين أزاحت دونا «فيليسمينا» كَافة الأستار.

قالت له مالكة البيت:

- كنا نلعب، يمكنكما الانضمام إلينا. هل تلعب يا سيد «كيروس»؟

أجابها «كيروس» أن نعم ثمَّ أجال بصره في باقي الحضور. كان يعرف بعضهم، فتبادل معهم كلمتين أو ثلاثًا. قال لـ«چواو ڤيجاس» إن له زمنًا طويلًا وهو يتطلع إلى التعرف به، آخذًا في اعتباره أن والده كان يدين له بمعروف منذ زمن بعيد، مسألة متعلقة بالمحكمة. لم يكُن «چواو ڤيجاس» يذكر شيئًا، ولا حتَّى بعد أن أطلعه على المسألة، ومع ذلك فقد راق له أن يسمع بالخبر على الملأ. أجال بصره في الجميع، وأطرق لبضع دقائق وقد غمره إحساس بالرضا.

انضم «كيروس» إلى اللعبة بكامل قوته. وبمرور نصف

ساعة كان قد ألِف البيت. كان مفعمًا بالحركة، يتحدَّث بطلاقة، بلفتات طبيعية وتلقائية. كان يمتلك مخزونًا هائلًا من العقوبات لإنزالها بالخاسرين في الألعاب، الأمر الذي لاقى إعجابًا كبيرًا من جانب الحضور جميعًا، وما كان أحدٌ ليدير اللاعبين أفضل منه، بكلِّ ما له من حركة ونشاط. كان يتنقل من جانب إلى آخر، ينظِّم المجموعات، يدفع المقاعد، يتحدَّث إلى الفتيات وكأنه كان يلعب معهن منذ الطفولة.

- دونا «چوانينيا» هنا، على هذا المقعد، ودونا «سيزاريا» إلى هذا الجانب، على قدميها، أمَّا السيد «كاميلو» فيدخل عبر ذلك الباب... هكذا... كلَّا. انظر، هكذا، بطريقة...

جلس «رانچيل» متخشبًا على مقعده، مذهولًا. من أين جاء ذلك الإعصار؟ وفيما يهبُّ الإعصار، يطيح بقبعات الرجال، وينثر شعور الفتيات اللائي رحن يضحكن في جزل: «كيروس» راح، «كيروس» جاء، «كيروس» في كلِّ المكان. انتقل «رانچيل» من الذهول إلى الأسى. أوشك الصولجان على السقوط من بين يديه. لم ينظر إلى الآخر، ولا ضحك على ما يقول، بل وكان يجيبه بجفاء. في دخيلة نفسه كان يتألَّم ويلعن الآخر، يلقبه بالأبله الفرح الذي يضحك ويبعث على السرور، لأن كلَّ شيء عيد في ليالي العيد. ولكن بينما يندم على تلك الأمور، بل وأسوأ منها، لم يتسنَّ له أن يستعيد حرية الروح. كان يتألَّم بحقّ، في أعمق أعماق حبِّه لذاته، والأسوأ من ذلك أن الآخر أدرك كلَّ ما يعتمل في نفسه من

كدر، والأسوأ على الإطلاق إدراكه أن الآخر قد أدرك ما به.

كان «رانچيل»، مثلما يحلم بالخيرات، يحلم بالثأر أيضًا. في ذهنه مزَّق «كيروس» إربًا. ثمَّ فكر في احتمال أن تأخذ ذلك الدخيل أيَّة كارثة، يكفي أن ينتابه بعض الألم، على أن يكون شديدًا. إلَّا أنه لم يشعر بأيِّ ألم، لا شيء. بل وبدا الشيطان وكأن مرحه في ازدياد، والقاعة بأكملها مفتونة به. وحتَّى «چوانينيا»، بالغة الخجل، كانت تنبض بالحياة بين يدي «كيروس»، شأن باقي الفتيات. بدا الكلُّ، رجالًا ونساءً، وكأنهم يسعون جاهدين لخدمته. ما كاد يذكر الرقص حتَّى ذهبت الفتيات إلى العمّ «روفينو»، يطلبن منه أن يعزف رباعية على الناي، واحدة فقط، ولن يطلبن منه المزيد.

- لا أستطيع، الكالّو يؤلمني.

فبادر «كاليستو» صائحًا:

- ناي؟ أُطلُبْنَ من «كيروس» أن يعزف لنا شيئًا، وسوف ترين ماذا يعني الناي... أحضر الناي يا «روفينو». اسمعن «كيروس». ليس لَكُنَّ أن تتخيلن مدى الحنين الذي يثيره في النفوس حين يعزف على الناي.

عزف «كيروس» مقطوعة «كاستا ديڤا». راح يقول «رانچيل» بينه وبين نفسه:

- يا للسخافة! حتَّى الأطفال يصفرون هذا اللحن في الشارع.

أخذ يرمقه بطرف عينه، ليتحقق مما إذا كان ذلك مسلك رجل جاد، وخلص إلى أن الناي آلة موسيقية بشعة. كما أخذ ينظر إلى «چوانينيا»، ليرى أنها شأن الآخرين جميعًا قد أولت «كيروس» انتباهها، مستغرقة، متيمة بأنغام الموسيقى. وسرت في جسده قشعريرة من دون أن يدرك لذلك سببًا. بدت على وجوه الآخرين الأمارات نفسها التي بدت على وجه «چوانينيا»، فشعر «رانچيل» بشيء ضاعف من مقته للدخيل. عندما انتهى العزف على الناي، صفقت «چوانينيا» بقدر أقل من الآخرين، فساورت «رانچيل» الشكوك في الدافع وراء ذلك، سواء أكان خجلها المعهود، أم هو اضطراب استثنائي... أصبح تسليم الرسالة أمرًا ملحًّا.

حان وقت العشاء. دلف الجميع إلى القاعة في ارتباك، ولحسن حظّ «رانچيل»، اتفق له الجلوس أمام «چوانينيا»، التي كانت عيناها أجمل من أيّ وقت مضى، شاردتين إلى درجة ما عادتا معها تبدوان عينيها المألوفتين. تذوقهما «رانچيل» مطرقًا، واستعاد حلمه كاملًا بعد أن بدَّده الشيطان المدعو «كيروس» بنقرة من طرف إصبعه. وهكذا عاد يرى نفسه إلى جوارها، في البيت المزمع استئجاره، عشّ الزوجين الذي زيَّنه بذهب من وحي الخيال. بل وبلغ به الأمر إلى أن ربح جائزة اليانصيب وأنفق قيمتها بالكامل على الحرائر والمجوهرات من أجل زوجته، «چوانينيا» الجميلة، «چوانينيا رانچيل»، دونا «چوانينيا رانچيل»، دونا «چوانا ڤيجاس رانچيل»، أو «چوانا كانديدا ڤيجاس رانچيل»... لا يمكنه حذف «كانديدا».

- هيَّا، أهدِنا نخبًا أيها الدبلوماسي... أهدِنا نخبًا من تلك الأنخاب.

فأفاق «رانچيل»، في حين راح الجالسون حول المائدة جميعًا يرددون ما قاله العم «روفينو»، وحتَّى «چوانينيا» بنفسها طلبت منه نخبًا على غرار العام الفائت. أجاب «رانچيل» بأنه سوف يمتثل لرغبتهم، حالما ينتهي من جناح الدجاجة ذلك. حركة، همسات ثناء، إحدى الفتيات تقول لدونا «أديلايدي» إنها لم تسمع «رانچيل» يلقي كلمة قط. فسألتها في ذهول:

- حقًّا؟ ليس لكِ أن تتخيلي، إنه متحدِّث بارع، حديثه جليّ، كلماته مُختارة بعناية، وأسلوبه حسن.

وبينما هو يتناول طعامه، راح يستعيد بعض الذكريات، ومِزَق الأفكار، يستعين بها على صياغة العبارات والمجازات. انتهى ثمَّ هبَّ واقفًا على قدميه. بدا بمظهر المختال، الراضي عن نفسه. وأخيرًا، جاءوا يدقُّون بابه. انقطعت خيوط النوادر، والنكات التي بلا روح، وجاءوا يَنشُدون سماع أمور صائبة ورصينة. تلفت حوله ليرى الجميع وقد رفعوا أبصارهم يترقبون. بل ليس جميعهم، فقد زاغت عينا «چوانينيا» صوب «كيروس»، لتجدا عيني الأخير في انتظارهما بمنتصف الطريق، في موكب حافل بالوعود. شحب وجه «رانچيل». ماتت الكلمة في حلقه، بيد أن الحاجة كانت تقتضي أن يتحدَّث، فهم في انتظاره، بمودَّة، وفي صمت.

امتثل على مضض. لم يكُن بأكثر من نخب في صحَّة مالك البيت وابنته، التي دعاها خاطرة إلهية، أرسلت من الأبدية إلى أرض الواقع، وهي العبارة التي سبق له استخدامها قبل ثلاثة أعوام، ولا بد أنهم قد نسوها بالفعل. كما تحدَّث عن قدسية العائلة، عن هيكل الصداقة، عن العرفان بالجميل، الذي يُعدُّ بمثابة زهرة القلوب النقيّة. وكلما خلت العبارات من المعنى، كانت أكثر بهرجة وتنميقًا. وفي المجمل، كان هذا النخب ليستغرق عشر دقائق على الأقلّ، إلّا أنه عجَّل بإلقائه في خمس دقائق، ثمَّ جلس.

ولم ينتهِ الأمر هنا. إذ قام «كيروس» على الفور، بعد دقيقتين أو ثلاث، لإلقاء نخب آخر. فخيَّم على المكان صمتٌ أشدّ من ذي قبل، وعلى نحوٍ أسرع.

خفضت «چوانينيا» بصرها، خَجِلة مما سوف يقول، في حين سَرَت في جسد «رانچيل» قشعريرة. قال «كيروس»:

- لقد شرب السيد «كيروس»، صديق هذا البيت المرموق، نخب شخصين نحتفل اليوم بعيد القديس الذي لُقِّبا تيمنًا به، أمَّا أنا فأشرب نخب تلك التي هي قديسة كلّ يوم، دونا «أديلايدي».

قوبلت تحيته بتصفيق حارّ، في حين تلقَّت دونا «أديلايدي» التهاني من كلّ المدعوين، شاعرةً بالإطراء. لم تكتفِ ابنتها بالتهاني. بل صاحت وهي تقوم من جلستها: «أمّي! أمّي!» ثمَّ ذهبت لتعانقها وتقبلها ثلاث مرَّات أو أربعًا. وذلك ضربٌ من

ضروب الرسائل الموجهة إلى شخصين.

انتقل «رانچيل» من الغضب إلى الإحباط، وبانتهاء العشاء، فكَّر في الذهاب. بيد أن الأمل، ذلك الشيطان ذا العينين الخضراوين، طلب إليه أن يبقى، فبقي. ومن يدري؟ كانت كلُّها أمورًا عابرة، وليدة اللحظة، حبّ وليد عشيّة عيد القديس «چواو». ففي نهاية المطاف، كان من أصدقاء البيت، ويحظى بتقدير العائلة، يكفي أن يتقدَّم بطلب يد الفتاة حتَّى يفوز بها. وفضلًا عن ذلك، ربما كان ذلك المدعو «كيروس» يفتقر إلى سبل الزواج. فماذا يعمل في مستشفى «سانتا كازا»؟ ربما في وظيفة تافهة. وفيما هو على تلك الحال، رمق ثياب «كيروس» بطرف عينه، تسلل إلى ثناياها خلسةً، تفحَّص تطريز قميصه، وسرواله عند موضع الركبتين، كي يتحقَّق مما إذا كان باليًا، وحذاءه، ثمَّ خلص إلى كونه شابًّا كثير التأنُّق، ولكن الأرجح أنه كان ينفق كلَّ ما يملك على نفسه، والزواج أمر جادّ. أضف إلى ذلك أن أمَّه ربما كانت أرملة، وربما كانت له أخوات لم يتزوجن بعد... في حين كان «رانچيل» وحيدًا.

- يا عمّ «روفينو»، اعزف لنا رباعية.

- لا أستطيع. الناي بعد الطعام يسبب عسر الهضم. هيَّا نلعب «لوتو».

فقال «رانچيل» إنه لا يستطيع أن يلعب، بسبب الصداع الذي انتابه. إلَّا أن «چوانينيا» جاءت تطلب منه أن يلعب بالشراكة معها.

قالت له باسمةً:

- النصف لك، والنصف لي.

فابتسم بدوره وأبدى موافقته. جلسا جنبًا إلى جنب. كانت «چوانينيا» تتحدَّث إليه، تضحك، ترفع إليه عينيها الجميلتين، لا تهدأ، تتلفَّت حولها كثيرًا، إلى كلِّ صوب. شعر «رانچيل» بتحسُّن، وما لبث أن شعر أنه بخير كليةً. أخذ يختار الأرقام كيفما اتفق، ناسيًا بعض الأرقام، التي كانت تشير إليها بطرف إصبعها. فكان يقول بينه وبين نفسه: «إصبع حورية». وأصبح يُخفق عن عمد، حتَّى يرى إصبع الفتاة، ويسمع صوتها وهي تؤنبه:

- أنت كثير النسيان. لاحظ أننا سوف نخسر نقودنا بهذه الطريقة.

خطر لـ«رانچيل» أن يمرِّر لها الرسالة من أسفل الطاولة. ولكن بالأخذ في الاعتبار أنه لم يصارحها بشيء، كان من الطبيعي أن تجزع عند تلقي الرسالة، وأن يفسد الأمر برمته؛ ولذا وجب تنبيهها. أجال بصره في الجالسين حول الطاولة: مالت الوجوه جميعًا فوق أوراق اللعب، تتابع الأرقام بانتباه. عندئذ مال إلى اليمين، خفض بصره إلى أوراق لعب «چوانينيا» وكأنه يتحقَّق من شيء ما. همس إليها:

- لديكِ الآن مجموعتان من الأوراق.

- كلا، بل ثلاث مجموعات.

- ثلاث، هذا صحيح، ثلاث. اسمعي...

- وماذا عنك؟

- مجموعتان.

- مجموعتان كيف؟ بل أربع.

بالفعل كانت لديه أربع مجموعات. أشارت إليها وهي تميل ناحيته، تكاد تمسُّ شفتيه بأذنها. ثمَّ تفرست في وجهه وهي تضحك وتهزُّ رأسها:

- يا سنيور! يا سنيور!

أنصت «رانچيل» إلى ما قالت بنشوة لا مثيل لا. كان صوتها من العذوبة، وتعابير وجهها من المودة، بحيث نسي كلَّ شيء، وأحاط خصرها بيده، واندمجا معًا في ڤالس «الكِمير» الأبدي. البيت، الطاولة، المدعوون، تلاشى الجميع، كما لو كان عبثًا من صنع الخيال، ليبقى الواقع الوحيد لا أكثر، هو وهي يدوران في الفضاء، وفوقهما مليون نجمة أضيئت كي تنير لهما الطريق.

لا رسالة، ولا شيء. قبيل مطلع الفجر، ذهبوا جميعًا إلى النافذة لمشاهدة المدعوين إلى الحفل الراقص بالجهة المقابلة في أثناء خروجهم. تراجع «رانچيل» مصعوقًا، إذ رأى أصابع «كيروس» و«چوانينيا» الجميلة تتشابك. أراد أن يلتمس لذلك مبررًا، مجرَّد خيالات تراءت له، ولكنه ما كاد يبدِّد أحدها حتَّى راحت تنهال

خيالات أخرى ثمَّ أخرى، على طريقة الأمواج التي لا تنتهي أبدًا. كان من العسير عليه أن يفهم كيف تكفي ليلة واحدة، بضع ساعات، للتأليف بين مخلوقين على هذا النحو. بيد أن تلك كانت هي الحقيقة المفعمة بالحياة، الجليَّة في مسلك كلٍّ منهما، في العيون، في الكلمات، في الضحكات، بل حتَّى في الشوق الذي أبدياه عند الوداع فجرًا.

خرج من هناك ذاهلًا. ليلة واحدة فحسب، بالكاد بضع ساعات! وفي بيته، حيث وصل في وقتٍ متأخر، استلقى على الفراش، لا لكي يخلدِ إلى النوم، بل لينخرط في النحيب. خلا بنفسه، فانطفأ جهاز التكلُّف الخاص به، ولم يعُد الدبلوماسي، بل الملتاع الذي يتقلَّب في فراشه، يصرخ، ينتحب كما لو كان طفلًا، شقيًّا بحقّ، من أجل ذلك الحبِّ الخريفيّ التعيس. بات المسكين مزيجًا من هذيان وخمول وتكلُّف، كان في بؤس عطيل، بل ولقي نهايةً أشدّ قسوة.

ففي حين قتل عطيل ديدمونة، شهد صاحبنا العاشق، الذي لم يتوقَّع أحدٌ قط ما يضمره من شغف مستتر، على عقد قران «كيروس»، حين تزوَّج من «چوانينيا» بعد ستة أشهر.

لا الأحداث ولا الأعوام بدَّلت من طباعه. وحين اندلعت حرب باراجواي، كثيرًا ما خطر له أن يلتحق بالجيش كضابط متطوع، وهو ما لم يُقدم عليه قط. وعلى الرغم من ذلك، فقد انتصر في بعض المعارك، ونُصِّب قائد لواء في نهاية المطاف.

II

ماريانا

الفصل الأول

- تُرى، ماذا كان من أمر «ماريانا»؟

تساءل «إيڤاريستو»، بمفرق «كاريوكا»، فيما يودِّع صديقًا قديمًا، ذكَّره بتلك الصديقة القديمة.

كان ذلك عام 1890. وكان «إيڤاريستو» قد عاد من أوروبا، قبل أيام، بعد غياب دام ثمانية عشر عامًا. كان قد رحل عن «ريو دي چانيرو» في عام 1872، على أن يبقى هناك حتَّى عام 1874 أو 1875، بعد زيارة بعض المدن الشهيرة أو المثيرة للفضول، ولكن المسافر يريد، ولا يكون إلا ما باريس تريد. دخل «إيڤاريستو» إلى ذلك العالم عام 1873، ثمَّ سمح لنفسه بالبقاء أطول من الوقت المُحدَّد. أرجأ السفر عامًا، ثمَّ آخر، وفي النهاية لم يعُد يفكر في العودة. فقدَ اهتمامه بأمورنا، بل لم يعُد يقرأ الصحف الصادرة هنا مؤخرًا. كان قد فقد اهتمامه بأمورنا، ولم يعُد حتَّى يقرأ صحفنا مؤخرًا، بل كان طالب فقير من باهيا يقصده لاقتراض

النقود ويطلعه على بعض الأخبار الجديرة بالاهتمام الواردة بها. وفجأةً، في نوفمبر من عام 1889، يدخل إلى بيته مراسل باريسي، ويتحدَّث إليه عن الثورة في «ريو دي چانيرو»، ويطلب منه بعض المعلومات حول الشأن السياسي والاجتماعي، وحول سيرته الذاتية. فكَّر «إيڤاريستو» ثمَّ قال للمراسل:

- سيدي العزيز، أعتقد أنه حريٌّ بي أن أذهب بنفسي لجمع تلك المعلومات.

وبالأخذ في الاعتبار أنه لم يكُن ينتمي لأي حزب، ولم تكُن له آراء سياسية، ولا أقرباء ولا مصالح في «ريو دي چانيرو» (كان كلُّ ما يملك في أوروبا)، يُعدُّ مجرَّد الفضول مبررًا واهيًا لقرار «إيڤاريستو» المفاجئ، ومع ذلك فلم يكُن ثمَّة دافع سواه. أراد أن يرى الجانب الجديد للأمور. سأل عن موعد العرض الأول لأحد الأعمال الكوميدية التي يقدِّمها صديق له على مسرح «الأوديون». ووفقًا لحساباته، وجد أنه من الممكن الوصول في الوقت المناسب لشراء تذكرة وحضور العرض المسرحي في حال ذهب على متن أوّل سفينة وعاد على متن ثالث سفينة. أعدّ حقائبه ثمَّ هرول إلى «بوردِوْس»، وصعد إلى متن السفينة. والآن راح يردِّد، فيما يسير عبر شارع «أسيمبليا»:

- تُرى، ماذا كان من أمر «ماريانا»؟ ربما توفيتْ... وإن كانت حيَّة لم تزَل، فلا بد أنها صارت أخرى. لعلها في الخامسة والأربعين... أوه! بل الثامنة والأربعين. كانت تصغرني بقرابة

خمسة أعوام. ثمانية وأربعين... امرأة جميلة، امرأة عظيمة! حبٌّ جميل وعظيم!

شعر برغبة في رؤيتها. سأل في سِريَّة، وعرف أنها تعيش وتسكن في البيت نفسه حيث تركها، بشارع «إنچنيو ڤيليو»، إلا أنها لم تظهر منذ بضعة أشهر، بسبب مرض الزوج، الذي يبدو أنه على مشارف الموت. قال «إيڤاريستو» لأحد معارفه، كان هو من يزوِّده بتلك المعلومات:

- لا بد أنها هرِمت هي الأخرى.

- كلّا يا رجل. ففي آخر مرَّة رأيتها، وجدتها محتفظة بنضارتها. لا يبدو أنها تتخطى الأربعين عامًا. أتريد أن تعرف أمرًا؟ ثمَّة أشجار ورود بديعة الجمال هناك، وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن شجرات الأرز التي عرفناها ما بين 1860 و1865، لم تعُد تنبت.

فأجابه «إيڤاريستو»:

- بل تنبت. أنت الذي لا تراها، لأنك ما عدت تذهب إلى لبنان.

زادت رغبته في رؤية «ماريانا». بأيَّة صورة سيرى كلٌّ منهما الآخر؟ أيَّة رؤى من الماضي سوف تُبدِّل الواقع الحاضر؟ ومن الجدير بالعلم أن رحلة «إيڤاريستو» لم تكُن ترفيهية، بل علاجية. الآن وقد اتَّخذ قانون الزمن مجراه، أيُّ أثر سوف يُحدثه فيهما عند اللقاء شبحُ عام 1872، عام الفراق الحزين الذي كاد يذهب بعقله، ويودي بحياتها؟

الفصل الثاني

بعد أيام، ترجَّل عن عربة عند باب «ماريانا»، وأعطى بطاقةً للخادم الذي فتح له باب الصالون.

وفي أثناء انتظاره، أجال عينيه في المكان، مما أثار دهشته. فقد وجد الأثاث كما هو، لم يتغيَّر منذ ثمانية عشر عامًا. أمَّا ذاكرته، العاجزة عن استرجاع قطع الأثاث في الغياب، فقد تعرَّفت عليها جميعًا، وعلى مواضعها التي لم تتغيَّر. بدَت بالية. وحتَّى الأزهار الصناعية الموضوعة في مزهرية ضخمة فوق الخوان، قد حالَ لونُها بفعل الزمن. صار كلُّ شيء كومة من العظام المتناثرة، يمكن للمخيلة تجبيرها لتصنع بذلك جسدًا لا ينقصه سوى الروح.

بيد أن الروح لم يكُن ينقصه. فعلى الحائط، فوق الأريكة، عُلق بورتريه لـ«ماريانا». كانت في الخامسة والعشرين من العمر حين رُسم ذلك البورتريه، حيث يبدو التباين بين الإطلالة الضاحكة النضرة وبين الإطار الذي لم يُذَهَّب سوى مرَّة واحدة فحسب، وتقشَّر طلاؤه عند بضعة مواضع. لم يكن الزمن قد جارَ على الجمال. أطلَّت «ماريانا» من البورتريه، في آخر صيحة من ثياب 1865، بعينيها الجميلتين، المستديرتين، والعاشقتين. كان ذلك هو الرمق الوحيد من الحياة في الصالون، ولكنه كافٍ لإضفاء جوٍّ

من الشباب الخاطف على شيخوخة المكان. عظيمًا كان انفعال «إيڤاريستو». كان ثمَّة مقعد في الجهة المقابلة للبورتريه، وهناك جلس، حيث ظلَّ يتطلع إلى فتاة من زمن آخر. كما شخصت العينان المرسومتان بدورهما إلى العينين الحقيقيتين، ربما في دهشة من اللقاء والتغير، إذ كانت العينان الحقيقيتان تفتقران إلى دفء وطلاوة العينين المرسومتين. إلّا أن الاختلاف لم يدُم إلّا قليلًا، فما لبثت حياة الرجل السابقة أن ردَّت له تلك الخضرة الخارجية، وغرق كلٌّ زوجٍ من العيون في الآخر، وغرقت كلها في خطايا الماضي العتيقة.

وبعد ذلك نزلت «ماريانا» ببطء عن اللوحة والإطار، جاءت لتجلس أمام «إيڤاريستو»، مالت بجسدها، مدَّت ذراعيها فوق الركبتين، ثمَّ بسطت راحتيها. ناولها «إيڤاريستو» راحتيه، وتلاقت الأكفُّ الأربع بحرارة. لم يسأل أحدهما الآخر عن شيء يمتُّ للماضي بصلة؛ لأن الماضي لم يكُن بعد. أصبح كلاهما في الحاضر، وتوقَّفت الساعات، وهي من الآنيَّة والثبات بحيث بدت وكأنها قد تدرَّبت على هذا العرض الوحيد واللانهائي عشية اليوم السابق. هشَّمت ساعات المدينة والعالم أجمع تروسَها في الخفاء، وبدَّل كلُّ صُنَّاع الساعات مهنتهم. وداعًا، يا بحيرة «الامارتين» العتيقة! فقد ألقى «إيڤاريستو» و«ماريانا» بمرساتهما في محيط الزمن، حيث انساب أعذب ما نطقت به شفاه الرجال أو النساء من كلمات يومًا، بل وأكثرها توهُّجًا، والكلمات الخرساء، والباعثة على الجنون، والمحتضرة، وكلمات الغيرة، والغفران...

- هل أنت بخير؟

- أنا بخير، وماذا عنك؟

- كم كنت أتحرَّق شوقًا إليك. لي ساعة وأنا في انتظارك، في لهفة، أكاد أبكي. ولكني كما ترى بوضوح، باسمة ومبتهجة، كلّ هذا لأن خير الرجال قد دخل إلى هذا الصالون. لماذا تأخرت كلّ هذا الوقت؟

- تعطَّلت مرتين وأنا في طريقي، وكانت المرَّة الثانية أعظم كثيرًا من الأولى.

- لو أنك تحبني بحقّ، لأنفقت في ذلك دقيقتين، ولوصلت إلى هنا قبل ساعة إلا ربعًا. أيُّ سخف هذا؟

- زوجك هو من عطَّلني في المرَّة الثانية.

سرت في جسد «ماريانا» اختلاجة. وتابع «إيڤاريستو» حديثه:

- كان ذلك في مكان قريب من هنا. تحدَّثنا عنكِ، هو من بدأ الحديث. لا أعرف ما كانت المناسبة. ذكَركِ بالخير، بل وبما يشبه الرقَّة. وذهبت إلى الاعتقاد بأنه شَرَك، وسيلة لنيل ثقتي. في النهاية ودَّع كلٌّ منا الآخر، إلَّا أنني بقيت هناك أختلس النظر، لعله يعود أدراجه. لم أرَ أحدًا. إليك السبب في تأخيري، والسبب في شقائي أيضًا.

فقاطعته «ماريانا» باسمةً، كما في اللوحة، منذ قليل:

- لا تعُد ثانيةً إلى الارتياب الأبدي. ماذا تريد مني أن أفعل؟ «شافير» زوجي، لن أطرده، أو أنزل به العقاب، أو أرديه قتيلًا، لمجرَّد أنني أعشقك وأنك تعشقني.

- لست أقول أن ترديه قتيلًا، ولكنك تحبينه يا «ماريانا».

فأجابته:

- أحبُّك، ولا أحد سواك.

وبذلك تجنَّبت الإجابة بصيغة النفي، إذ ارتأت أنها أقسى مما ينبغي.

وهو ما فكَّر فيه «إيڤاريستو» بدوره، إلَّا أنه لم يقبل برهافة إجابتها غير المباشرة. ما كان ليرضيه سوى النفي الفظّ والبسيط. فألحَّ قائلًا:

- أنتِ تحبينه.

تفكَّرت «ماريانا» هنيهة، ثمَّ سألت:

- لماذا تصرُّ على أن تهيِّج روحي وماضيَّ؟ لقد بدأ العالم بالنسبة لنا منذ أربعة أشهر، ولن ينتهي أبدًا، أو سينتهي حين تضجر منِّي، لأنني لن أتبدَّل أبدًا.

جثا «إيڤاريستو» على ركبتيه، جذب ذراعيها، قبَّل يديها، ووضع بينهما وجهه. في النهاية ترك رأسه يسكن فوق ركبتي «ماريانا».

وظلَّا على تلك الحال بضع لحظات، حتَّى شعرت بأصابعها رطبة، رفعت رأسه لترى عينيه تنضحان بالدموع.

- ما الخطب؟

فأجابها:

- لا شيء. وداعًا.

- ولكن، ماذا جرى؟

فكرَّر «إيڤاريستو»:

- أنتِ تحبينه، وهذه الفكرة تروِّعني، وفي الوقت ذاته تؤلمني، لأنني على استعداد أن أقتله في حال تأكدت من كونكِ ما زلتِ تحبينه.

بعد أن جفَّفت «ماريانا» عيني «إيڤاريستو» بخصلات شعرها الذي حلَّته على عجل، لتجفِّف عينيه بخير مناديل العالم، أجابته قائلة:

- أنت رجل بلا مثيل. هل أحبُّه؟ كلَّا، لم أعُد أحبُّه، إليك جوابي. والآن عليك أن تسمح لي بأن أخبرك بكلِّ شيء، لأن طبيعتي لا تقرُّ بأنصاف الأسرار.

هذه المرَّة سرت الاختلاجة في جسد «إيڤاريستو». إلّا أن الفضول راح يأكل قلبه، على نحوٍ لم يعُد معه ثمَّة خوف، بل

ترقُّب وإنصات. متكئًا على ركبتيها أصغى إلى قصَّتها، التي كانت قصيرة. حكت له «ماريانا» عن زواجها، عن معارضة أبيها، عن ألم أمها، عن مثابرتها هي و«شاڤيير». انتظرا طيلة عشرة أشهر، في صمود، وإن كانت هي أقلَّ منه صبرًا؛ لأن الشغف الذي اجتاحها كان يمتلك من القوة كلَّ ما يلزم لاتخاذ القرارات العنيفة. كم سكبت من الدموع من أجله! كم من اللعنات صبَّ قلبها على والديها، وإن كبحتها مخافة الرب، ولم تُرد أن تحكم عليها تلك الكلمات، وكأنها الأسلحة التي قتلت بها والديها، بفراق الرجل الذي تحبُّه إلى الأبد، وذلك أشدُّ من الجحيم. انتصرت المثابرة، وجرَّد الزمن أبويها من أسلحتهما، وعُقد الزواج بعد مرور سبعة أعوام. استمر شغف الزوجين خلال الحياة الزوجية. وحين جلب الزمن السكينة، جلب التقدير أيضًا. كان قلباهما في تناغم، وذكريات كفاحهما لاذعة وعذبة. وجاءت السعادة الهادئة لتجلس عند بابهما، مثلها كمثل الخفير. ولكن سرعان ما رحل الخفير. لم يرحل تاركًا خلفه البؤس، ولا حتَّى الضجر، بل اللامبالاة، هيئةً شاحبة، بلا حراك، بالكاد تبتسم، ولا تذكر أيَّ شيء. وفي تلك اللحظة تراءى «إيڤاريستو» لعينيها وخطفها. لم يخطفها من حبٍّ آخر، ولكن لهذا تحديدًا لم يكُن ذلك يمتُّ بأيَّة صلة للماضي الذي كان يغلفه الغموض وربما أفضى إلى الندم...

فقاطعها سائلًا:

- الندم؟

- لكَ أن تفترض أنني شعرت بذلك، إلَّا أنني لم ولن أفعل ما حييت.

فقال لها «إيڤاريستو» بعد بضع لحظات:

- أشكركِ! أشكركِ على هذا الاعتراف. لن أعود للحديث في هذا الشأن. أنتِ لا تحبينه، وهذا ما يهمُّ. ما أجملك وأنتِ تقسمين كما أقسمتِ، وتتحدَّثين عن مستقبلنا! أجل، قُضي الأمر. وأنا الآن هنا، فأحبيني!

- أحبُّك أنت وحدك، يا عزيزي.

- أنا وحدي؟ أقسمي مرَّة أخرى!

فأجابت وهي تطبع قبلة على عينيه:

- أقسم بهاتين العينين.

وتابعت فيما تطبع قبلةً على شفتيه:

- وبهاتين الشفتين. وبحياتي، وبحياتك!

ردَّد «إيڤاريستو» القسم نفسه، بمراسم مماثلة. ثمَّ جلس أمام «ماريانا» كما في بادئ الأمر. فهبَّت واقفة على قدميها، وذهبت لتجثو عند قدميه، واضعةً ذراعيها على ركبتيه. أحاطت خصلات شعرها المتناثرة بوجهها على نحو مثاليّ، إلى حدٍّ أسِفَ معه لعدم كونه نابغة حتَّى ينسخها ويورِّثها للعالم. قال لها ذلك، بيد

أن الشابة لم تحِرُ جوابًا. شَخَصَتْ إليه بعينين متوسلتين. مال «إيڤاريستو» ناحيتها، محدِّقًا فيها، وهكذا بقيا، الوجه في الوجه، ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات، حتَّى جاء أحدهم كي يوقظهما:

- تفضَّل بالدخول.

الفصل الثالث

فزع «إيڤاريستو». وجد أمامه رجلًا، الخادم نفسه الذي تلقَّى منه بطاقة الزيارة. هبَّ واقفًا على عجل، في حين عادت «ماريانا» إلى اللوحة المعلقة على الحائط، حيث رآها مرَّةً أخرى في آخر صيحة من ثياب 1865، شعرها مصفَّف وهادئة. كما في الأحلام، كانت تلك الخواطر واللفتات والأفعال تُقدَّر بزمن غير الزمن، فدار كلُّ ذلك في خمس أو ست دقائق، وهو الوقت الذي استغرقه الخادم في تسليم البطاقة والرجوع بالدعوة. والحق أن «إيڤاريستو» كان يشعر بالأثر الذي تركته لمسات الشابة لم يزَل. في تلك الأثناء كان قد عاش ما بين عامي 1869 و1872؛ لأن الساعات الثلاث التي استغرقتها الرؤية كانت تنازلًا إلى الزمن. عادت القصَّة برمتها مع الغيرة التي شعر بها «إيڤاريستو» من «شاڤيير» وما أبداه من سماح والمشاعر الرقيقة المتبادلة بينه وبين «ماريانا». لم تنقص الرؤية سوى الأزمة الأخيرة، عندما حالت أمُّ «ماريانا» بينهما وفرَّقتهما بشجاعة، عارفةً بكلِّ ما يجري. فقررت «ماريانا» أن تموت، وبلغ بها الأمر إلى أن تناولت السمّ، مما اقتضى أن تسعى الأمُّ باستماتة كي تردَّ لها الحياة. أمَّا «شاڤيير» الذي كان في إقليم «ريو» آنذاك، فلم يعرف من وقائع تلك التراجيديا أكثر من أن زوجته أفلتت من الموت، بعد أن كاد خلطٌ بين العقاقير الطبيّة يودي بحياتها. أراد

«إيڤاريستو» أن يراها مرَّة أخرى قبل الرحيل على متن السفينة، إلَّا أن ذلك كان في عداد المستحيل.

عندئذٍ قال للخادم الذي كان في انتظاره:

- هيَّا بنا.

كان «شافيير» في مكتب قريب، مستلقيًا على أريكة، وقد جلس كلٌّ من زوجته وبعض الزائرين إلى جواره. دلف «إيڤاريستو» إلى المكان تغمره مشاعر جياشة. كان الضوء خافتًا والصمت مطبقًا. تشبَّثت «ماريانا» بإحدى يدي المريض، فيما تراقبه خشية أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أو يمرَّ بأزمة صحية. بالكاد استطاعت أن ترفع عينيها إلى «إيڤاريستو» أو تمدَّ له يدها. ثمَّ شَخَصَتْ مرَّة أخرى إلى زوجها، الذي ظهرت على وجهه آثار معاناة طويلة الأمد، وبدت أنفاسه وكأنها مُقدِّمة للأوبرا العظيمة اللامتناهية. أمَّا «إيڤاريستو» الذي لمح بالكاد وجه «ماريانا»، فقد انزوى في أحد الأركان، لا يجرؤ على النظر إلى هيئتها أو متابعة حركاتها. وصل الطبيب، ثمَّ فحص المريض وأوصى بالاستمرار في تناول العلاج الذي وُصف له بالفعل، ثمَّ غادر على أن يعود ليلًا. رافقته «ماريانا» إلى الباب، بينما تسأله بصوت خفيض، وتحاول أن تقرأ في وجهه الحقيقة التي أبَى فمه أن يبوح بها. وفي هذه اللحظة عاينها «إيڤاريستو» جيدًا، بدا له أن الألم قد أوهنها بأكثر مما فعلت السنون. تعرَّف على المعالم المميزة لجسدها. لم تكُن هذه قد خرجت من اللوحة، على عكس «ماريانا» الأخرى، بل خرجت من الزمن.

وقبل أن تعود إلى فراش زوجها، أدرك «إيڤاريستو» أنه يجدر به الذهاب هو الآخر، فتوجَّه إلى الباب.

- أطلب الإذن بالذهاب... من دواعي أسفي ألَّا أتمكن من الحديث إلى زوجك الآن.

- هذا غير ممكن الآن، فالطبيب يوصي بالراحة والهدوء. في فرصة أخرى.

- لم آتِ من قبل لزيارته لأنني لم أعرف بمرضه سوى منذ زمنٍ يسير... فضلًا عن ذلك فقد وصلت لتوّي.

- أشكرك.

مدَّ لها «إيڤاريستو» يده ثمَّ خرج بخطوات مكتومة، في حين عادت إلى جلستها بجوار المريض. لا عينا «ماريانا» ولا يداها أفصحتا عن أيِّ انطباع فيما يتصل به، وجاء وداعهما كما لو كانا شخصين لا يأبه أحدهما بالآخر. صحيحٌ أن الحبَّ قد انتهى، وبَعُد الأمَد، وهرِم القلب مع مضيِّ الزمن، وأوشك المريض على لفظ أنفاسه الأخيرة. على الرغم من ذلك فقد راح يتأمَّل، بمَ يُفسِّر وقوف «ماريانا» بعد ثمانية عشر عامًا من الفراق أمامه، وهو رجل له دور بالغ الأهمية في حياتها، من دون أن تبدي أدنى أمارات الانفعال، أو الدهشة، أو حتَّى كبح المشاعر؟ كان ذلك سرًّا غامضًا. أطلق عليه سرًّا. وحتَّى في تلك اللحظة، عند الوداع، شعر بتوتر، بشيء وقف عثرة في سبيل كلماته، وبدَّد أفكاره، بل

حتَّى عبارات المواساة والأمل المبتذلة. أمَّا هي فلم تتلقَّ منه أدنى انفعال. وفيما هو يتذكَّر البورتريه المعلق في الصالون، خلص «إيڤاريستو» إلى أن الفن أسمى من الطبيعة، إذ حفظت اللوحة كلًّا من الجسد والروح... دار كل ذلك في خلده، مُخضَّبًا بإحساس مرير بالاستياء.

بقي «شاڤيير» على قيد الحياة أسبوعًا آخر. وفي الزيارة الثانية شهد «إيڤاريستو» وفاة المريض، ولم يتسنَّ له التملص من المشاعر الجياشة، وليدة اللحظة والمكان والظروف. ظلَّت «ماريانا» إلى جوار الفراش، شعثاء الشعر، وقد أودى السهر والبكاء بعينيها. عندما لفظ «شاڤيير» أنفاسه الأخيرة، بعد سكرة الموت طويلة الأمد، بالكاد تردَّد في المكان نحيب بعض الأقرباء والأصدقاء، إلى أن ندَّتْ عن «ماريانا» صرخة بالغة الحدّة، جذبت انتباه الجميع، وتلت ذلك إغماءة، ثمَّ باتت «ماريانا» أرملةً. دام فقدُ الحواس بضع دقائق. استعادت «ماريانا» وعيها، فهرعت إلى الجثمان، عانقته وهي تنتحب يائسةً، وتناديه بأعزِّ وأرقِّ الأسماء. كانوا قد غفلوا عن إغماض عيني الفقيد، مما أفضى إلى واقعة رهيبة محزنة؛ إذ إنها وبعد أن أمطرته قُبلًا استحوذت عليها الهلوسات وراحت تصرخ قائلةً إنه حيٌّ لم يزَل، إنه قد نجا بحياته. ومهما حاولوا إبعادها، فما كانت تمتثل، بل أخذت تدفع الجميع وتدَّعي أنهم يريدون انتزاع زوجها من بين يديها. طرحتها الأزمة الجديدة أرضًا، فأودعت بحجرة أخرى على عجل.

عندما خرجت الجنازة في اليوم التالي، لم تكُن «ماريانا» حاضرةً، فعلى الرغم من إصرارها الشديد على تشييع الفقيد، لم تعُد تمتلك من القوة ما يلزم كي تستجيب لإرادتها. سار «إيڤاريستو» في الجنازة، خلف العربة الجنائزية، وهو لا يكاد يصدق أنه حيث كان، أو أنه يفعل ما يفعل. وفي المقابر تحدَّث إلى أحد أقرباء «شاڤيير»، وأفصح له عن مقدار الأسى الذي يشعر به من أجل «ماريانا». وختم حديثه قائلًا:

- من الواضح أنهما كانا متحابين جدًّا.

فأجابه قريب الفقيد:

- آه! جدًّا. تزوجا عن شغف. لم أحضر الزواج لأنني لم أصل إلى «ريو دي چانيرو» إلّا بعد مرور أعوام طوال على زواجهما، في عام 1874. وعلى الرغم من ذلك، فلقد وجدت العلاقة بينهما وثيقة وكأنهما عاشقان، وشهدت بنفسي الحياة التي عاشها كلاهما إلى الآن. كان كلٌ منهما يعيش من أجل الآخر، ولست أعرف إن كانت ستبقى طويلًا في هذا العالم.

فكَّر «إيڤاريستو»:

- 1874، أي بعد مرور عامين.

لم تحضر «ماريانا» قدَّاس اليوم السابع، فحضر أحد الأقرباء (الشخص نفسه الذي تحدَّث إلى «إيڤاريستو» بالمقابر) ممثلًا عنها في تلك المناسبة الحزينة. عرف منه «إيڤاريستو» أن حالة

الأرملة لا تسمح لها بالمجازفة بإحياء ذكرى الفاجعة. انتظر بضعة أيام، ثمَّ زارها لتقديم العزاء. ولكنه ما كاد يقدِّم بطاقته إلى الخادم حتَّى سمع أنها لا تستقبل أحدًا. عندئذ ذهب إلى «ساو پاولو»، ليعود بعد خمسة أو ستة أسابيع. تأهَّب للرحيل على متن السفينة. ولكن قبيل الرحيل، خطر له أن يزور «ماريانا» مرَّة أخرى، ليس من باب المجاملة وحسب، بقدر ما كان ذلك بدافع الرغبة في أن يحمل معه صورة ذلك الشغف الذي دام أربعة أعوام، وإن تكن صورة بالية.

لم يجدها في البيت. عاد غاضبًا، مستاءً من نفسه، بل أحسَّ بأنه وقح ويفتقر إلى الذوق. وعلى مسافة قريبة، لمح امرأة خارجة من كنيسة «الروح القدس» في ثياب الحداد، بدا له أنها «ماريانا». كانت هي «ماريانا». جاءت سيرًا على الأقدام. وعند مرورها على مقربة من العربة، رَنَت إليه وتظاهرت بأنها لا تعرفه، ثمَّ مضت قُدُمًا، على نحو بقت معه تحيَّة «إيڤاريستو» بلا ردّ. ومع ذلك فقد أراد الأخير أن يوقف العربة حتَّى يودِّعها، في المكان نفسه، في الشارع، لدقيقة واحدة، بكلمات ثلاث. ولكن بالأخذ في الحسبان أنه تردَّد في اتخاذ القرار، لم تتوقف العربة إلَّا بعد أن تجاوزت الكنيسة بالفعل، وابتعدت «ماريانا» بمسافة كبيرة. وعلى الرغم من ذلك فقد ترجَّل عن العربة وسار عائدًا. ولكن، سواء أكان ذلك بدافع الاحترام أو الاستياء، فقد عدَل عن رأيه، واستقلَّ العربة مرَّة أخرى ثمَّ رحل.

وبعد دقائق من التأمُّل، خلص إلى ما يلي:

- لقد أخلصَتْ ثلاث مرَّات.

وصل إلى باريس قبل مرور شهر. لم ينسَ الكوميديا التي قدَّمها صديقه، والتي كان ينتوي حضور أوَّل عروضها في مسرح «الأوديون». بادر بالسؤال عنها، كانت قد أخفقت إخفاقًا ذريعًا.

قال «إيڤاريستو» يواسي المؤلِّف:

- هكذا هو المسرح. فعروض تخفق، وأخرى تنجح نجاحًا مدوِّيًا.

12

قصة مدرسية

كانت المدرسة تقوم بشارع «كوستا»، في بيت صغير ذي سياج خشبي. وكان ذلك في عام 1840. في ذلك اليوم -أحد أيام الاثنين من شهر مايو- بقيت بضع لحظات في شارع «پرينسيزا» كي أرى أين سألعب ذلك الصباح. كنت مترددًا ما بين رابية «ساو ديوجو» وحقل «سانتا آنا»، الذي لم يكن قد صار المنتزه الحالي بعد، الجدير بالسادة النبلاء، بل كان عبارة عن مساحة ريفية، تكاد تكون لامتناهية، تعجُّ بعاملات الغسيل والعشب والحمير الطليقة. الرابية أم الحقل؟ كان ذلك هو السؤال. وبغتةً قلتُ لنفسي إن خير الأمور المدرسة. فوليَّت وجهي شطر المدرسة. وإليكم السبب.

في الأسبوع الماضي، كنتُ قد تهرَّبت من المدرسة مرتين، فكُشف أمري، ونلتُ جزائي علي يدي أبي الذي برحني ضربًا بالعصا. كان الألم الناجم عن ضرب أبي المبرح بالعصا يدوم لوقتٍ طويل. كان موظفًا قديمًا في مخزن السلاح الحربي، فظًا لا يتسامح. كان يحلم بأن أحصل على مركز مرموق في مجال التجارة، ويتلهَّف على رؤيتي وقد امتلكت مؤهلات التجارة: القراءة، والكتابة، والحساب، حتَّى يجد لي عملًا كصرَّاف. كان يذكر لي أسماء لأصحاب رءوس أموال بدءوا عملهم في شباك

الخزينة. على كلٍّ حال، كانت ذكرى العقاب الأخير هي التي حملتني على الذهاب للمدرسة يومئذ؛ إذ لم أكُن طفلًا فاضِلًا.

رقيت الدرج بحذر لئلا يسمعني المعلِّم، ووصلت في الوقت المناسب. دخل المعلِّم إلى الفصل بعد ثلاث أو أربع دقائق، يسير برفق كعهده، بخُفَّين من الجلد، ومعطف من الكتان مغسول وحائل، وسروال أبيض متخشِّب وياقة ضخمة مرتخية. كان يُدعى «پوليكارپو»، قارب الخمسين من العمر أو أكثر. ما إن جلس حتَّى أخرج من معطفه علبة النشوق، والمنديل الأحمر، ووضعهما في الدُّرج. ثمَّ أجال بصره في الفصل سريعًا. عاود الأطفال الجلوس بعد أن ظلّوا وقوفًا عند دخوله. كان كلُّ شيء تحت السيطرة. ثمَّ شرعوا في العمل.

- يا «پيلار»، أحتاج إلى الحديث معك.

قال لي ابن المعلِّم بصوت خفيض. كان ذلك الصغير يُدعى «رايموندو»، وعلى الرغم من اجتهاده، فقد كان بطيئًا، محدود الذكاء. كان «رايموندو» يستغرق ساعتين في استيعاب ما يتطلب من الآخرين ثلاثين أو خمسين دقيقة بالكاد، ويُذلِّل بالوقت ما لا يتسنَّى له تذليله بالعقل. أضف إلى ذلك الخوف العظيم الذي كان يشعر به نحو أبيه. كان طفلًا هزيلًا، شاحبًا، تبدو على وجهه أمارات المرض، ونادرًا ما يبتهج. كان يصل إلى المدرسة بعد أبيه وينصرف قبله. وكان المعلِّم يبدي له من الصرامة أشدَّ مما يبديه لنا.

- ماذا تريد؟

فأجاب بصوت مرتعش:

- لاحقًا.

بدأ درس الكتابة. يشقُّ عليَّ القول إنني كنت من الطلاب الأكثر تفوقًا في المدرسة، إلّا أنني كنت كذلك بالفعل. عندي هاجس يسهل فهمه وله تأثير ممتاز على الأسلوب، يحول دون قولي إنني كنت فوق ذلك من الطلاب الأكثر ذكاءً، ولكن تلك هي قناعتي دون غيرها. تجدر ملاحظة أنني لم أكُن شاحبًا ولا ضعيف البنية، بل كانت لي بشرة صحيَّة وعضلات من حديد. في درس الكتابة، على سبيل المثال، كنت أنتهي قبل الآخرين دائمًا، إلّا أنني كنت أقضي بقية الوقت في صناعة أنوف من قصاصات الورق، أو رسمها على التختة، عمل يخلو من النبل أو الروحانية، ولكنه بريء على كلٍّ حال. وهو ما كان يومذاك. ما كدت أفرغ من الدرس، حتَّى رُحت أنسخ أنف المعلِّم، وأضفي عليه خمسة أو ستة تعابير مختلفة، أذكر منها المستفهم، والمندهش، والمرتاب، والمتأمل. لم أكُن أطلق عليها تلك التسميات، وأنا طالب الصفِّ الأول المسكين آنذاك، إلَّا أنني كنت أضفي عليها تلك التعابير على نحوٍ غريزي. أخذ الآخرون ينتهون من الدرس، فلم يكُن أمامي سوى الانتهاء منه بدوري، وتسليم القطعة مكتوبة ثمَّ العودة إلى مكاني.

بصراحة، كنت نادمًا على حضوري. الآن وقد نزلت سجينًا، كنت أتحرَّق شوقًا للتنزه بالخارج، ورحت أتذكر الحقل والرابية، وأفكِّر في الأطفال الكسالى الآخرين، «شيكو تيليا»، «أميريكو»، «كارلوس داس إسكادينياس»، صفوة الحيِّ والجنس البشري. وبلغت ذروة اليأس حين لمحت عبر نوافذ المدرسة طائرة ورقية ضخمة تحلِّق عاليًا في وضح السماء الزرقاء، فوق رابية «ليڤرامينتو»، ولها خيط هائل يتموج في الهواء، كان مشهدًا مبهرًا. أمَّا أنا فكنت في المدرسة، جالسًا، أضمُّ ساقيَّ، واضعًا كتاب القراءة والقواعد فوق ركبتيّ.

قلتُ لـ«رايموندو»:

- أنا مغفل لأنني أتيت.

فأجابني هامسًا:

- لا تقل هذا.

نظرت إليه، كان أشدَّ شحوبًا. عندئذٍ ذكَّرني ثانيةً بأنه يريد أن يطلب مني أمرًا، فسألته عما يريد. ارتجف «رايموندو» من جديد، وسرعان ما طلب مني الانتظار قليلًا؛ لأن الأمر خاص. وبعد مرور بضع دقائق، ناداني هامسًا:

- يا «پيلار»...

- ماذا؟

- أنت...

- أنت ماذا؟

ألقى نظرة على أبيه، ثمَّ على بعض الأطفال الآخرين. أحدهم، ويدعى «كورڤيلو»، أخذ ينظر إليه في ارتياب، فانتبه «رايموندو» إلى ذلك وطلب مني الانتظار بضع دقائق أخرى. أعترف أنني كنت قد بدأت أتحرَّق فضولًا. نظرت ناحية «كورڤيلو»، ورأيت أنه يبدو منتبهًا لما يجري. ربما كان مجرَّد فضول يشغل به الفراغ، أو تطفُّلًا طبيعيًّا. ولكن ربما كان أمرًا بينهما أيضًا. كان ذلك المدعو «كورڤيلو» معجونًا بماء العفاريت، ويبلغ من العمر أحد عشر عامًا، أي يكبرنا سنًّا.

ماذا قد يريد مني «رايموندو»؟ ظللتُ على تلك الحال، لا أهدأ، كثير التململ، أتحدَّث إليه بصوت خفيض، ألحُّ طالبًا منه أن يخبرني بما يريد، وأقول إن أحدًا لا يلقي إليه أو إليَّ بالًا. وإن لم يكن، فليخبرني ظهرًا...

فقاطعني قائلًا:

- ظهرًا، كلا، لا يُمكن.

- فالآن إذن...

- أبي ينظر ناحيتنا.

في الحقيقة، أخذ المعلِّم يحملق فينا. كان أشدَّ صرامة مع ابنه؛

ولذا فكثيرًا ما كان يفتِّش عنه بعينيه، إمعانًا في تكبيل حركته. إلّا أننا كنا ماكرين أيضًا، فوضعنا أنفينا في الكتاب وتابعنا القراءة. في النهاية تعب من المراقبة وأمسك بالصحف اليومية، ثلاث أو أربع صحف، راح يقرؤها ببطء بينما يلوك الأفكار والأهواء. لا تنسوا أننا كنا آنذاك في نهاية فترة الوصاية على العرش التي تخللها اضطراب شعبي جارف. من المؤكَّد أن «بوليكارپو» كان مؤيِّدًا لأحد الأحزاب، إلّا أنني لم أتمكن الوقوف على حقيقة هذه النقطة قط. كان أسوأ ما يمكن أن يحمله لنا هي العصا ذات الثقوب. وهناك كانت، معلَّقة من إطار النافذة، على اليمين، تطلُّ بعيونها الخمس الشيطانية. ما كان يتطلب الأمر منه سوى أن يمدَّ يده ويلتقط الخيزرانة ثمَّ يهوي بها، بقوته المعهودة، التي لم تكُن بالقليلة. ومع ذلك، فربما هيمنت عليه أهواؤه السياسية أحيانًا إلى الحدِّ الذي يعفينا معه من العقاب. وفي ذلك اليوم، على الأقل، بدا لي أنه يطالع الصحف باهتمام كبير. كان يرفع بصره بين الفينة والأخرى، أو يتنشَّق بعض النشوق، ولكنه يعود في الحال إلى الصحف يطالعها بجديَّة.

بمرور بعض الوقت -عشر دقائق أو اثنتي عشرة دقيقة- وضع «رايموندو» يده في جيب سرواله ثمَّ نظر إليّ.

- هل تعرف ماذا أحمل هنا؟

- كلا.

- عملة فضية أعطتها لي أمّي.

- اليوم؟

- كلا، منذ أيّام، بمناسبة عيد ميلادي.

- عملة فضية حقيقية؟

- أجل، حقيقية.

أخرجها من جيبه ببطء وأطلعني عليها عن بعد. كانت عملة تعود إلى زمن الملك، أظنُّ أنها كانت بقيمة 12 «فينتين» أو 2 «توستاو»، لا أذكر. ولكنها كانت عملة، عملة إلى حدٍّ خفق له قلبي بشدَّة. التفت «رايموندو» ناحيتي بنظرة شاحبة ثمَّ سألني عمَّا إذ كنت أريدها لنفسي. أجبته قائلًا إنه يمزح، ولكنه أقسم لي بأنه لا يمزح.

- ولكن، هل تتنازل عنها؟

- أمي ستدبِّر لي أخرى لاحقًا. فقد ورثت عن جدِّي عملات كثيرة، تركها لها في صندوق، بعضها من الذهب. هل تريد هذه؟

أجبته بأن بسطت راحتي خلسةً، بعد أن نظرت ناحية مكتب المعلِّم. سحب «رايموندو» يده في حين ارتسم على فمه تعبير أصفر، أراد به ابتسامةً. وللوقت عرض عليَّ صفقةً، تبادل خدمات، العملة الفضية مقابل إجابة إحدى مسائل درس الإعراب. لم يقدر على استيعاب أيِّ شيء من الكتاب، وكان خائفًا من أبيه. ختم

عرضه وهو يمسح على ركبتيه بالعملة الفضية.

خامرني إحساس غريب. وليس الأمر أن فكرتي عن الفضيلة حينئذ كانت أكثر ملاءمة لرجل راشد، ولا أنني كنت أجد صعوبة في قول الأكاذيب الطفولية. كلانا كان يعرف كيف يخدع المعلّم. الجديد في الأمر هي شروط العرض، مقايضة الإجابة بالنقود، عملية شراء صريحة، إيجابية، خُذْ، هاتْ. كان ذلك هو السبب في الإحساس الذي خامرني. ظللت أتطلع إليه شاردًا، لا أقول شيئًا.

من المفهوم أن تلك المسألة الإعرابية كانت عسيرة، وأن «رايموندو» حين أخفق في تعلّمها قد لجأ إلى وسيلة بدت له نافعة هربًا من عقاب أبيه. لو كان قد طلب مساعدتي على سبيل المعروف، لكان له ما أراد أيضًا، كما في المرات السابقة. ولكن يبدو أن الدافع وراء ذلك العرض كان كلًا من ذكرى المرَّات السابقة، إلى جانب خوفه من أن يجدني فاتر الهمَّة أو متعبًا فلا يتلقَّى الإجابة كما يريد (وربما كنت قد لقّنته الإجابة الخاطئة ذات مرَّة). وضع المسكين اعتماده على ذلك المعروف، إلَّا أنه أراد أن يتأكَّد من فعاليته، ولذا فقد لجأ إلى العملة التي أعطتها له أمه واحتفظ بها وكأنها أثر قديم أو لعبة. تناولها وشرع يمسح بها على ركبتيه، على مرأى مني، وكأنه يغويني... في الحقيقة، كانت العملة جميلة، دقيقة، بيضاء، ناصعة البياض. فما بالكم بها في عينيَّ، وأنا الذي خلا جيبي إلَّا من النحاس، إن وُجد... النحاس القبيح، الغليظ، الصدئ..

لم أرغب في قبولها، وشقَّ عليَّ رفضها. نظرت إلى المعلِّم، الذي تابع قراءته، باهتمام بالغ إلى الحدِّ الذي تساقط معه النشوق من منخريه. قال لي ابنه بصوت خفيض:

- هيَّا، خذها.

في حين تلألأت الفضة بين أصابعه وكأنها قطعة من الألماس... في الحقيقة، ما دام المعلِّم لم يلمح شيئًا، فما الخطب في ذلك؟ وبالفعل لم يكُن بوسعه أن يرى شيئًا، إذ تشبَّث بالصحف، يقرأها متَّقدًا كالنيران، حانقًا.

- خذْ، خذْ..

أجلت بصري في الفصل، فوجدت عيني «كورڤيلو» علينا. قلت لـ«رايموندو» أن ينتظر. بدا لي أن الآخر يراقبنا، فتظاهرت بأنني لا أفعل شيئًا. ولكن بعد قليل ألقيت عليه نظرة أخرى، فلم ألاحظ عليه شيئًا (كم تضللنا الرغبة!). عندئذٍ استجمعت شجاعتي.

- هاتها.

ناولني «رايموندو» العملة الفضية، خلسةً، فوضعتها في جيب سروالي، بانفعال ليس لي أن أصفه. ها قد أصبحت معي، لصق فخذي، وما زال أمامي أن أقدِّم له الخدمة المطلوبة وألقِّنه الإجابة. لم أتأخَّر في ذلك، ولم ألقِّنه إجابة خاطئة، عن عمد على الأقل. مرَّرت له الشرح على قصاصة ورق تلقَّاها بحذر، وكله انتباه. بدا وكأنه يبذل من الجهد أكبر مما يلزم لتعلّم مسألة تافهة بخمس أو

ست مرَّات. ولكن ما دام سيهرب بجلده من العقاب، فكل شيء سيكون على ما يرام.

وفجأةً، نظرت إلى «كورڤيلو»، فسَرَتْ في جسدي رعشة. كان يحدِّق إلينا وعلى شفتيه ابتسامة بدت لي خبيثة. تظاهرت بغير ما أفعل. ولكن بعد وقتٍ يسير، التفتُّ إليه مرَّة أخرى، لأجده على الحال نفسها، بالمظهر نفسه، وزاد على ذلك أنه راح يتململ في جلسته بنفاد صبر. ابتسمت له فلم يردَّ الابتسامة، على العكس قطَّب جبينه، مما جعله يبدو وكأنه يتوعدني. تسارعت دقات قلبي بشدَّة.

قلت لـ«رايموندو»:

- نحن في حاجة إلى توخِّي بالغ الحذر.

فأجابني هامسًا:

- قُل لي هذه النقطة وحسب.

أشرت له بأن اصمتْ. إلَّا أنه ظلَّ يلحُّ، والعملة الفضية في جيبي، تذكِّرني بالعقد المبرم بيننا. أعطيته الإجابة في خلسة شديدة. ثمَّ التفتُّ ثانيةً إلى «كورڤيلو»، الذي بدا أكثر اضطرابًا، والابتسامة الخبيثة سابقًا، صارت أشدَّ خبثًا. وغنيٌّ عن القول أنني كنت على أحرّ من الجمر، أتلهَّف على انتهاء الدرس. ولكن، لا الساعة سارت كما تسير عادةً، ولا المعلِّم ألقى للمدرسة بالًا، بل راح يقرأ الصحف، مقالًا تلو الآخر، واضعًا بينها فواصل

من صيحات التعجب، وإيماءات الكتفين، ودقَّة أو دقَّتين على المكتب. أمَّا في الخارج، في السماء الزرقاء، فوق الرابية، فكانت الطائرة الورقية نفسها تتمايل من جانب إلى آخر، وكأنها تدعوني إلى لقائها. تخيَّلت نفسي هناك، أسفل شجرة المانجو، ومعي الكتب ولوح الكتابة، والعملة الفضية في جيب السروال، لا أعطيها لأحدٍ، أيًّا كان، ومهما فعلوا بي. سأحتفظ بها في البيت وأقول لأمي إنني وجدتها في الشارع. وحتَّى لا تفرَّ مني هاربة، جعلت أتحسسها، أمرِّر أصابعي على الزخارف، أكاد أقرأ النقش باللمس، بينما تنازعني رغبة عارمة في اختلاس النظر إليها.

- أوه! «بيلار»!

صاح المعلِّم بصوت كهزيم الرعد. انتفضت وكأنني أُفيق من حلم، وهبَبْتُ واقفًا على عجل. وجدت المعلِّم يتطلع إليَّ مقطب الجبين، وقد تبعثرت الصحف، بينما وقف «كورڤيلو» إلى جوار المكتب. حزرت كلَّ ما دار، وفق ما تراءى لي. صاح بي المعلِّم:

- تعالَ إلى هنا!

ذهبت إليه ووقفت أمامه. أغمد في ضميري زوجًا من العيون الثاقبة، ثمَّ نادى ابنه. توقَّفت المدرسة بأكملها. ما عاد أحد يقرأ، ما عاد أحد يحرِّك ساكنًا. أمَّا أنا فقد شعرت بفضول الجميع ورهبتهم في هواء الفصل، وإن لم أحوِّل عينيَّ عن المعلِّم. سألني «بوليكارپو»:

- إذن حضرتك تتقاضى النقود مقابل تلقين الإجابات للآخرين؟

- أنا...

فصاح بي:

- ناولني العملة التي أعطاها لك زميلك!

لم أمتثل لأمره في الحال، بيد أنني لم أستطع إنكار أيّ شيء. ظللت أرتجف بشدّة. صاح بي «پوليكارپو» ثانيةً، طالبًا أن أعطيه العملة، فلم أعُد قادرًا على المقاومة، وضعت يدي في جيبي ببطء، أخرجت منه العملة وسلّمتها إليه. تفحَّص وجهي العملة وهو يستشيط غضبًا، ثمَّ مدَّ ذراعه قاذفًا بها إلى الشارع. وبعد ذلك أسمعنا جملة من الأمور القاسية، قال إنني وابنه ارتكبنا لتوِّنا فعلة قبيحة، مخزية، خسيسة، شريرة، سنعاقَب عليها على سبيل التقويم والعبرة. وهنا التقط العصا ذات الثقوب. فانتحبت قائلًا:

- سامحني يا معلِّم...

- لا يوجد سماح! ناولني يدك! ناولني! هيَّا! يا وقح! ناولني يدك!

- ولكن، يا معلِّم...

- هيَّا وإلَّا صار عقابك أشدّ!

مددت يدي اليمنى، ثمَّ اليسرى، ورحت أتلقَّى الضربات واحدة فوق الأخرى، حتَّى بلغ عددها اثنتي عشرة ضربة، تركت راحتي يدي حمراوين ومتورِّمتين. ثمَّ حان دور الابن، ومعه تكرَّر الأمر نفسه. لم يعفه من أيِّ شيء... ضربتان، أربع، ثمان، عشر، اثنتا عشرة ضربة. فرغ من ضربنا، ثمَّ ألقى علينا موعظة أخرى. دعانا وقحين، سفيهين، وأقسم أن يُنزل بنا عقابًا من الشدَّة بحيث يجعلنا نتذكره إلى أبد الآبدين في حال عُدنا إلى تلك الفعلة. ثمَّ صاح بنا:

- خنزيران! غشاشان! محتالان!

من جانبي، كنت قد خفضت بصري إلى الأرض. لم أجرؤ على النظر إلى أحد، وشعرت بالعيون جميعها تحدِّق فينا. عدت إلى مقعدي أنتحب، وشتائم المعلِّم تنهال عليَّ كالسياط. خيَّم الرعب على الفصل. ويمكنني القول إن أحدًا ما كان ليجرؤ على الإتيان بأمر مماثل يومئذ، بل أظنُّ أن «كورڤيلو» شخصيًا قد انزوى خوفًا. لم أنظر إليه بعد ذلك مباشرةً، إلَّا أنني أقسمت بيني وبين نفسي أن أهشِّم وجهه في الشارع حالما نخرج، وأنا متأكِّد من ذلك مثل يقيني من أن مجموع ثلاثة واثنين يساوي خمسة.

نظرت نحوه بعد مرور بعض الوقت، فنظر نحوي بدوره، إلَّا أنه أشاح عني بوجهه الذي امتقع بحسب اعتقادي. تمالك نفسه وجعل يقرأ بصوت مرتفع، كان خائفًا. بدأ يغيِّر وضعه، يتململ على غير هدى، يحكُّ ركبتيه، أنفه. بل ربما كان قد ندم على

وشايته بنا. وفي حقيقة الأمر، لماذا وشى بنا؟ ما ضره في ذلك؟ رحتُ أقول بيني وبين نفسي:

- سوف تدفع الثمن! غاليًا!

حانت ساعة الخروج، فخرجنا. سَبَقَنا «كورڤيلو»، على عجل، أمَّا أنا فلم أرغب في الشجار هناك، في شارع «كوستا» على مقربة من المدرسة. يجب أن يكون ذلك في شارع «لارجا دي ساو چواكين». ولكني لم أعُد أراه حين بلغت الناصية. الأرجح أنه اختبأ في أحد الأروقة أو الحوانيت. دلفت إلى إحدى الصيدليات، ثمَّ تلصَّصت على بيوت أخرى، وسألت عنه بضعة أشخاص فلم يخبرني أحد بشيء. فضلًا عن ذلك فقد تغيَّب عن المدرسة ظهرًا.

في البيت لم أقُل شيئًا، بالطبع. ولكني كذبت على أمِّي متذرعًا بعدم فهم الدرس جيدًا، حتَّى أبرِّر تورّم يديّ. ذهبت إلى فراشي ليلتها وأنا ألعن الطفلين، صاحب الوشاية وصاحب العملة الفضية. وحلمت بالعملة، حلمت بأنني وجدتها في الشارع لدى عودتي إلى المدرسة في اليوم التالي، فأخذتها، في غير خوف ولا تأنيب ضمير.

وفي الصباح، استيقظت مبكرًا. حَدَتْ بي فكرة البحث عن العملة إلى ارتداء ثيابي على عجل. كان يومًا بديعًا من أيام شهر مايو، فشمس رائعة، ونسيم عليل، ناهيك عن السروال الجديد الذي أهدته لي أمِّي، والذي تجدر الإشارة إلى أنه كان أصفر

اللون. كلُّ ذلك، فضلًا عن العملة الفضية. خرجت من البيت وكأنني في طريقي إلى اعتلاء عرش أورشليم. أسرعت الخطى حتَّى لا يسبقني أحد إلى المدرسة، وإن لم أبالغ في ذلك لئلا يتجعَّد سروالي. كلَّا، فقد كان بديع الجمال! كنت أتطلع إلى السروال وأتفادى الاحتكاك وقمامة الشارع.

وفي الشارع ألفيت كتيبة رماة، والطبول تُقرع في المقدمة. لم أستطع أن أتمالك نفسي. جاء الجنود يقرعون الأرض بأقدامهم في خطى حثيثة، متساوية، يمين، يسار، على قرع الطبول. جاءوا، مرقوا بجواري، ثمَّ مضوا قدمًا. شعرت بحكة في قدميَّ، وبزخم يدفعني للسير وراءهم. قلت لكم بالفعل: كان يومًا جميلًا، أضِف إلى ذلك الطبول... تلفتُّ يمينًا ويسارًا. وفي النهاية، لا أعرف كيف، انضممت إلى المارش العسكري أنا أيضًا، على قرع الطبول. أعتقد أنني رحت أدندن بأغنية ما تقول: «جرذٌ في المعطف». لم أذهب إلى المدرسة، بل رافقت الرماة، ثمَّ دخلت إلى حيِّ «ساوودي»، وقضيت بقية النهار على شاطئ «جامبوا». عدت إلى البيت وقد تلوَّث سروالي، بغير عملة فضية في جيبي، ولا استياء في دخيلة نفسي. وعلى الرغم من ذلك، كانت العملة الفضية جميلة، وكان «رايموندو» و«كورڤيلو» أوَّل من عرَّفاني على الفساد (على يد الأوَّل) والوشاية (على يد الثاني)، ولكن الطبول اللعينة...

13

مثل الإبرة وبكرة الخيط

كان ياما كان، كانت هناك إبرة، وقالت الإبرة لبكرة الخيط:

- لماذا تبدين بهذا المظهر، مغترَّة بنفسك، متكوِّرة على نفسك، حتَّى تتظاهري بأن لكِ قيمة في هذا العالم؟

- دعيني وشأني يا سيدتي.

- أدعُك وشأنَك؟ أدعكِ وشأنك، ولمَ؟ لأنني أقول لكِ إن مظهركِ لا يُطاق؟ أكرِّر، أجل، وسأقولها لكِ ما خطرت في رأسي.

- أيُّ رأس، يا سيدتي؟ لستِ دبوسًا، بل إبرة. والإبر لا رأس لها. ماذا يهمُّكِ من أمر مظهري؟ لكلٍّ منا مظهره الذي حباه به الرب. اهتمي بشأن حياتك ودعي حياة الآخرين.

- ولكنكِ ذات كبرياء.

- بكلِّ تأكيد.

- ولكن لمَ؟

- سؤال وجيه! لأنني أخيط. من يخيط فساتين سيدتنا وزينتها إن لم أكُن أنا؟

- أنتِ؟ هذه أفضل من سابقتها. أنتِ التي تخيطينها؟ أتجهلين أنني أنا من يخيطها، أنا ثمَّ أنا؟

- أنتِ تَنْفُذين عبر النسيج، لا أكثر. أنا التي أخيط، أصل بين قطع القماش، أضفي عليها شكلًا.

- أجل، ولكن ما قيمة ما تفعلين؟ أنا التي أنفذ عبر النسيج، وأمضي قدمًا، أمهد لكِ الطريق، فتقتفين أثري، وتمتثلين لما أفعل وآمر به.

- كذلك يسير الكشافة أمام الإمبراطور.

- هل أنتِ إمبراطور؟

- ليس هذا ما أقول. ولكن الحقيقة أنكِ تلعبين دورًا ثانويًّا إذ تسيرين في المقدمة. تكشفين الطريق وحسب، تؤدين عملًا مغمورًا وتافهًا. أنا التي أصل، أربط، أجمع...

وفيما هما على تلك الحال، وصلت الخياطة إلى بيت البارونة. لا أعرف إن كان قد سبق لي الإشارة إلى أن القصة تجري في بيت بارونة، تستبقي مصممة الأزياء إلى جوارها، لئلا تضطر للسعي خلفها. وصلت الخيَّاطة، تناولت النسيج، ثمَّ الإبرة، ثمَّ بكرة الخيط، وضعت الخيط في الإبرة، وشرعت في الخياطة. سارت كلٌّ منهما في كبرياء، تشقّان طريقهما عبر النسيج، الذي كان من أجود صنوف الحرير، بين أصابع الخياطة -التي أخذت تتحرك برشاقة كلاب «ديانا» إلهة الصيد- كي تضفيا على النسيج لونًا

شاعريًّا. فقالت الإبرة:

- إذن يا سيدتي، أما زلتِ مصرَّة على ما قلتِ منذ قليل؟ ألا تلاحظين أن هذه الخياطة البارعة لا تأبه إلَّا بأمري؟ فأنا بين أصابعها، أتَّحِد بها، أنفذ عبر القماش هبوطًا وصعودًا...

لم تحِر بكرة الخيط جوابًا، بل مضت قدمًا. ما إن تفتح الإبرة ثقبًا حتَّى تملأه بخيوطها، في صمت ونشاط، كمن يعرف ما يفعل وليس على استعداد لسماع كلمات مجنونة. رأت الإبرة أنها لم تحِر جوابًا، فأطرقت هي الأخرى ومضت قدمًا. وخيَّم الصمت على حجرة الخياطة، فلم يُسمع سوى الصوت الصادر عن نفاذ الإبرة خلال النسيج، تِك تِك تِك تِك. وعند مغيب الشمس طوت الخياطة النسيج لحين عودتها في اليوم التالي. واصلت عملها في اليوم الثاني، والثالث، إلى أن فرغت منه في اليوم الرابع، ثمَّ بقتْ تنتظر الحفل الراقص.

حانت ليلة الحفل الراقص، وارتدت البارونة ثيابها. أمَّا الخياطة، التي ساعدتها على ارتداء ثيابها، فكانت تحتفظ بالإبرة مغروسة في صدريتها، لعمل بعض الغرز اللازمة. وفيما هي تزيِّن ثوب السيِّدة الجميلة، تجذبه من هنا ومن هناك، تشمِّره من هنا ومن هناك، تملِّسه، تزرُّه، تشدُّه بالمشابك، سألت بكرة الخيط الإبرة، استهزاءً بها:

- والآن، هلّا خبَّرتِني من سيذهب إلى الحفل الراقص، حول

جسد البارونة؟ من سيؤلِّف بعضًا من ثوبها وأناقتها؟ من سيراقص وزراء ودبلوماسيين، في حين تعودين أنتِ إلى صندوق الخياطة قبل أن تذهبي إلى سلّة الخادمات؟ هيَّا، خبِّريني.

وفيما يبدو لم تنبس الإبرة بحرف، إلَّا أن دبوسًا، ذا رأس ضخم وخبرة لا تقلُّ عنه حجمًا، همس للإبرة المسكينة قائلًا:

- هيَّا، تعلَّمي أيتها البلهاء. تكدّين في تمهيد الطريق لها، وتنعم هي بالحياة، أمَّا أنتِ فتبقين في صندوق الخياطة. افعلي كما أفعلُ، فأنا لا أمهد الطريق لأحدٍ، أيًّا كان. وحيثما وُضعتُ، لا أبرح مكاني.

سَرَدتُ هذه القصَّة على أحد أساتذة الكآبة، فقال لي فيما يهزُّ رأسه يمينًا ويسارًا:

- أنا أيضًا لعبت دور الإبرة، ومهدت الطريق لخيوط كثيرة تفتقر إلى الجودة!

14

دونا «پاولا»

لم يكُن ممكنًا أن تصل في وقتٍ أنسب من ذلك. دلفت دونا «پاولا» إلى الحجرة تحديدًا في اللّحظة التي كانت تجفف فيها ابنة أختها عينين أرهقهما البكاء. يُمكن تفهُّم دهشة الخالة. كما يُمكن تفهم دهشة ابنة أختها أيضًا، حين يُعرف أن دونا «پاولا» تسكن في أعالي «تيچوكا»، ولا تنزل سوى مرَّات قلائل، كان آخرها بمناسبة عيد الميلاد الماضي، في حين أننا الآن في شهر مايو من عام 1882. نزلت البارحة، ظهرًا، وقصدت بيت أختها الكائن بشارع «لاڤراديو». واليوم، ما كادت تتناول فطورها حتَّى ارتدت ثيابها وهرولت لزيارة ابنة أختها. رأتها أوَّل جارية فأرادت أن تذهب لإخطار سيدتها، بيد أن دونا «پاولا» أمرتها بألَّا تفعل، وسارت على أطراف أصابعها ببطء بالغ، كي تكبح حفيف الثياب، ثمَّ فتحت باب حجرة الضيوف ودلفت إليها. صاحت بدهشة:

- ما هذا؟

ألقت «ڤينانسينيا» بنفسها بين ذراعي خالتها، وعادت الدموع تتدفق من عينيها مرَّة أخرى. أمطرتها خالتها قبلًا، عانقتها، قالت لها كلمات مواساة، سألتها، وأرادت أن تحكي لها ابنة أختها عمَّا

جرى، عمَّا إذا كانت قد أصيبت بمرض ما، أو...

فقاطعتها الشابة:

- ليته كان مرضًا! ليته كان الموت!

- لا تتفوهي بترهات! ماذا جرى؟ خبِّريني، ماذا جرى؟

جفَّفت «ڤينانسينيا» عينيها وشرعت في الحديث. لم تستطع أن تقول ما يزيد على خمس أو ست كلمات، عادت الدموع غزيرة ومتدفقة، إلى الحدِّ الذي ارتأت معه دونا «پاولا» أنه من الحكمة أن تترك دموعها تسيل أولًا. وفي تلك الأثناء راحت تخلع القفاز ورداء الدانتيل الأسود الذي لفَّت به جسدها. كانت عجوزًا جميلة، أنيقة، لها عينان واسعتان، لا بد أنهما كانتا بلا نهاية فيما مضى. وفيما أخذت ابنة أختها تنتحب، ذهبت الخالة كي توصد باب الحجرة بحذر، ثمَّ عادت إلى الأريكة. وبعد مرور بضع دقائق، كفَّت «ڤينانسينيا» عن البكاء، وأسرَّت إلى خالتها بما جرى.

لم يكُن الأمر بأقل من مشاجرة دبَّت بينها وبين زوجها، بلغت من العنف درجةً حدت بهما إلى الحديث عن الانفصال، والدافع وراء ذلك الغيرة. فزوجها يشعر بالنفور من شخص ما منذ زمن طويل. وفي الليلة الفائتة، في بيت «ك...»، رآها ترقص معه مرتين، وتتحدَّث إليه بضع دقائق، فخلص إلى أن كلًا منهما يتودَّد إلى الآخر. عاد إلى البيت مكفهرَّ الوجه. وفي الصباح، بعد الفطور، تفجَّر غضبه وتفوَّه بأمور قاسية مريرة، أنكرتها ودونها من الأمور.

سألت خالتها:

- وأين زوجك؟

- خرج، ذهب إلى المكتب فيما يبدو.

سألتها دونا «پاولا» عمَّا إذا كان المكتب هو نفسه، فقالت لها أن استريحي، فلم يحدث شيء يُذكر، وبعد ساعتين سيكون الأمر برمته قد انتهى. وضعت خالتها قفازها سريعًا.

- خالتي، هل أنتِ ذاهبة إلى هناك؟

- أجل... بالطبع، أنا ذاهبة إلى هناك. زوجك رجل صالح، إن هي إلَّا مشاكسات بسيطة. رقم البناية 104؟ أنا ذاهبة إلى هناك. انتظريني، ولا تسمحي للجواري برؤيتك.

قالت كلَّ ما قالت في سلاسة وثقة وعذوبة. وضعت قفازها، ثمَّ لفت جسدها بالرداء، في حين ساعدتها ابنة أختها فيما تتحدَّث إليها هي الأخرى، وتقسم أنها تعشق «كونرادو» على الرغم من كلِّ شيء. كان «كونرادو» هو زوجها، وكان يمتهن المحاماة منذ عام 1874. خرجت دونا «پاولا»، تحمل معها من قبلات الشابة الكثير. في الحقيقة، لم يكُن ممكنًا أن تصل في وقتٍ أنسب من ذلك. وفي الطريق يبدو أنها واجهت الواقعة، لا أقول عن ارتياب، بل عن فضول، بينما تشعر بالقلق حيال ما جرى في واقع الأمر. بأيَّة حال، ذهبت عاقدة العزم على أن تردَّ لهما السلام المنزلي.

وصلتْ، فلم تجد زوج ابنة أختها، إلَّا أنه جاء على الفور. وبعد المفاجأة الأولى، لم يكن من الضروري أن تخبره دونا «باولا» بالغاية من وراء الزيارة، إذ حزر «كونرادو» كلَّ شيء. أقرَّ لها بأنه قد بالغ في بعض الأمور، ولكن من ناحية أخرى، فهو لم ينسب إلى زوجته أيَّة ميول منحرفة أو آثمة. هذا كلُّ شيء. أما فيما عدا ذلك، فقد كانت طائشة، تستهويها كثيرًا المجاملات، والعيون الرقيقة، والكلمات العذبة. والطيش من الأبواب المفضية إلى الإثم أيضًا. أمَّا فيما يتصل بالشخص محل السؤال، فلم يكن لديه شك في أنه وزوجته يتودَّدان إلى بعضهما البعض. كانت «ڤينانسينيا» قد حكت لها واقعة الليلة الفائتة فحسب، في غير إشارة إلى ما عداها من مواقف بلغ عددها أربعة أو خمسة، جرى ما قبل آخرها في المسرح، حيث وصل الأمر إلى حدِّ إثارة فضيحة ما. لم يكن على استعداد لتحمل مسؤولية حماقات زوجته. إن هي أرادت أن تتودَّد إلى آخرين، فلتفعل على مسؤوليتها.

أصغت دونا «باولا» إلى كلِّ شيء مُطْرِقةً. ثمَّ تحدَّثت هي الأخرى. وافقته على أن ابنة أختها طائشة، وهو أمر طبيعي لمن في عمرها. شابة جميلة لا تخرج إلى الشارع إلَّا وجذبت الأنظار، من الطبيعي أن يُشعرها إعجاب الآخرين بالإطراء. ومن الطبيعي أيضًا أن شعورها بالإطراء يحدو بها إلى الإتيان بأفعال تبدو لزوجها وللآخرين وكأنها بوادر غزل، ثمَّ إن حماقة البعض وغيرة البعض

الآخر تفسِّر كلَّ شيء. أمَّا من جانبها، فقد رأت الشابة لتوِّها تذرف دموعًا مخلصة، وتركتها محزونة القلب، تتحدَّث عن الموت، وتشعر بالانكسار حيال ما قاله لها. وإن لم يكُن يَعْزو إليها أكثر من الطيش، فلماذا لا يفعل بحيطة وعذوبة، بالنصح والملاحظة، والحدِّ من فرص تعرضها للغواية، وبتنبيهها إلى الضرر الذي قد يلحق بسمعة سيدة من جراء إظهار الوفاق واللطف وحسن النية تجاه الرجال؟

استغرقت السيدة الصالحة ما لا يقلُّ عن عشرين دقيقة في قول تلك الأمور اللينة، وكانت من الرفق بحيث شعر زوج بنت أختها بالطمأنينة تتسلل إلى قلبه. صحيح أنه قاوم مرَّتين أو ثلاثًا، لئلَّا ينزلق إلى التسامح، وأفصح للخالة بأن كلَّ ما بينه وبين «ڤينانسينيا» قد انقضى. وراح يستحضر ذهنيًّا دوافعه ضد زوجته، حتَّى يبثَّ في نفسه الشجاعة. كانت الخالة تخفض رأسها كي تسمح للموجة بأن تمرّ، ثمَّ تطفو على السطح مرَّة أخرى بعينين واسعتين تطل منهما الحكمة والإصرار. بالكاد بدأ «كونرادو» يتنازل، شيئًا فشيئًا. عندئذٍ اقترحت عليه دونا «پاولا» حلًّا وسطًا.

- سامحها وتصالح معها، أمَّا هي فستقضي معي شهرًا أو شهرين في «تيچوكا» على اعتبار ذلك ضربًا من ضروب النفي. وخلال تلك الفترة، سأتولى بنفسي تقويمها روحيًّا. اتفقنا؟

قَبِل «كونرادو». وما كادت دونا «پاولا» تحظى منه بكلمة حتَّى ودَّعته كي تحمل الخبر إلى الأخرى. رافقها «كونرادو» إلى

الدَّرَج. شدَّ كلٌّ منهما على يد الآخر، ولم تفلت دونا «باولا» يده إلَّا وقد أعادت على سمعه نصائحها له بالرفق والحِلْم. ثمَّ أدلت بالملاحظة الطبيعية التالية:

- ولسوف تريان أن الرجل محلَّ السؤال لا يستحقُّ أن نهتم بشأنه لدقيقة واحدة.

- إنه شخص يُدعى «ڤاسكو ماريا پورتيلا».

امتقع وجه دونا «باولا». «ڤاسكو ماريا پورتيلا»؟ عجوز، دبلوماسي سابق... كلَّا، فذلك مقيم في أوروبا منذ بضعة أعوام، وقد تقاعد ونال لقب بارون لتوِّه. بل كان ابنه، الذي وصل منذ زمن يسير، مجرَّد صعلوك. شدَّت دونا «باولا» على يده، ثمَّ نزلت مسرعة. وفي الردهة، استغرقت بضع دقائق في إحكام وضع الرداء بلا داع، بيدين مرتعشتين، وقد بدت على وجهها أمارات الاضطراب قَليلًا. وبلغ بها الأمر أن خفضت بصرها إلى الأرض تتأمَّل. خرجت، وذهبت للقاء ابنة أختها تحمل إليها خبر الصلح والشرط اللازم. قبلت «ڤينانسينيا» بكلِّ شيء.

بعد يومين ذهبتا إلى «تيچوكا»، حيث أبدت «ڤينانسينيا» بهجة أقل مما وعدت به. الأرجح أن يكون النفي هو السبب، أو ربما كان شيئًا من الحنين. وعلى كلِّ حال، صعد اسم «ڤاسكو» إلى «تيچوكا»، إن لم يكن في ذهن كلٍّ منهما، فعلى الأقل في ذهن الخالة، حيث تردَّد الاسم كضرب من ضروب الصدى، صوت ناءٍ

رقيق، شيء بدا وكأنه آتٍ من زمن «روزينا ستولتز» ووزارة ماركيز «پارانا». المغنية والوزارة، تلك أمور هشَّة، إلّا أنها لم تكُن بأقلّ هشاشة من فرحة الشباب، وأين ذهبت تلك الأبديات الثلاث؟ استلقت على أطلال عمرها ثلاثين عامًا. كان ذلك كلّ ما يعتمل في دخيلة نفس دونا «پاولا»، وكلّ ما تراه أمام عينيها.

ومن المفهوم بالفعل أن «ڤاسكو» الآخر، القديم، كان شابًّا هو الآخر فيما مضى، وعاشقًا. أحبَّ كلٌّ منهما الآخر ونال كفايته منه لبضعة أعوام، تحت ظلال الزواج. ولأن الريح العابرة لا تحفظ كلمات البشر، فليس من سبيل لكتابة ما قيل عن المغامرة التي جرت آنذاك في هذا الموضع. وانتهت المغامرة، التي تعاقبت خلالها الساعات، الحلوة منها والمريرة، ساعات من البهجة، من الدموع، من الغضب، من النشوة، عقاقير متعدِّدة ملأت كأس تلك السيدة بالشغف. تجرَّعتها دونا «پاولا» حتى الثمالة، ثمَّ قلبتها رأسًا على عقب لئلّا تشرب المزيد. وجلب لها الارتواء عزوفًا، ومع مضيّ الزمن، كان لتلك المرحلة الأخيرة الفضل في تشكيل الآراء. توفي زوجها ومرَّت السنون. وأصبحت دونا «پاولا» اليوم صارمة، تقيّة، ذات وجاهة وتحظى بالتقدير.

كانت ابنة أختها هي التي أعادت فكرها إلى الماضي. إذ إن تطابق الوضع واختلاط اسم الرجل نفسه ودمه، أمور أيقظت ذكرياتٍ خوالي. ولا تنسوا أنهما كانتا في «تيچوكا»، حيث كان من المزمع أن تعيشا معًا بضعة أسابيع، وأن تمتثل إحداهما لأوامر

الأخرى. كانت غواية للذكرى، وتحديًا لها.

في صباح اليوم التالي، سألت «ڤينانسينيا» ضاحكةً:

- ولكن، أحقًّا لن نعود للمدينة عمًّا قريب؟

- هل سئمتِ بالفعل؟

- كلا، كلا، أبدًا، ولكني أسأل.

فأشارت دونا «پاولا» بإصبعها إشارةً نافية وهي تضحك بدورها. ثمَّ سألتها عمَّا إذا كانت تشعر بحنينٍ إلى المدينة. فأجابتها «ڤينانسينيا» أن كلًّا، إطلاقًا، بينما تمطّ شفتيها في لا مبالاة واستهزاء، من باب التشديد على الإجابة. وبذلك حمَّلت الرسالة أكثر مما تحتمل. كان من عادات دونا «پاولا» الحميدة ألَّا تستعجل القراءة كمن هرع لتخليص أبيه من حبل المشنقة، بل كانت تقرأ بتروٍّ، تنفُذ بعينيها بين المقاطع والحروف، حتَّى تبصر كلَّ شيء، فوجدت الخالة أن الإيماءة التي أشارت بها ابنة أختها مفرطة في الشدَّة.

فكَّرت بينها وبين نفسها:

- إنهما عشيقان!

ردَّ الاكتشاف الحياة لروح الماضي. جاهدت دونا «پاولا» كي تنفض عن نفسها تلك الذكريات غير اللائقة، في حين كانت الذكريات تعود، بالرفق تارة وبالقوة تارة، كما الفتيات، تغنِّي،

تضحك، تتشيطن. عادت دونا «پاولا» إلى حفلات راقصة من زمن آخر، إلى رقصات الڤالس الأبدية التي كانت تذهل بها الحضور جميعًا، إلى رقصات «المازوركا» التي كانت تؤديها أمام بنات أختها كما لو كانت أظرف ما في هذا العالم، إلى المسارح، إلى الرسائل، وعلى نحو مبهم، إلى القبلات. بيد أن كلَّ ذلك، وبالأخذ في الاعتبار الوضع الراهن، بدا كسجلٍّ وقائع فاتر، كهيكل عظميّ لقصَّة تفتقر إلى روح القصَّة. مرَّ كلُّ ذلك برأسها. حاولت دونا «پاولا» التوفيق بين قلبها وعقلها، لعلَّها تحسُّ بشيء ما بخلاف ذلك التكرار الذهني المحض، ولكن مهما سعت جاهدة لاستحضار المشاعر الجياشة البائدة، لم يعُد أيٌّ منها. تلك أشياء قد انقضت!

لو تسنى لها أن تتلصَّص على ما في قلب ابنة أختها، لربما عثرت على صورة له، وحينئذ... وابتداءً من اللحظة التي نَفَذت فيها تلك الفكرة إلى روح دونا «پاولا»، تعقَّدت مهمة التقويم والعلاج التي تكفَّلت بها قليلًا. كانت مخلصة، تعتني بنفس الأخرى، رغبةً منها في رؤيتها وقد عادت إلى زوجها. إنْ زلَّ المرء في الخطيئة، ربما نازعته رغبة في أن يخطئ آخرون أيضًا، حتَّى يهبط إلى المطهر في معيَّة آخرين. ولكن في تلك الحالة، لم يعُد للخطيئة ثمَّة وجود. كانت دونا «پاولا» تكشف لعيني ابنة أختها فضل زوجها، وفضائله، وانفعالاته التي قد تُفضي بالزواج إلى نهاية غير محمودة، أسوأ من تراجيدية، إذ ربما تبرَّأ منها.

في أولى زياراته لها، بعد تسعة أيام، أكَّد «كونرادو» على تحذير الخالة، إذ جاء فاترًا وذهب فاترًا. تملك «ڤينانسينيا» الذعر. كانت تأمل أن يرقَّ قلب زوجها بعد فراق دام تسعة أيام، وهو ما كان في حقيقة الأمر. بيد أنه، عند دخوله إلى المكان، أخفى ما يضمره خلف قناع وتمالك نفسه لئلَّا يعلن استسلامه. وكان ذلك أكثر فعالية من كلِّ ما عداه. الرعب الذي شَعرَتْ به حيال فقدان الزوج كان هو العامل الرئيسي في استرجاعها. في حين لم يكُن حتَّى المنفى على تلك الدرجة من الفعالية.

ومن دون سابق إنذار، بعد مرور يومين على تلك الزيارة، وبينما كلاهما عند بوابة البستان، على أهبة الخروج في نزهتهما المعهودة، لمحا فارسًا آتيًا نحوهما. حدَّقت فيه «ڤينانسينيا»، ثمَّ ندَّتْ عنها صرخة خافتة وهرولت تتوارى خلف الجدار. تفهَّمت دونا «پاولا» وظلَّت في مكانها. أرادت أن ترى الفارس عن كثب، فرأته بعد دقيقتين أو ثلاث. كان فتى نبيلًا، أنيقًا، ينتعل حذاءً أنيقًا لامعًا، وضعه بإحكام شديد في ركاب السرج. كان له وجه «ڤاسكو» الآخر نفسه. كان هو ابنه، أخذ عنه حركة الرأس نفسها إلى اليمين قليلًا، وكتفيه العريضتين، وعينيه المستديرتين الغائرتين.

في تلك الليلة، وبعد أن انتزعت منها خالتها أوَّل كلمة، قصَّت عليها «ڤينانسينيا» كلَّ شيء. كانا قد التقيا ذات مرَّة في سباق الخيل، بمجرَّد وصوله من أوروبا. وبعد خمسة عشر يومًا، قُدِّم

إليها في حفل راقص، حيث بدا لها، بمظهره بالغ الباريسية، من الوسامة بحيث تحدَّثت عنه مع زوجها في صباح اليوم التالي. قطب «كونرادو» حاجبيه، وكانت تلك اللفتة هي التي أوحت لها بفكرة لم تخطر ببالها حتَّى تلك اللحظة. بدأت رؤيته تُدخل إلى نفسها السرور، وبعد زمن يسير بدأت تشعر بشيء من اللهفة إلى رؤيته. كان يتحدَّث إليها باحترام، ويقول لها أشياء تنمُّ عن مودة، يقول لها إنها أجمل شابة في «ريو دي چانيرو»، الأكثر أناقة، وإنه قد سمع بعض السيدات من عائلة «ألڤارينجا» يجزلن الثناء عليها خلال إقامته في باريس. كان خفيف الظلِّ عند انتقاد الآخرين، ويعرف أيضًا كيف يقول كلمات مفعمة بالمشاعر، كما لا يفعل أحد سواه. لم يكُن يتحدَّث عن الحب، بل يتابعها بعينيه، أمَّا هي فمهما كانت تبعد عينيها عنه، لم تكُن قادرة على إبعادهما تمامًا. بدأت تفكِّر فيه على نحو متكرِّر، باهتمام، وبدأت تتسارع خفقات قلبها عند لقائه. ربما كأن يلمح في وجهها آنذاك الانطباع الذي يتركه لديها.

أصغت دونا «پاولا»، وهي تميل ناحيتها، إلى سردها المُشار إليه هنا بالكاد على نحو موجز ومتَّسق. أطلَّت حياتها بأكملها من عينيها، في حين انفرجتْ شفتاها نصف انفراجة، وبدا وكأنها ترتشف كلمات ابنة أختها بلهفة، كشراب منعش للفؤاد، وتسألها المزيد، تسألها أن تقصَّ عليها كلَّ شيء، كلَّ شيء. اطمأنت لها «ڤينانسينيا». بدت خالتها شابّة، وفاض تشجيعها رفقًا وعفوًا مسبقًا، إلى حدٍّ وجدت معه «ڤينانسينيا» لنفسها صديقة وكاتمة أسرار، على الرغم

مما أسمعتها خالتها من عبارات صارمة ممزوجة بأخرى، قالتها لها مدفوعة برياء لا واعٍ. ولست أقول إنها حسبت حساب ذلك، بل كانت دونا «پاولا» تغالط نفسها. ولنا أن نقارن بينها وبين قائد جيش عاجز، يجاهد كيّ يجد القليل من الحماس المتَّقد القديم فيما ينصت إلى أخبار حملات عسكرية أخرى.

فقالت الخالة:

- كان زوجك محقًّا كما ترين، وكنتِ نزِقة، نزِقة جدًّا.

وافقتها «ڤينانسينيا» الرأي، ولكنها أقسمت لها بأن الأمر برمته قد انتهى.

- أخشى ألَّا يكون قد انتهى. هل أحببتِه حقًّا؟

- خالتي...

- ما زلتِ معجبةً به!

- أقسم لكِ بأنني لستُ معجبة به. كلَّا، ولكني أعترف... أجل... أعترف بأنني كنتُ معجبةً به... سامحيني على كلِّ شيء. لا تقولي لـ«كونرادو» شيئًا. أنا نادمة... أكرِّر أنني كنت مفتونةً به في بادئ الأمر... ولكن، ماذا تتوقعين مني؟

- هل باح لكِ بشيء؟

- أجل. كان ذلك في المسرح، ذات ليلة، في مسرح «ليريكو»، في أثناء خروجنا من المكان. كان من عادته أن يمرَّ عليَّ بالمقصورة ليصحبني إلى العربة، وجرى الأمر في أثناء خروجنا... كلمتان...

لم تسأل دونا «باولا» عن الكلمتين اللتين قالهما العاشق على وجه التحديد من باب الحياء، ولكنها استطاعت أن تتخيل الموقف، البهو، الأزواج في طريقهم إلى الخروج، الأضواء، الحشد، جلبة الأصوات، وبتلك الصورة في ذهنها، استطاعت أن تستحضر القليل مما راود ابنة أختها من أحاسيس، فسألتها عنها باهتمام ودهاء. بادرت الشابة التي أخذت مشاعرها الجياشة والمتزايدة تحلّ عقدة لسانها:

- لا أعرف بِمَ شعرت. ولا أذكر الدقائق الخمس الأولى. أعتقد أنني حافظتُ على جديّتي. ولم أقُل له شيئًا بأيّة حال. بدا لي أن الناس جميعًا يتطلعون إلينا، أنهم ربما كانوا قد سمعونا. وكنت كلما بادرني أحدهم بالتحية باسمًا، يخطر لي أنه يسخر مني. نزلت الدَّرَج لا أدري كيف، واستقللتُ العربة لا أدري ماذا أنا فاعلة. وعندما صافحته، أرخيت أصابعي إلى حدٍّ كبير. أقسم لكِ بأنني تمنيت ألّا أكون قد سمعت كلمة واحدة مما قال. أخبرني «كونرادو» أنه يشعر بنعاس، واستلقى على ظهره في العربة. هكذا أفضل، فلست أدري ماذا كنت سأقول في حال اضطررنا للحديث ساعتها. استلقيت أنا أيضًا، ولكن لوهلة قصيرة. لم أكُن قادرة على البقاء على الوضع نفسه. جعلت أتطلع إلى الخارج من خلال الزجاج، فما كنت أرى سوى سطوع المصابيح، من حين إلى آخر، وفي النهاية لم أعُد أرى حتّى ذلك، بل أروقة المسرح، الدرج، الحضور جميعًا، وهو بجواري، يهمس إليَّ بكلمتين، كلمتين فحسب، ولا أستطيع أن أقول فيمَ كنت أفكر طيلة ذلك الوقت.

اختلطت عليَّ الأفكار، وارتبكت، ثورة بداخلي...

- ولكن، ماذا جرى في البيت؟

- في البيت، وفيما أخلع ثيابي، استطعت جمع شتات أفكاري قليلًا، ولكن قليلًا جدًّا. نمتُ في وقتٍ متأخِّر، وإن لم أَنَم جيدًا. وفي الصباح، كان رأسي في حيرة. لا يمكنني أن أقول إن كان حزنًا ما شعرت به أمْ بهجة. أذكر أنني فكرت فيه كثيرًا، ثمَّ قطعت على نفسي عهدًا بأن أُطْلع «كونرادو» على كلِّ شيء حتَّى أقصيه عن فكري. بيد أن الخاطرة كانت تعود من جديد. وبين الفينة والأخرى، كان يخيَّل إليَّ أنني أسمع صوته، فتسري في جسدي رجفة. تذكَّرت أنني مددتُ له أصابع مرتخية عند الوداع، وشعرت (لا أعرف كيف أقولها) بضرب من ضروب الندم، خفتُ أن أكون قد أسأت إليه... ثمَّ كانت تراودني الرغبة في رؤيته مرَّة أخرى... سامحيني يا خالتي، أنتِ التي أردتِ أن أحكي لكِ كلَّ شيء.

أجابتها دونا «باولا» بأن ضغطت على يدها بقوَّة وأومأت برأسها. في نهاية المطاف، ومع الاحتكاك بتلك الأحاسيس التي سردتها ابنة أخيها بسذاجة، عثرت على شيء ما يعود إلى زمنٍ آخر. راحت تغمضِ عينيها نصف إغماضة تارة، بينما تأخذها سِنَةٌ من الذكريات، وتدقّق البصر تارةً مدفوعة بالفضول والدفء، بينما تصغي إلى كلِّ شيء، يومًا إثر يوم، لقاءً إثر لقاء، حتَّى المشهد الذي دار بالمسرح، والذي أخفته عنها ابنة أختها في بادئ الأمر. ثمَّ انهالت البقية كاملة، ساعات من اللهفة، من الحنين، من

الخوف، من الأمل، من الإحباط، من التصنُّع، من الاندفاع، وكلّ ما قد يعتري الشخص من اضطراب في مثلِ تلك الظروف. لم يستثنِ فضول الخالة الذي لا يشبع شيئًا. لم يكن ذلك بكتاب زنا، ولا حَتَّى فصلًا من فصوله، بل مقدمة، عنيفة وجديرة بالاهتمام.

فرغت «ڤينانسينيا» من حديثها. أمَّا خالتها فلم تقُل لها شيئًا، بل ظلّت مستغرقة في ذاتها. بعد ذلك أفاقت، أخذت بيد ابنة أختها وجذبتها إليها. لم تبادرها بالحديث في الحال، بل حدَّقت فيها أولًا، عن كثب: كلُّ ذلك الشباب النابض الذي لا يهدأ، الثغر الغضّ، العينان اللتان ما زالتا بلا نهاية. ولم تعُد لنفسها حتى سألتها ابنة أختها مرَّة أخرى أن تسامحها. قالت لها دونا «پاولا» كلَّ ما يسمح بقوله حنان الأمِّ وحزمها، حدَّثتها عن العفاف، عن حبِّ الزوج، عن السُّمعة. كان حديثها من الجزالة بحيث لم تقوَ «ڤينانسينيا» على تمالك نفسها، فبكَتْ.

جاء الشاي، ولكن هناك من الأسرار ما يستحيل معه احتساء الشاي. وللوقت انصرفت «ڤينانسينيا» إلى حجرتها. كان الضوء حينئذ أقوى من ذي قبل، فخرجت من الصالون وقد خفضت عينيها، حتَّى لا يلمح الخادم ما يعتريها من مشاعر جياشة. بقت دونا «پاولا» أمام الطاولة والخادم. أمضت عشرين دقيقة، أو أقلّ بقليل، في احتساء فنجان من الشاي وقضم كعكة واحدة. وما كادت تخلو إلى نفسها حتَّى اتكأت على حافة النافذة المطلَّة على البستان.

هبَّت ريح رقيقة، وتمايلت أوراق الشجر هامسةً. وعلى الرغم من أنها لم تكن أوراق الزمن الآخر نفسها، فقد سألتها:

- «پاولا»، أتذكرين الزمن الآخر؟

ولأوراق الشجر تلك السمة الفريدة، إذ تروي الأجيال الراحلة ما شهدت من أمور للأجيال الآتية، وهكذا تعرف الأوراق جميعًا كلَّ شيء، وتسأل عن كلِّ شيء. أتذكرين الزمن الآخر؟

أمَّا من حيث التذكُّر، فقد كانت تتذكَّر بالفعل، إلَّا أن ذلك الإحساس الذي راودها منذ قليل، والذي لم يَعْدُ كونه ردَّ فعل، كان قد توقَّف الآن. فراحت تُردِّد كلمات ابنة أختها سُدى، بينما تتنشَّق هواء الليل الريفي: لم تجد أثرًا، أو ذكرى، أو شيئًا مما انقضى، سوى في رأسها. أمَّا قلبها فقد حَرَنَ من جديد، وانسابت الدماء في عروقها بالوتيرة المعهودة. كان يعوزها الاحتكاك المعنوي بالأخرى. وعلى الرغم من كلِّ شيء فقد ظلَّت واقفة أمام تلك الليلة، التي كانت كغيرها من ليالي هذا الزمن، ولا تشبه زمن «روزينا ستولتز» وماركيز «پارانا» في شيء، إلَّا أنها ظلَّت في مكانها. وبالداخل راحت السوداوات يطردن عنهن النعاس بقصِّ النوادر، ويردِّدن مرَّة أو أخرى في نفاد صبر:

- كم تأخَّرت السنيورا العجوز على موعد نومها!

15

الحيـاة!

منتهى الزمان. «أحشويروش» جالسًا على صخرة، يحدِّق طويلًا في الأفق، حيث يمرق نسران ويتقاطع طريقهما. يتأمَّل، ثمَّ يحلم. النهار يميل.

«أحشويروش»: ها قد بلغتُ خاتمة الزمان. تلك هي عتبة الأبدية. مهجورة هي الأرض، وليس من إنسان سواي يتنفس هواء الحياة. أنا الآخِر، وبمقدوري أن أموت. أموت! فكرة شهية! قرون القرون قد عشتُ، تعِبًا، شقيًّا، وأنا أهيم أبدًا، ولكن ها قد حانت نهاية القرون، ومعها يحين موتي. أيتها الطبيعة العتيقة، وداعًا! أيتها السماء الزرقاء، أيتها السماء الشاسعة المفتوحة كي تنزل أرواح الحياة الجديدة، أيتها الأرض العدوَّة التي لم تأكل عظامي، وداعًا! فالهائم لن يهيم بعد اليوم. فليغفر لي الرب، إن شاء، ولكن لي في الموت عزاء. قاس هو ذلك الجبل، مثله كمثل آلامي. وهذان النسران اللذان يمرقانِ هناك، لا بد أنهما يتضوران جوعًا، مثلهما كمثل يأسي. أتموتان أنتما أيضًا، أيها النسران الإلهيان؟

«بروميثيوس»: صحيحٌ أن البشر قد بادوا، وتجرَّدت منهم

الأرض.

«أحشويروش»: ما زلت أسمع صوتًا... أيكون صوت إنسان؟ أيتها السماوات العنيدة، أو لستُ أنا الآخِر إذن؟ ها هو يدنو... من أنت؟ في عينيك الواسعتين ما يشبه نور رؤساء ملائكة إسرائيل الغامض. أنت لست بإنسان.

«پروميثيوس»: كلا.

«أحشويروش»: أمن جنس الآلهة؟

«پروميثيوس»: لقد قلتها بنفسك.

«أحشويروش»: لستُ أعرفك. ولكن، فيمَ يهمُّ ألَّا أعرفك؟ أنت لست بإنسان. وبمقدوري أن أموت إذن. فأنا آخِر البشر، وسوف أوصد خلفي باب الحياة.

«پروميثيوس»: الحياة، مثلها كمثل مدينة طيبة العتيقة، لها من الأبواب مائة. كلما أوصدت واحدًا، فُتحت أبواب أخرى. أنت آخِر أبناء جنسك؟ سوف يأتي جنس خير منكم، لم يُصنع من الطين نفسه، بل من نور. أجل، أيها الإنسان الآخِر، سوف تهلك العامة من الأرواح جميعًا، وإلى الأبد، أمَّا زهرتها فتعود إلى الأرض لتحكم الأمور. سوف تُقوَّم الأزمان. ويفنى الشرّ. لن تنشر الرياح بعد اليوم، لا بذور الموت، ولا أنَّات المقهورين، بل وحدها أنشودة الحب الأبدي ونعمة العدالة الكونية.

«أحشويروش»: ولمَ يأبه الجنس الذي سيفنى بموتي لكلِّ تلك البهجة الآتية بعد الموت؟ صدّقني، وأنت الخالد، ليس لأرجوان «صيدا» أيَّة قيمة عند العظام المتعفنة في باطن الأرض. إن ما تقصّ عليَّ خير من حلم الراهب «توماسّو كامپانيلّا»، إذ لم تَخْلُ مدينته الفاضلة من الجرائم والأمراض. أمَّا مدينتك فتستثنى من دخولها كافة العلل النفسية والجسدية. فليسمع الرب صوتك! ولكن دعني أموت.

«پروميثيوس»: اذهب، اذهب. ولكن، فيمَ وجه العجلة في إنهاء أيّامك؟

«أحشويروش»: إنها عجلة إنسان عاش آلاف السنين. أجل، آلاف السنين. أولئك البشر الذين عاشوا بالكاد بضع عشرات من السنين، ابتكروا إحساسًا بالضجر، تحت مسمى «ملل الحياة»، الذي لم تتسنَّ لهم معرفته قط، على الأقل في واقعهم العنيد الشاسع بأكمله، فالمرء في حاجة إلى أن يخطو عبر الأجيال جميعًا، والأطلال جميعًا، كما فعلتُ، حتَّى يَخْبُرَ ذلك السأم العميق من الوجود.

«پروميثيوس»: آلاف السنين؟

«أحشويروش»: اسمي «أحشويروش». عشتُ في أورشليم، في زمن صلب يسوع المسيح. وحين مرَّ ببابي، خارت قواه تحت وطأة الخشب الذي كان يحمله على كاهله. أمَّا أنا، فدفعته صائحًا

به ألَّا يتوقف، ألَّا يستريح، أن يمضي إلى الجبل، حيث ينبغي له أن يُصلب... وللوقت نادى صوتٌ من السماء معلنًا أنني سوف أهيمُ على وجهي أبدًا، على الدوام، وحتَّى منتهى الزمان. ذلك هو الذنب الذي ارتكبت، لم أرحم ذلك الذي كان في طريقه إلى الموت. ولستُ أدري حقًّا كيف كان ذلك. قال الفريسيون إن ابن مريم قد جاء ليقوِّض الناموس؛ ولذا فالضرورة تقتضي قتله. وأنا، الجاهل المسكين، أردتُ التأكيد على حَمِيَّتي، فارتكبت فعلتي يومذاك. وكم من المرات رأيت الأمر نفسه يتكرَّر لاحقًا، خلال أسفاري عبر الأزمان والمدائن! حيثما نفذت الحَمِيَّة إلى نفس دنيئة، أصبحت النفس قاسية أو أضحوكة. كان ذلك ذنبي الذي لا يُغتفر.

«بروميثيوس»: ذلك ذنب عظيم، حقًّا، بيد أن العقاب كان رحيمًا. قرأ الآخَرون من كتاب الحياة فصلًا، أمَّا أنت فقد قرأته كاملًا. ماذا يعرف كلُّ فصلٍ من فصول كتاب الحياة عن الآخَر؟ لا شيء. أمَّا أنت فقد قرأتها جَميعًا، صِلْ بينها واخلُص إلى نتيجة. إذا كانت ثمَّة صفحات شجيَّة، فثمَّة صفحات أخرى جذِلة وسعيدة. إن الاختلاجة التراجيدية تسبق الضحكة، والحياة تنبت من الموت، والبجعات وطيور السنونو تهاجر بحثًا عن مناخ مختلف، من دون أن تهجر مناخها الأصلي كليَّةً. وهكذا يتناغم كلُّ شيء ويعود جديدًا. وقد رأيت ذلك بنفسك، لا عشر مرَّات، ولا ألف مرَّة، بل كلَّ المرَّات. رأيت بهاء الأرض وهي تشفي عذاب النفس، ورأيت جذل النفس الذي يعوِّض وحشة الأشياء. إنها رقصة الطبيعة

المتقلّبة، إذ تمدُّ إلى أيوب يسراها، وإلى «آشور بانيبال» يمناها.

«أحشويروش»: وماذا تعرف أنت عن حياتي؟ لا شيء. جاهلٌ أنت بحياة البشر.

«بروميثيوس»: جاهلٌ أنا بحياة البشر؟ دعني أضحك! هيًّا، أيها الإنسان السرمدي، أوضح مقصدك. احكِ لي كلَّ شيء. رحلت عن أورشليم...

«أحشويروش»: رحلت عن أورشليم. وبدأتُ حجَّة الأزمان. ذهبت إلى كافة الأرجاء، أيًّا كانت الأعراق، أو العقائد، أو الألسن، فشموس وثلوج، شعوب همجية وأخرى متحضِّرة، جزر، قارات، حيثما تنفس إنسان، هناك تنفَّست. لم أعُد للعمل قط. فالعمل ملاذ، وأنا لم أحظَ بذلك الملاذ. كلّ صباح كنت أجد في حوزتي قطعة نقود اليوم... انظر، تلك هي قطعة النقود الأخيرة. اذهبي، فلم تعُد ثمَّة حاجة إليك (وألقى بقطعة النقود بعيدًا). لم أعمل، بل كنت بالكاد أهيم على وجهي، دائمًا، دائمًا، دائمًا، يومًا إثر يوم، عامًا إثر عام، وكلّ عام، وكلّ قرن. كانت العدالة الأبدية تعرف ماذا تفعل: فقد جمعت بين الأبدية والبطالة. توارثتني الأجيال، جيلًا تلو الآخر. وحفِظَتْ اللغات البائدة اسمي في ثنايا رفاتها. ومع مضيّ الزمن، كانَ كلُّ شيء يذهب في طيّ النسيان، فيتلاشى الأبطال ويغدون أساطير، في الظلمة المشوبة بالنور، من بعيد، ويتهشَّم التاريخ إلى شظايا، فلا يبقى منه أكثر من بضعة ملامح مبهمة ونائية. وأنا أراها بنحوٍ وبآخر. هل تحدَّثت عن فصل من

فصول كتاب؟ سعداء هم أولئك الذين لم يقرءوا من الحياة سوى فصل واحد. إن أولئك الذين رحلوا عند ميلاد إمبراطورية، حملوا معهم انطباعًا بكونها أزلية، أمّا أولئك الذين قضوا نحبهم في زمن اضمحلال إمبراطورية، فقد دُفنوا ومعهم الأمل بأن تُبعث من جديد. ولكن، هل تعرف أنت ماذا يعني أن ترى الأمور نفسها، بلا توقف، التعاقب نفسه بين الرخاء والخراب، الخراب والرخاء، الجنائز الأبدية والمسرّات الأبدية، شروقًا على شروق، وغروبًا على غروب؟

«بروميثيوس»: ولكنك لم تذُق للشقاء طعمًا، حسب اعتقادي. وليس بالقليل ألّا يشقى المرء إطلاقًا.

«أحشويروش»: أجل، ولكني رأيت بشرًا آخرين يتجشّمون الشقاء، وقرب النهاية أصبح يراودني الإحساس ذاته حيال استعراض البهجة وخُطب المجانين، ويلات الدم واللحم، صراعات بلا نهاية، رأيت كلَّ شيء يمرُّ أمام عينيّ، إلى حدٍ كنتُ أفقد معه شهيتي للنهار إذا أقبل الليل، ولا أميِّز في نهاية المطاف بين الأزهار والخَلنَج. ويختلط كلُّ شيء في شبكيَّة عيني المتخمة.

«بروميثيوس»: لم يؤلمك شيء بصفة شخصية. ولكن ماذا عني، أنا الذي تجشَّمت آثار الغضب الإلهي مرات لا تُحصى؟

«أحشويروش»: أنت؟

«بروميثيوس»: «بروميثيوس» هو اسمي.

«أحشويروش»: أنت «بروميثيوس»؟

«بروميثيوس»: وأي جرم ارتكبت؟ صَنَعتُ البشر الأوائل من طين وماء، ثمَّ سرقت لهم النار من السماء، شفقةً بهم. ذلك كان جُرمي. أمَّا «چوپيتر»، حاكم «الأوليمب» آنذاك، فقد حكم عليَّ بأشدِّ عقاب. تعالَ، تسلَّق هذه الصخرة معي.

«أحشويروش»: إنك تروي حكايات خرافية. أعرف ذلك الحلم الإغريقي.

«بروميثيوس»: أيها العجوز قليل الإيمان! اذهب لترى السلاسل التي كبَّلتني. كان ذلك عقابًا مغالى فيه، على جُرم لم أرتكب. ولكن الآلهة مريعة وذات كبرياء... ها قد وصلنا، انظر، ها هي.

«أحشويروش»: وماذا عن الزمن الذي ينخُر كلَّ شيء، ألم يرغب في سلاسلك؟

«بروميثيوس»: لقد صُنعت بأيد إلهية. طرقها «ڤولكانوس». ونزل مبعوثان من السماء كي يشدَّا وثاقي إلى الصخرة، وراح نسرٌ، كذلك النسر الذي يقطع الأفق، يأكل كبدي فلا يأتي عليه قطّ. واستمرت تلك الحال لأزمان لم أحصِ لها عددًا. كلا، ليس لك أن تتخيَّل هذا العقاب.

«أحشويروش»: هل تخدعني؟ هل أنت «بروميثيوس»؟ ألم يكن ذلك حلمًا من أحلام الخيال القديم؟

«بروميثيوس»: أمعن النظر إليَّ، تحسَّس يديّ. تحقَّق مما إذا كان لي وجود.

«أحشويروش»: كذبني موسى القول إذن. هل أنت «بروميثيوس»، خالق البشر الأوائل؟

«بروميثيوس»: ذلك كان جُرمي.

«أحشويروش»: أجل، ذلك كان جُرمك، وإنك لحِرفيّ من الجحيم. ذلك كان جُرمك العصيّ على التفسير. هنا كان ينبغي لك البقاء طيلة الأزمان، مُكبَّلًا، بينما تُلتهم كبدك. أنت، يا أصل الشرور التي بها شقيت. صحيحٌ أن قلبي قد خلا من الرحمة، أمَّا أنت، يا من جئت بي إلى الوجود، أيّها الإله الضال، لقد كنت أنت أصل كلِّ شيء.

«بروميثيوس»: لقد أعمى الموتُ الوشيك بصيرتَك.

«أحشويروش»: أجل، أنت هو، فلك جبين أوليمبي، أيها العملاق القوي الحسن، أنت هو حقًّا... أتلك هي السلاسل؟ لست أرى آثار دموعك.

«بروميثيوس»: ذرفتها من أجل أبناء جنسك.

«أحشويروش»: أمَّا أبناء جنسي فقد ذرفوا من الدموع أكثر بكثير من جراء ذنبك.

«بروميثيوس»: أنصت، يا آخِر البشر، يا آخِر ناكري الجميل!

«أحشويروش»: وفيمَ أريد كلماتك؟ إنما أرغب في أنَّاتك، أيها الإله الضال. ها هي سلاسلك. انظر كيف أرفعها بيديّ. أنصت إلى صليل الحديد... من حلَّ قيودك فيما مضى؟

«پروميثيوس»: هرقل.

«أحشويروش»: هرقل... اذهب لترى إنْ كان سوف يقدِّم لك الخدمة نفسها ثانيةً، فالآن سوف يُشدُّ وثاقك من جديد.

«پروميثيوس»: إنك تهذي.

«أحشويروش»: أنزلت بك السماء العقاب الأول. والآن تُنزل بك الأرض العقاب الثاني والأخير. حتَّى هرقل ما عاد قادرًا على تحطيم تلك القيود الحديدية. انظر كيف ألوِّح بها في الهواء، مثلها كمثل الريشات، فأنا أمثِّل قوى اليأس الألفي. وقد اجتمعت البشرية بداخلي. قبيل السقوط في الهوية، سوف أكتب على هذي الصخرة مرثية العالم. سأنادي النسر، فيلبي ندائي. سأقول له إن الإنسان الآخِر قد ترك له هديةً إلهية ساعةَ رحيله عن الحياة.

«پروميثيوس»: مسكين جاهل، أترفض عرشًا! كلا، ليس لك أن ترفضه بحقّ.

«أحشويروش»: إنك أنت الذي تهذي الآن. هيَّا، أُجْثُ على ركبتيك، دعني أقيِّد ذراعيك. هكذا، حسنٌ، لا تعُدْ للمقاومة. انحنِ هكذا. والآن الساقان...

«بروميثيوس»: انتهِ مما أنت فاعله، هيَّا! إن ذلك هو شغف الأرض وقد أدار لي ظهر المِجَنّ. أمَّا أنا، وأنا لست بإنسان، فلا أعرف نكران الجميل. لن تدرأ عن نفسك حرفًا واحدًا من قَدَرك، بل سوف ينفَذ حُكم القدر بحذافيره. وستكون أنت بنفسك هرقل الجديد. أمَّا أنا، أنا الذي أعلنت مجد الآخَر، فأعلن الآن مجدك. ولن تكون أقل منه كرمًا.

«أحشويروش»: هل أنت تهذي؟

«بروميثيوس»: إن الحقيقة المجهولة عند البشر بمثابة هذيان معلنها. هيَّا، انتهِ مما أنت فاعله.

«أحشويروش»: المجد لا يدفع شيئًا، بل يخبو.

«بروميثيوس»: هذا المجد لن يخبو. انتهِ مما أنت فاعله، هيَّا. لقِّن منقار النسر الحاد كيف يلتهم حشاي. ولكن اسمع... كلا، لا تسمع شيئًا؛ فليس لك أن تفهمني.

«أحشويروش»: تكلَّم، تكلَّم.

«بروميثيوس»: ليس للعالم الزائل أن يفهم العالم الأبدي. بيد أنك سوف تكون حلقة الوصل بينهما.

«أحشويروش»: حدِّثني بكلِّ شيء.

«بروميثيوس»: بل لن أحدِّثك بشيء. شدّ وثاق معصمي، لئلَّا أهرب، لئلا تجدني هنا عند عودتك. أتريدني أن أحدِّثك بكل

شيء؟ قد قلتُ لك إن جنسًا جديدًا سوف يُعمِّر الأرض، جنسًا من خيرة أرواح الجنس البائد. أمَّا حشود الأرواح الأخرى، فلسوف تفنى. عائلة نبيلة، بصيرة وقديرة، سوف تكون بمثابة المجتمع المثالي حيث يلتقي الإلهي والبشري. سوف تكون الأزمان أخرى، ولكن بين تلك الأزمان وهذه، تقتضي الحاجة وجود حلقة وصل، وأنت حلقة الوصل.

«أحشويروش»: أنا؟

«بروميثيوس»: أنت بعينك، أنت المختار، أنت الملك. أجل يا «أحشويروش»، سوف تكون ملكًا. وسوف يجد الهائم راحته. هو ذا الإنسان المنبوذ يحكم البشر.

«أحشويروش»: أيها العملاق الداهية، إنك تخدعني... ملك؟ أنا؟

«بروميثيوس»: ملك أنت. ومن يكون سواك؟ فالعالم الجديد في حاجة إلى تقاليد العالم القديم، وليس هناك من يستطيع الحديث عن أحدهما إلى الآخر مثلك. هكذا لن تكون ثمَّة فجوة بين بشريَّة وأخرى. ومن الناقص سوف يولد الكامل، ويخبِّره فمك بأصوله. وسوف تروي للبشر الجدد كلَّ شيء عن الخير والشر القديم. وهكذا تعود إلى الحياة مثلك كمثل شجرة اجتُثَّت فروعها اليابسة، ولم يبقَ لها سوى الفروع الناضرة. والنضرة هنا أبدية.

«أحشويروش»: يا لها من رؤية زاهية! أنا بنفسي؟

«بروميثيوس»: أنت بنفسك.

«أحشويروش»: هاتان العينان... هاتان اليدان... حياة جديدة خير من سابقتها... يا لها من رؤية عظيمة! أيها العملاق، إنه لحكم عادل. جاء عقابي عادلًا، وبالمثل جاء الغفران العظيم الذي نلته عن خطيئتي عادلًا. سوف أعيش أنا؟ أنا بنفسي؟ حياة جديدة خير من سابقتها؟ كلا، إنك تهزأ بي.

«بروميثيوس»: حسنًا، اتركني، ولسوف تعود يومًا، يومَ تنفتح تلك السماء الشاسعة حتَّى تنزل أرواح الحياة الجديدة. هنا تجدني ساكنًا. اذهب.

«أحشويروش»: هل سأحيِّي الشمس مرَّة أخرى؟

«بروميثيوس»: سوف تحيي الشمس نفسها التي توشك على المغيب. الشمس الصديقة، عين الأزمان، لن يعود جفنك للإغماض أبدًا. أمعن النظر إليها، إن استطعت.

«أحشويروش»: لا أستطيع.

«بروميثيوس»: سوف تستطيع لاحقًا، يومَ تكون أوضاع الحياة قد تبدَّلت. حينئذ سوف تمعن عينك النظر إلى الشمس وهي بمنجاة من الخطر؛ لأن خير ما في الطبيعة سوف يتركَّز في إنسان المستقبل، كلّ ما كان مفعمًا بالطاقة أو مرهفًا، ساطعًا أو صافيًا.

«أحشويروش»: أَقْسِمْ لي بأنك لا تكذبني القول.

«بروميثيوس»: سترى ما إذا كنت أكذبك القول.

«أحشويروش»: تكلَّم، خبِّرني بالمزيد، احكِ لي كلَّ شيء.

«بروميثيوس»: إن وصف الحياة لا يضاهي الإحساس بالحياة. وحياتك ستكون مذهلة. وليس «حِضْن إبْرَاهِيم» المذكور في كتابك المقدَّس العتيق سوى ذلك العالَم الأخروي المثالي. وهناك ترى داود والأنبياء. هناك تحكي للناس، بينما يخيِّم عليهم الذهول، لا عن الجليل من الأفعال في العالم البائد فحسب، بل عن الشرور التي لن يعرفوها أيضًا: المرض أو الشيخوخة، الخداع، الأنانية، الرياء، الكبرياء البغيض، الحماقة غير المتوقعة، وما سوى ذلك من الشرور. وسوف يكون للنفس، مثلها كمثل الأرض، رداء عصيٌّ على الفساد.

«أحشويروش»: هل سأظلُّ أرى هذي السماء الهائلة الزرقاء؟

«بروميثيوس»: انظر كم هي جميلة.

«أحشويروش»: جميلة وساكنة مثلها كمثل العدالة الأبدية. أيتها السماء الرائعة، يا خير من «خِيَام قِيدَارَ»، سأظلُّ أراكِ أبدًا. سوف تتلقين خواطري، كما في سالَف العهد، وتهبينني الأيام الصافية والليالي الودودة.

«بروميثيوس»: شروق على شروق.

«أحشويروش»: هيَّا، تكلَّم، خبِّرني بالمزيد. احكِ لي كلَّ شيء.

دعني أحلّ عنك تلك السلاسل.

«بروميثيوس»: حلّ السلاسل، يا هرقل الجديد، يا آخِر رجال العالم القديم، وأوَّل رجال العالم الجديد. إنه قدَرك. لا أنا ولا أنت ولا أحد قادر على تغييره. إنك أعظم من موسى قدرًا. إذ إنه أبصر أرض أريحا كلَّها، الأرض التي ستكون لنسله، من فوق أعالي جبل «نبو» وهو على وشك الموت، وقال له الرب: «لقد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر». أمَّا أنت يا «أحشويروش»، فإلى هناك تعبر، وفي أريحا تسكُن.

«أحشويروش»: ضع يدك على رأسي، أمعن النظر إليَّ. اغرسْ فيَّ واقعك ونبوءتك. دعني أحسّ قليلًا من الحياة الجديدة الرحيبة... ملك، قلت لي؟

«بروميثيوس»: ملك مختار على جنس مختار.

«أحشويروش»: ليس هذا بتعويض مغالى فيه عن المهانة العميقة التي عشتها. وحيث بصقت حَيَاةٌ طينًا، تضع حياةٌ أخرى إكليلًا. هيَّا، خبِّرني بالمزيد... خبِّرني بالمزيد... (لا يفتأ يحلم. يدنو النسران).

النسر الأول: آه، آه، آه، من ذلك الإنسان الآخِر، يحتضر وهو يحلم بالحياة لم يزَل.

النسر الثاني: لم يبغض الحياة إلى هذا الحدّ سوى لأنه هام بها عشقًا.

16

الكاهن وميتافيزيقا الأسلوب

«هَلُمِّي مَعِي مِنْ لُبْنَان يَا عَرُوس، مَعِي مِنْ لُبْنَان [...] اللُّفَّاحُ يَفُوحُ رَائِحَةً، وَعِنْدَ أَبْوَابِنَا كُلُّ النَّفَائِسِ [...]»[3].

«أُحَلِّفُكُنَّ، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ، إِنْ وَجَدْتُنَّ حَبِيبِي، أَنْ تُخْبِرْنَهُ بِأَنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا [...]».

هكذا، وعلى تلك الأنغام، أنغام دراما مملكة يهوذا العتيقة، جعل يبحث كلٌّ منهما عن الآخر داخل رأس الكاهن «ماتياس»، الاسم والصفة... لا تقاطعني أيها القارئ المتسرِّع. أعرف أنك لا تصدِّق أيًّا مما أقول. ولكني قائله بأيّة حال، على الرغم من ضعف إيمانك؛ لأن يوم التحوُّل إلى الدين على الملأ آتٍ.

في ذلك اليوم -أعتقد أنه سيكون في عام 2222 تقريبًا- سوف تخلع المفارقة جناحيها كي تتوشَّح بمعطف حقيقة شائعة. عندئذ تكون هذه الصفحة جديرة بالتمجيد، وليس بمجرَّد التقدير. سوف تُترجم إلى الألسن جميعًا، وتؤلِّف الأكاديميات والمعاهد منها كُتَيِّبًا لاستخدام العامة من غير رجال الدين، أوراقه من البرونز، حواشيه

3- الأبيات الواردة في هذه القصة من سفر نشيد الأنشاد.

مُذهَّبة، حروفه مطعَّمة بالعقيق، وكسوته من الفضة المنطفئة. سوف تُصدر الحكومات مراسيم تقضي بتدريسه في المدارس الإعدادية والثانوية. سوف يحرق الفلاسفة كافة المذاهب السابقة، حتَّى أكثرها قطعية، ويعتنقون علم النفس الجديد هذا، الحقيقي دون غيره، وينتهي كلّ شيء. وحتَّى تلك اللحظة، سوف يخالني الناس أحمق، كما سترون.

«ماتياس»، الكاهن الشرفي والواعظ المؤثر، كان بصدد وضع موعظة عندما بدأت تلك الأنشودة الروحانية. عمره أربعون عامًا، ويعيش محاطًا بالكتب، ثمَّ المزيد من الكتب، ناحية «جامبوا». جاءوا لتكليفه بوضع موعظة بمناسبة احتفالية تُقام قريبًا. أمَّا هو فقد قابل التكليف بالرفض، في حين كان يُسرِّي عن نفسه حينئذ بقراءة عمل روحي عظيم وصل على متن آخر سفينة شحن. بيد أن القائمين على الاحتفالية ألحُّوا إلى الحدِّ الذي نزل معه على طلبهم. قال له كبيرهم:

- ليست هذه المهمة بأكثر من لعبة هينة عند قداستك.

افترَّ ثغر «ماتياس» عن ابتسامة وديعة وقورة، كما ينبغي لرجال الكهنوت والسلك الدبلوماسي أن يبتسموا. ودَّعه القائمون على الاحتفالية بأسمى آيات التبجيل، وذهبوا للإعلان عن الاحتفالية في الصحف، بتصريح ينص على أن الكاهن «ماتياس»، «من خيرة رجال الكهنوت في البرازيل»، سوف يلقي الموعظة بنفسه. أفقدته عبارة «من خيرة رجال الكهنوت» شهيته حين قرأها في الصباح.

ولم يُقبل على كتابة الموعظة سوى لأنه قد ارتبط معهم باتفاق.

شرع في الكتابة على مضض. ولكن بمرور بضع دقائق بدأ بياشر عمله عن حبٍّ بالفعل. في حين بقي الإلهام شاخص العينين إلى السماء، والتأمّل شاخص العينين إلى الأرض، على جانبي مسند الكرسي، وكلاهما يبوح بألف أمر روحاني خطير في أسماع الكاهن. راح «ماتياس» يكتب، على مهل تارة، وعلى عجل تارة. انسابت الأسطر من بين يديه، مصقولة، تنبض بالحيوية. بعضها يعوزه القليل من التعديلات، أمّا البعض الآخر فلا. وفجأةً، فيما هو على وشك كتابة صفة، يتوقّف. يكتب صفة أخرى، يمحوها، ثمَّ أخرى، لم يكُن حظّها أسعد من سابقتها. ذلك هو مركز الأنشودة. دعونا نصعد إلى رأس الكاهن.

هوب! ها قد وصلنا. كان هذا عسيرًا عليك، أليس كذلك يا صديقي القارئ؟ ذلك حتّى لا تصدِّق أولئك الذين يذهبون إلى «كوركوفادو» ثمَّ يدعون أن الإحساس بالارتفاع هناك من الشدّة بحيث يبدو الرجل وكأنه لا شيء على الإطلاق. وذلك رأي مروِّع وزائف، في زيف يهوذا وقطع ألماس أخرى. لا تصدِّق بذلك، أيها القارئ المحبوب. فلا «كوركوفادو»، ولا الهيمالايا تساوي الكثير مُقارنةً برأسك الذي يضاهيهما. ها قد وصلنا. أمعن النظر، فذلك رأس كاهن. لنا أن نختار واحدًا من نصفي المخّ، ولكن دعونا نذهب إلى هذا، فهنا تولد الأسماء. أما الصفات فتولد في نصف المخّ الأيسر. اهتديت بنفسي إلى هذا الاكتشاف الذي، وإن

لم يكُن اكتشافي الرئيسي، فهو بمثابة أساس له كما سترون. أجل يا سيدي، فالصفات تولد في جانب، أمَّا الأسماء فتولد في جانب آخر، وهكذا تُقسَّم كافة صنوف الكلمات وفقًا للجنس، سواء أكان مذكرًا أم مؤنثًا.

- الجنس؟

- أجل يا سيدتي، الجنس. فلكلِّ كلمة جنس. أوشكت على الانتهاء من مذكرتي النفس-معجم-منطقية الكبرى، التي أستعرض فيها هذا الاكتشاف وأبرهن على صحته. لكلِّ كلمة جنس.

- ولكن، هل تعشق الكلمات إذن؟

- تعشق، وتتزوج. ورباط الزواج القائم بينها هو ما نسميه بالأسلوب. سيدتي، اعترفي بأنكِ لم تفهمي شيئًا.

- أعترف بأنني لم أفهم شيئًا.

- إذن، هلمّي إلى رأس الكاهن أنتِ أيضًا. إنهما يتنهدان على هذا الجانب تحديدًا. أتعرفين من يتنهد؟ إنه الاسم الآنف الذكر، ذلك الذي دوّنه الكاهن على الورقة قبل أن يوقف القلم. ينادي صفةً بعينها، إلّا أنها لا تتبدَّى له: «هَلُمِّي مَعِي مِنْ لُبْنَان، هَلُمِّي...» وهكذا يتحدَّث، فهو بداخل رأس كاهن. لو كان من غير رجال الدين لتحدَّث بلغة روميو وجولييت: «جولييت هي الشمس... أشرقي أيتها الشمس الجميلة». ولكن في المخّ الكهنوتي، فاللغة

هي لغة الكتاب المقدس. وفي النهاية، فيمَ تهمُّ الصيغ؟ فعاشقا «فيرونا» أو عشاق مملكة يهوذا يتحدَّثون جميعًا اللغة نفسها، كما يحدث حين يتعلق الأمر بـ«التالر» أو الدولار، «الفلورين» أو «الليرا»، كلُّها النقود ذاتها.

ولذا، تعالوا بنا نخوض المخّ الكهنوتي بينما هو آخذ في الدوران حول مركزه، نقتفي أثر الاسم الذي يفتِّش عن الصفة. «سيلڤيو» ينادي «سيلڤيا». أنصتوا. من بعيد يبدو أن ثمَّة شخصًا يتنهد هو الآخر. إنها «سيلڤيا» تنادي «سيلڤيو».

الآن يسمع كلاهما الآخر، ويفتِّش عنه. شاقٌّ ومتشابك هو الطريق عبر مخٍّ ملآن إلى هذا الحدِّ بالجديد والقديم من الأمور. ثمَّة جلبة أفكار هنا، بالكاد تسمح بسماع نداءات كليهما. علينا ألَّا ندع «سيلڤيو» المتوهج يغيب عن أنظارنا، ها هو، يهبط ويصعد، يتزلج ويقفز. ها هو، حتَّى لا يسقط، يتشبث بجذور لاتينية، يتكئ على مزمور، يركب بحرًا من بحور الشعر، ويمضي في طريقه أبدًا، تحمله قوة حميمية لا يملك مقاومتها.

وبين الفينة والأخرى، تتبدَّى له سيدة -صفة هي الأخرى- وتعرض عليه ما لها من محاسن قديمة وجديدة. ولكن، يا إلهي، ليست تلك هي الصفة نفسها، ليست هي الصفة الفريدة المقدر لها الاقتران به منذ الأزل. ويتابع «سيلڤيو» سيره، بحثًا عن الصفة الفريدة. مُرِّي أيتها العيون بكافة الألوان، أيتها القدود بكافة الأشكال، أيتها الشعور الشمسية أو الليلية. موتي بلا صدى أيتها

الأناشيد الرقيقة التي يتنهد بها الكمان الأبدي، إن «سيلڤيو» لا يطلب حبًّا كيفما اتفق، عرضيًّا أو مجهولًا، بل يطلب حبًّا بعينه، بالاسم، حبًّا مقدرًا له أن يكون.

والآن لا تجزع أيها القارئ، فليس هناك ما يدعو إلى ذلك. إنه الكاهن، يهبُّ واقفًا، يذهب إلى النافذة، يتكئ عليها حتَّى يصرف ذهنه عن الجهد المبذول. يتطلع، وينسى الموعظة وما عداها. الببغاء الواقف على خشبة بجوار النافذة يردِّد على سمعه الكلمات المعهودة، وفي الفناء، ينفش الطاووس ريشه كليَّةً تحت شمس الصباح، والشمس نفسها تتعرف على الكاهن، وترسل إليه بواحد من أشعتها الوفيّة، على سبيل التحية. ينزل الشعاع، ويتوقف قبالة النافذة:

– قداسة الأب الكاهن، جئت أحمل إليك رسالة من الشمس.

يبدو وكأن الطبيعة كلَّها تصفق تهليلًا بعودة مركب الروح. ويُسَرُّ هو أيضًا، يسكبُ عينيه في ذلك الهواء النقي، يتركهما تشبعان من الخضرة والنضرة، على تغريد طائر وأنغام بيانو. ثمَّ يتحدَّث إلى الببغاء، ينادي البستاني، يتمخَّط، يفرك يديه، يتكئ. ما عاد يتذكر لا «سيلڤيو» ولا «سيلڤيا».

بيد أن كلًّا من «سيلڤيو» و«سيلڤيا» يتذكَّر الآخر. بينما الكاهن يتخيَّل أمورًا غريبة، يمضيان في البحث عن أحدهما الآخر، من دون أن يعرف الكاهن أو يرتاب في شيء. وبأيَّة حال، فالطريق

الآن معتمة. إذ ننتقل من الوعي إلى اللاوعي، حيث تجري الصياغة المرتبكة للأفكار، حيث تنام وتغفو الذكريات. هنا تتقافز الحياة بلا أشكال، فالبذور والبقايا، الأسُس والرواسب... إنها العُليَّة مترامية الأطراف حيث تسكن الروح. إلى هنا هَوَيَا، بينما يفتِّش كلٌ منهما عن الآخر، يناديان، يتنهدان. ناوليني يدكِ سيدتي القارئة، تشبَّث بي سيدي القارئ، هلمّوا بنا ننزلق نحن أيضًا.

عالم شاسع مجهول. يخترق «سيلڤيو» و«سيلڤيا» أجنّة وأطلالًا. مجموعات من الأفكار يُستدل عليها بالقياس، تضلُّ طريقها وسط صخب ذكريات الطفولة والمعهد اللاهوتي. أفكار أخرى، حبلى بالأفكار، تزحف متثاقلة، في حماية أفكار عذراء. أشياء وبشر، في حالة اندماج. أفلاطون يضع نظارة كاتب عدل بالغرفة الإكليريكية. موظفون من كافة الدرجات يوزعون قطع نقود «إتروسكانية» وتشيلية... كتب إنجليزية وورود شاحبة، من الشحوب بحيث لا تبدو هي الورودَ نفسها التي غرستها أمُّ الكاهن عندما كان طفلًا. ذكريات تقيّة وعائلية تتقاطع وتختلط. هنا الأصوات النائية التي تردَّدت في أوَّل قدَّاس إلهي. هنا الأغاني الريفية التي كان يسمع السوداوات يتغنَّين بها في البيت. مِزَقٌ من الأحاسيس المتلاشية، هنا خوفٌ، وهناك لذّةٌ، وهنالك حِملٌ من الأمور التي حلَّت عندما حان وقتها، والآن تتمدَّد في وحدة عظيمة مبهمة عصيّة على الإدراك.

- «هَلُمِّي مَعِي مِنْ لُبْنَان يَا عَرُوس...».

- «أُحَلِّفُكُنَّ، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ...».

يسمع كلٌّ منهما صوت الآخر أقرب فأقرب. وها هما يصلان إلى الطبقات العميقة، طبقات اللاهوت، الفلسفة، الشعائر، الجغرافية، التاريخ، الدروس القديمة، الأفكار الحديثة، وقد اختلطت جميعًا، العقيدة وعلم النحو. هنا مرقت يد «سبينوزا» الواحدية في الخفاء. وهناك أثر خدش العالم الملائكي «توما الأكويني». ولكن، لم يكن أيٌّ من ذلك «سيلڤيو» أو «سيلڤيا». فهما يشقّان طريقهما، تحملهما قوة حميمية، جاذبية سريّة، عبر كلّ عقبة وفوق كلّ هاوية. ولسوف تأتي الأحزان أيضًا. هموم قاتمة، لم تبقَ في قلب الكاهن، بل هنا، كالبُقَع النفسية، وإلى جوارها الانعكاس الأصفر أو الأحمر، أو أيًّا كان لون الإحساس بالألم من أجل الآخرين ومن أجل البشر أجمعين. يشقّان طريقهما عبر كلّ ذلك، تحدوهما سرعة الحبّ والرغبة.

هل تترنح، أيها القارئ؟ ليس العالم هو الذي ينهار فوق رءوسنا، بل إنه الكاهن وقد جلس لتوه. صرف ذهنه عن العمل ما شاء أن يفعل، والآن عاد إلى مكتب العمل، يعاود قراءة ما كتب بقصد متابعة الكتابة. يتناول القلم، يبلل طرفه، يضعه على الورقة، لعلّ الصفة تنضم إلى الاسم.

والآن على وجه التحديد، صار كلٌّ من العاشقيْن المشتاقيْن أقرب إلى الآخر. تعلو الأصوات، يلتهب الحماس، ينساب سفر نشيد الأنشاد كاملًا من بين شفتيهما، وقد مسَّتهما الحمَّى. عبارات

نبعث على البهجة، نوادر حجرة المقدَّسات، كاريكاتير، نكات، ترهات، وجوه عجيبة، ما من شيء يقف في طريقهما، ناهيك عن أن يرسم البسمة على شفتيهما. يتقدمان، يتقدمان، والمسافة تضيق. فلتبقَيْ هناك، أيتها الخيالات شبه المطموسة، خيالات حمقى أضحكوا الكاهن، ثمَّ نسي بشأنهم تمامًا. فلتبقي، أيتها التجاعيد البائدة، أيتها الأحاجي القديمة، يا قواعد الكوتشينة، وأنتِ أيضًا، يا خلايا الأفكار الجديدة، يا رسوم المفاهيم الأولية، أيتها الأتربة، يا من لا بد أن تصيري هرمًا، ابقي، ابقي في مرساكِ، ترقَّبي، ولتيأسي، ليس بينكِ وبينهما شيء. فهما عاشقان، يفتِّش كلٌّ منهما عن الآخر.

يفتِّش كلٌّ منهما عن الآخر، ويعثر عليه. أخيرًا عثر «سيلڤيو» على «سيلڤيا». رآها ورأته، سقط كلٌّ منهما بين ذراعي الآخر، يلهثان من الإعياء، وإن أبرأتهما المكافأة. يتَّحدان، تتشابك الذراعان، يعودان من اللاوعي إلى الوعي وقد تسارعت خفقات قلبيهما. يسأل «سيلڤيو» كما في سفر نشيد الأنشاد:

- «مَنْ هَذِهِ الطَّالِعَةُ مِنَ البَرِّيَّةِ مُسْتَنِدَةً عَلَى حَبِيبِهَا؟».

أمَّا هي، فبالكلمات الجزلة نفسها، تجيب:

- «اجْعَلْنِي كخَاتِمٍ عَلَى قَلْبِكَ [...] لأَنَّ المَحَبَّةَ قَوِيَّةٌ كَالمَوْتِ».

وعندئذٍ تسري اختلاجة في جسد الكاهن، ويشرق وجهه. أمَّا القلم فيجمع بين الصفة والاسم، مفعمًا بالمشاعر الجياشة

والاحترام. والآن سوف تسير «سيلڤيا» إلى جوار «سيلڤيو»، في الموعظة التي يعتزم الكاهن أن يلقيها ذات يوم. وسوف يذهبان إلى المطبعة معًا، في حال جمع كتاباته، وهو ما لم يُعرف بعد.

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

العرَّافة وقصص أخرى

يضم هذا الكتاب أفضل الأعمال القصصية للكاتب «ماشادو دي أسيس»، وتعتبر من كلاسيكيات الأدب البرازيلي، وقد نشرت في الأصل ما بين عامي 1884 و1891، ثمَّ جمعها الكاتب لاحقًا في مجموعة واحدة. وقُدِّم بعضها على شاشة السينما، كـ«العرافة» و«رجل شهير» و«الدافع الخفي».

ويُعدُّ «ماشادو دي أسيس» واحدًا من أعظم أدباء البرازيل على مرِّ العصور، إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق. ومن أهم أعماله الروائية «دون كازمورو» و«عيسو ويعقوب». وقد توفي في عام 1908 تاركًا ورائه ميراثًا أدبيًّا ثريًّا بقدر ما هو متنوِّع.

وعاصر «ماشادو» حقبةً حافلة بالتغيرات والزخم، كما شهد تحوُّل البرازيل من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري عام 1889 وحَظْر العبودية عام 1888. وفي السياق ذاته، تجدر الإشارة إلى كونه خلاسيًّا (ذا أصل مختلَط من الجنسين الأبيض والأسود)، وإلى كون أسلافه من العبيد الذين نالوا حريتهم، الأمر الذي يجدر الأخذ به في الحسبان لفهم إشارات الكاتب بصدد لون البشرة والعبودية.

ماشادو دي أسيس

وُلِد «جواكين ماريا ماشادو دي أسيس» في 1839 بمدينة «ريو دي جانيرو» بالبرازيل، حيث نال قدرًا من التعليم بالمدارس الحكومية، إلَّا أنه لم يلتحق بالجامعة طوال حياته. وعلى الرغم من ذلك فقد تعلَّم الإنجليزية والفرنسية والألمانية بنفسه، كما تقلَّد عدة مناصب حكومية رفيعة المستوى. استهل مشواره الأدبي عام 1855 بقصيدة «هي» التي نشرها في مجلة «مارموتا فولمينينزي». وتطرَّق «ماشادو» إلى كافة ألوان الكتابة تقريبًا، كالشعر والرواية والقصص القصيرة والمسرح على سبيل المثال لا الحصر، وهو يُعدُّ واحدًا من أعظم أدباء البرازيل على مرِّ العصور ؛ وفي عام 1897 انتخب كأول رئيس لـ«أكاديمية الآداب البرازيلية».

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET